

الإمام

محمد بن عبد الوهاب

أو

انتصار المنهج السلفي

عبد الحلیم الجندي



معارف

الإمام
محمد بن عبد الوهاب
أو
انتصار المنهج السلفي

الإمام
محمد بن عبد الوهاب
أو
انتصار المنهج السلفي

عبد الحلیم الجندي



دار المعارف

المؤلف : المستشار عبد الحليم الجندى

- * الرئيس السابق لإدارة قضايا الحكومة فى جمهورية مصر العربية .
- * رئيس لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- * عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .
- * عضو لجنة الشريعة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- * الأستاذ الزائر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية فى العام الجامعى :
(١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

صفحة	تقديم
٧	
١١	الباب الأول - من عالم النور إلى بحر الظلمات
١٣	الفصل الأول : (من خير القرون إلى ظهور البدع)
٢٦	المنهج السلفي مركز الثقل في الأمة
٣١	البدع
٤٠	الفصل الثاني : (من البدع المدمومة إلى البدع المكفرة)
٤٢	التصوف السلفي
٤٨	التصوف الفلسفي
٥٢	من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفي
٥٢	غلاء الشيعة
٥٧	التصوف الفلسفي
٦٢	الأولياء
٦٣	الكرامات
٧٠	الفصل الثالث : (العودة إلى المنهج السلفي - ابن تيمية)
٧٧	ابن قيم الجوزية
٨٣	قبس من النور
٨٧	الباب الثاني - الدعوة إلى التوحيد
٨٩	الفصل الأول - الداعي إلى الله
٩٨	إلى الدرعية
١٠٨	انتشار الدعوة
١١٧	الفصل الثاني - الدرس الكبير
١٢٠	المدخل إلى التوحيد
١٢٤	التوحيد
١٣٠	الغلو في الصالحين
١٣٦	الفصل الثالث - بين الاجتهاد والتأويل

صفحة	
١٣٦	الفرع الأول : الاجتهاد
١٣٨	نماذج من الفقه
١٤٥	الفرع الثاني : العلم اللدنى أو التأويل الباطنى
١٤٩	الباطنية والتصوف الفلسفى
١٥٥	الباب الثالث - انتصار المنهج السلفى
١٥٧	الفصل الأول - الجهاد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١٦٧	الفصل الثانى - الملحمة
١٦٩	انتصار الدعوة فى معركة الدرعية
١٨٢	الفصل الثالث - المنهج السلفى يقيم الدولة العصرية
١٨٧	الملك فيصل بن عبد العزيز
١٨٩	الفصل الرابع - صعود الشمس فى السماء
١٩١	الشوكانى
١٩٣	السيد أحمد
١٩٣	السنوسى
١٩٤	المهدى
١٩٥	الألوسى
١٩٦	محمد عبده
٢٠٠	المنهج الإسلامى منهج علمى

الفهارس :

٢٠٥	فهرس الأحاديث
٢١١	فهرس المسائل
٢١٦	فهرس الأماكن
٢١٩	فهرس الأعلام
٢٢٨	فهرس المراجع
٢٣١	للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصميم

لهذا الكتاب إخوة كبار عن أئمة الفقه الأربعة لأهل السنة ، والخامس منها عن الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة ، تأخينا بها وصف الحياة التي حيوها ، وشرح أصول مذاهبهم ، وإظهار الجلال العلمي والهدى الإسلامى فى وقائع تتكلم على ألسنة رجال من لحم ودم ؛ لتتجلى بالطريقتين - الموضوعية والشخصية - عظمة الإسلام ، ودرجات الكمال فى الرجال ، وسماحة الشريعة ، واتساع فقهها واقتداره على أن يصلح العالم كله فى عصرنا الحاضر . فما أحزاه أن يصلح به الله حال المسلمين الآن !

والمجتمع العالمى الآن يعالج حضاراته فى الشرق والغرب وفى العالم الثالث ، ويتنادى بقيم جديدة تعيده من شرور الانحلال الخلقى والعاطفى ، الفردى والأسرى والاجتماعى ، وحرية الشهوة ، وشيوع المخدرات ، وتفاقم الجرائم ، والفرع الشخصى والجماعى من الدمار النووى المرتقب !

ولم تكف المستشفيات معالجة ضحايا المخدرات ولا التعليم محاربة اللذة المحرمة أو الفقر النفسى الذى ينزف ما تجمعه الحضارة المعاصرة بين أيدي البشر من آثار الإنتاج الكبير وأعراض النعمى والغضارة أو الفرع الذى ينزع الطمأنينة من أنفس الناس ، فيستكثروا من الإنتاج النووى وهم عليمون أن فيه هلاكهم ، فيضيفوا فرعاً إلى فرع . وتبزع الحضارة نفسها وهى فى كمال إدراكها ! ونزلت بعض المجتمعات عن حرياتنا لدولها فنزلت ونزلت حتى خسرت خصائص آدميتها ! ولا جرم أن المجتمع الإسلامى المعاصر يعيش فى مستوى أدنى مما يؤهله له الإسلام . والإسلام قانونه الكفاح والمساواة والعدالة .

وإنما يستقعد أهله الانفصال بين العقيدة والسلوك ، والانحراف عن الوسيلة الكفيلة بالتقدم ، وهى جليلة لأعينهم قائمة بين أيديهم ، أعلنها مالك بن أنس فى مقولته الجارية على الألسن : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله !

وفى هذا المعتزك الفسيح للإصلاح بذل كل إمام جهده ؛ ليعيد المسلمين إلى الجادة .

وفي القرنين السابع والثامن بلغ الفساد كل مبلغ ، فلم يقتصر على الجمود والتقليد أو على الامتناع عن الجهاد ، أو الاستهتار بالقيم الدينية ، بل تجاوزها إلى الانقطاع عن التوحيد واستبدال الطقوس والبدع الذميمة أو المكفرة بالدين الصحيح .

وكان من فضل الله أن أتاح ابن تيمية للإصلاح ، فخاض معركة الدفاع عن الدين ببراعة واقتدار ، وخلف بمؤلفاته وسيرة حياته محجة واضحة سار عليها «ابن عبد الوهاب» ، وأضاف إلى فقهه القيمة العظمى التي تهب الحياة للكلمات ، يوم حمل دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة في يد ، وسيف القوة في يد ، فأمكنه الله من تطبيق الشريعة . وصلاح أمر الجماعة في سنوات ، وتتابع على نهجه المصلحون من بعده .

* * *

ومن أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العصر الحالى إلى التأسى بكل كلمة قالها وكل صنيع صنعه - وضع هذا الكتاب ؛ ليذكر كل ذى بصر أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر . وصدق رسول الله ﷺ : « مثل أمتي كالطر لا يدري : أوله خير أم آخره » .

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية تمسكان كرة الأرض من الشرق والغرب من جزيرة العرب ، وتملكان الزاد والعتاد ، يوم أشرقت شمس الإسلام ، في حين لم يكن المسلمون يملكون إلا عقيدتهم . وانتصر أصحاب العقيدة على العالم في سنوات معدودات . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !

وكهيئة ذلك الانتصار تماماً - وفي المكان ذاته - تكررت دروس العقيدة على يد الإمام محمد ابن عبد الوهاب ، لتظهر السماء بنى الدنيا مرة إثر أخرى ، على أن عقيدة التوحيد تهب الشجاعة وتحث الانتصار ؛ إذ يتواعد الرجال الصلُّب على الجنة ؛ ليظفروا بالشهادة أو بالنصر ، وهم في الحاليتين منتصرون ؛ ولتظهر على مدار قرنين ونيف بعد موت الإمام - أن الذين لا تسقط أعلام الجهاد من أيديهم لا يخسرون أرواحهم ؛ وإنما يهبون بها الخلود لأمتهم ؛ فتغدق السماء حيث تشح السحب ، وتنجب الأمة حيث تجذب الأرض !

بهذا أصبحت المملكة العربية السعودية دولة رائدة في المجتمع العالمى ، معلمة للمجتمع الإسلامى ، بانتصار الشريعة على الجريمة والرذيلة والتواكل والجهل والفشل التي رحضت مواهب غيرها من الأمم ، وبسيادة العدالة والطمأنينة ، وانتشار الجامعات وازدهار الأخلاق الرغيبة والائثار بالمعروف والتناهى عن المنكر .

وبهذا قامت جماعة إسلامية حقاً هي آدى للأمانة واكد في التعامل ، وأبعد من التبذل ، وأصون للحرمانات ، تتواصل فيها الطبقات وتكدح ، وتجد وتجتهد ، وتثبت لعالم تتخاذل دوله ،

وتدلل شعوبه - أن العذاب يحل بالأمم من أنفسها ، ولا يصيب الذين ظلموا خاصة ، وأن الله صادق وعده ناصر جنده ، وإن غي عن ذلك عبدة القوة أو المادة ، أو عمى الآخرون عن رؤية الواقع !

* * *

والإمام محمد بن عبد الوهاب لا يقدم للعالم ولا للمسلمين نظرية فلسفية ؛ وإنما يقدم أعمالاً ومنجزات . والعمل ملاك الفكر الإسلامى ، وهو فكر إيجابى كله ، والإيمان فيه إقرار وعمل . والتاريخ إذ يسجل لنا منجزاته يعرضها للبشرية على الطريقة الإسلامية المعلمة : فتبدأ بداية الإسلام فى الصحراء . وتستطرد فى الديوع والنماء والتمكين ، مع الالتزام الدقيق بمنهج السلف الصالح ؛ لتنشئ فى جزيرة العرب دولة كبرى تراحم بمنكب ضخم ، فى موكب التقدم ، وتتبع أحدث أساليب التكنولوجيا ، وتبته أعداء الشريعة بنجاح مقطوع القرن ، فتنتفى اتهام الجاهلين للفقه الإسلامى بالتخلف عن سداد حاجات المسلمين فى القرون الحديثة ، وتعلم الجميع أن الوسيلة (الوحيدة) للنهوض بالأمّة هى تطبيق الشريعة .

وبارك الله فى الأرض التى طهرتها الشريعة ، فدرّت بنايعها بالعطاء ، إرشاداً من السماء للناس كافة ، إلى حيث يولى المسلمون وجوههم ؛ ليعبدوا الله وحده ، وليعملوا لدنياهم صادقين . وبارك الله لابن عبد الوهاب . فلم يلق ربه إلا بعد أن شهد توحيد الجانب الشرقى من جزيرة العرب إيذاناً بوحدتها الكاملة بعده ، وإن تراخى الزمان - فما الأعوام أو الحوادث فى تاريخ الديانات إلا منارات ، أو أحرف يكتب بها التاريخ كلماته .

والمسلمون أمة نسجت مقومات وجودها وبقائها من قيم الإسلام . وكل يوم يمر على الأمة - دون أن تعمل بها - يوم من أيام الضياع ينزل بها الهزائم ، ويزيد الغشاوة على أبصار أبنائها كثافة ، فيتشاحون على العيش الرغد أو على مجرد البقاء فى الأرض وإن كان فيه الهوان .

وصدق رسول الله ﷺ : «توشك الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن» قال قائل : يا رسول الله ما الوهن ؟ قال : «حب الدنيا وكراهة الموت» .

* * *

وبعد فهذا الكتاب أقسام ثلاثة فى أبواب تستقرئ التاريخ ، وتستشهد الوقائع ، وتدلل على الداء ، وتقدم الطب الذى طبه له الإمام .
الأول : يعرض - فى صورة عجل - ألفاً ومائة عام من عمر أهل الإسلام ، وكيف أسلمتهم

الفرقة الباكورة والحكومات الجائرة وانطواء العلماء من قرن بئيس إلى قرن أبأس ! وكيف نشأت البدع الصغار لتنتشر كالشرار ، فتسرى من بعدد كالنار في هشم المحتظر ، فتز أركان الجماعة فلا يبقى لها من التوحيد - وهو أصل الدين - إلا مجرد النطق بالشهادة ومن أمور العبادة إلا أشكالها . ويتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو الدواء الفطري الذي أمرت به السماء ، لتستعمل الفطرة في علاج الذات ، فتستجيب له بالطبيعة .

والثاني : يعرض ميلاد رجل قدرته السماء ؛ ليصلح ما أفسدته القرون السابقة ولتستفتح به الأمة أسباب الصمود في عصورها الحديثة مع ظهور الحضارة الغربية وسيطرتها ؛ لتعد المسلمين للاقتدار على التطور، بالعودة إلى أصل الدين وهو التوحيد ، وإلى خصيصة الجماعة الإسلامية ، وهي الائتثار بالمعروف والتناهي عن المنكر . وكيف نجح الشيخ ، واتخذ المنهج السلني عماداً لفكره وقواعد الحرية القانونية التي يمتاز بها فقه أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية سناداً لفقهه : مع سلوك مسلك الصحابة والتابعين وأئمة الفقه :

١ - بتعليم المسلمين بالمجلس النبيه في (العينة) و(الدرعية) ، وبالمؤلفات الواضحة المقنعة لإدحاض البدع التي أركست المسلمين في الحضيض من قبل عصره وفي إبان عصره ، ومازالت مقاومتها وسيلة لإقالة المسلمين من عثارهم في العصور التي تلت .

٢ - ويحمل السيف على الذين يلحدون في الدين ويشركون بالله من عبدة الأصنام من الحجر أو الشجر أو الناس .

والثالث : يظهر الدور الذي قامت به أسلحة محمد بن سعود وبنيه في خدمة الدعوة ، وبسالة الأبطال في الاستشهاد من أجل العقيدة ، وانتصار المذهب السلني والدعوة الوهابية ، وانتقال الدعوة بالحروب المظفرة أو المعارك الخاسرة إلى خارج جزيرة العرب . وخارج القرن الذي ظهرت فيه ، لنرى في كل بلدان الإسلام ، وكل داعية للإصلاح في القرنين اللذين أعقبا موت ابن عبد الوهاب - تلميذاً له في الفكر ، يدين بتعاليمه جملة وتفصيلاً .

البَابُ الأولُ

من عالم النور إلى بحر الظلمات

« يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانها عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، وتسالوني فلا أعطيكم » .
حديث شريف

في الصفحات التالية جولة عجيبي في فروع من التاريخ ، تعبر بها وقائع تحيرناها ، عن أسباب الفساد الذي أصاب المسلمين من سقطات الولاة وفرطات الجماعة وإغضاء أهل العلم ، يتضح منها للناس أن الوسيلة لصلاح بالهم هي العودة إلى الأمر الأول : أمر النبي ﷺ وصحبه ، حيث الشريعة مطبقة يعضون عليها بالنواجذ ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا . ولما نسي المسلمون الله أنساهم أنفسهم ، وعلا شأن الشعوبيين والفرس والأتراك ، وأوشك المجتمع الإسلامي أن يكون غير إسلامي !

وتساءل المسلمون متى نصر الله ؟ وكان الجواب ظهور أحمد بن تيمية في القرن السابع ومحمد ابن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر للهجرة .

والكلام في هذا الباب فصول :

الأول : خاص بمسيرة التاريخ كما تتابعت بها القرون حتى كُبحك المسلمون في أمور يكفرها دينهم أو يبدعها ، تُعطل الدأب وتُطفئ شعلة الفكر وتربطه في داخل حلقة مفرغة من الوهم الذي يقتل الأمم .

والثاني : خاص بالفلسفات التي ينتسب بها بعض للتصوف . والصوفية الصلحاء منها براء . وكيف أدخلت على الإسلام وأوقفت ازدهار مجتمعات المسلمين .

والثالث : خاص بانتصار ابن تيمية ومدرسته للمنهج السلفي وانتصاره به .

الفصل الأول

من خير القرون إلى ظهور البدع

«خير القرون قرني تم الذين يلوهم تم الذين يلونهم» .
حديث شريف

كانت السنوات الأولى من عمر الإسلام سنوات تكوين وتمكين بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتماع الكلمة ، وانطلاق العرب بالإسلام خارج جزيرتهم كإنتشار الضوء بعد انفجار الفجر في كل الأرجاء .

وخلف الصديق صاحبه ﷺ . ثم استخلف الفاروق . واختار أهل الشورى عثمان بعد عمر فبايعه المسلمون .

ثم بايعوا عليا بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ إلا كبراء بني أمية وعلى رأسهم معاوية في الشام وثلة ممن شايعهم من الصحابة .

ودب ديب الفرقة ، فدارت رحى الحرب بين علي وبين طلحة والزبير في موقعة (الجمل) وأظفره الله بهما ، فصفح الصفح الجميل ، ثم تلاقي علي وجند الشام في موقعة (صفين) . وأدرك معاوية وبنو أمية معه أنهم منهزمون . فرفعوا المصاحف على شبا الرماح طالين (تحكيم كتاب الله) . ولم يكن لأمر المؤمنين معدى عن أن يقبل التحكيم ، فخرج عليه من جيشه (الخوارج) . وهم يسمون كذلك : إما لخروجهم في سبيل الله كما وهما ، وإما للخروج على الجماعة كما فهم المسلمون ، وهزمهم أمير المؤمنين (بالنهران) ، واستشهد بطل الإسلام ، في كبريات حروبه ، بطعنة (خارجي) في المسجد سنة ٤٠ .

وبايع الناس بعده ابنه الحسن ، فلبث شهراً ، ثم تصالح هو ومعاوية ، وقامت دولة بني أمية سنة ٤١ لتبقى تسعين عاماً ونيفاً حتى سنة ١٣٢ (٦٦٩ - ٧٤٩ م) .

أنسى معاوية الناس بكيسه وسخائه خروجه على أمير المؤمنين وقسوته على شيعته ، فلم يستعمل الحسام كلما أجزأه الكلام ، وقد طالما أجزأه . وكان نضيج الرأي يظن للمأتى البعيد للخطر ، فشغل جيوش المسلمين بالجهاد ، فكان فيها الحسين بن علي والعبادة (١) وصحابة الرسول ﷺ .

(١) جمع عبد الله . العبادة الأربعة ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير .

وكان المسلمون يتتصرون .

وكانت سنواته العشرون سنوات رخاء وفتوح في البر والبحر وفي أنفس الناس . وراح بأسو الجراح ، فلم يأكل كبده الضغن . وأنزل الله في قلبه السكينة ، وانتقلت من قلبه إلى الجمهور ، وكانت نقلة الأمة من أعاصير الفتن إلى عصر السلام مآثرته .

وربما أجزأ عن الشروح أو فلسفة التاريخ إسهاد الوقائع . وقد يكفي منها واقعة واحدة من حياته اليومية توضح فلسفته وطريقته أو سياسته . والوقائع أشياء وأشخاص تتكلم . والناس لها أسمع وأبصر :

روى جلساؤه في دمشق ما قالته (الزرقاء بنت عدى) أيام كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة فأمر الوالي أن يسيرها إليه وأن يكرمها . . حتى إذا جاءته قال : كيف حالك يا خالة وكيف مسيرك إلينا ؟ قالت : خير مسير . قال : ما حملك على أن تحرضي علينا ؟ قالت يا أمير المؤمنين : قد مات الرأس وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال : هل تحفظين ما قلت ؟ قالت : لا

قال : لله أبوك ! لقد سمعتك تقولين :

(أيها الناس ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . . إنه لا يستوى الحق والمبطل . أفن كان مؤمنا كمن كان فاسقا . لا يستوون . فالنزال النزال ، والصبر الصبر ، ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء) .

يا زرقاء ، أليس هذا تحريضك ؟

قالت : لقد كان ذلك .

قال : لقد شاركت عليا في دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتكم ، مثلك يبشر بخير ويسر جلسيه !

قال : أوقد شرك ذلك ؟

قالت : والله لقد سرني وأنى لي بتحقيقه .

قال : والله لو فاءكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته . فاذكرى حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إني آليت على نفسي : لا أسأل أحداً بعد عليّ حاجة .

قال : لقد أشاروا عليّ بقتلك .

قالت : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا ، لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة !

فأعطاهما كسوة ، وأقطعها ضيعة !

وولى بعد معاوية ابنه يزيد (٦١ - ٦٤) . وفعل يزيد الأفاعيل بالمسلمين : من استشهاد الحسين بن علي في كربلاء واستشهاد ستة إخوة معه وخمسة من حفدة فاطمة . واثنين من أبناء عبد الله بن جعفر زوج زينب بنت علي ، إلى وقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ حيث استشهد (أهل بدر) في محاربة يزيد ، فلم يبق على الأرض بدرى واحد ! إلى حرق جيشه للكعبة وهو ينسحب من حصار مكة بعد موته . وهى حوادث ثلاثة وقعت في سنوات ثلاث هى كل حكمه ، أولعناث ثلاث تنزلها السماء بدولته . وتنذر بها المسلمين ليبصروا بآثار الفرقة والصراع على السلطة ! وكانت النذر أقرب إلى قلب معاوية بن يزيد ؛ إذ خلفه فتزل عن الخلافة ، وأعلن أن آباءه كانوا جائرين . فكان هذا حكماً عليهم من أنفسهم .

* * *

وبايع بنو أمية من بينهم مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر ، وتتابع الملك العضود في أبناء عبد الملك الأربعة نحو الأربعين عاما وإن توسط عقدها ثلاثون شهراً أو نحوها من خلافة راشدة لابن عمهم وزوج أختهم عمر بن عبد العزيز . بدأها باستدعاء الجيش الذى يحاصر القسطنطينية إدراكاً منه أن (المسلمين أحب إلى من الروم وما حوت) كما قال .

وضرب عمر من نفسه مثلاً للمسلمين بالتقوى والزهد والبدء بنفسه وأهله في رد المظالم . ولما قدر على نفسه وأهله قدر على الناس : فأقام الحدود وأغنى المحتاجين ، فلم يوجد عند توزيع الصدقات من يستحق الصدقة سواء في المدينة المنورة أو في أفريقية ! وأصبح الناس إذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عن عباداتهم وأورادهم في لياليهم . وسار سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب (١) إذ سئل : كيف تحرب القرى وهى عامرة ؟ فأجاب : (إذا علا فجأرها أبرارها وساد منافقوها) ، فأدنى الأبرار منه وأقصى عنه أهل النفاق ، وأدق النظر في اختيار عماله .

ولم يكتف بتطبيق الشريعة ، بل جعل ولاية الحكم للفقهاء : فأبوالزناد صار كاتباً

(١) رد عمر للمسلمين ما أخذه بنو أمية ومروان من أموالهم . فافتقر بنو أمية ومروان ، فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعيًا للرزق ، فأذن لهم . وأنفذوا إليه عمته . قالت له : أخاف أن يبيحوا عليك يوماً عصياً . قال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقانى الله شره . . فعادت إلى قومها تقول لهم : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم !

لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في خراج العراق ، والحسن البصري صار قاضياً للبصرة . وميمون بن مهران تولى خراج الجزيرة ، وسليمان بن يسار تولى سوق المدينة ، وأبو بكر بن حزم صار قاضى المدينة وأميرها ، ويحيى بن سعيد هو القائل : (بعثنى عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيراً ! ولم نجد من يأخذها ! قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقاباً فأعتقتهم) .

وحدث رجل من ولد زيد بن الخطاب قال : (إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف السنة . فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يستحقه منهم فما يحده فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !) . وهو من قبل أن يغنيهم كان يبعث إليهم في أمصارهم من يعلمونهم .

وأهمه تفرق السنن في صدور الحفظة . فكلف ابن شهاب الزهري وأبا بكر بن حزم جمعها . وذات يوم دخل عليه غلام مع أبيه فسأله : ماذا تعلمه ؟ قال الفقه ؛ قال : علمه الفقه الأكبر ؛ قال : وما الفقه الأكبر ؟ قال : القناعة وكف الأذى .

وكان من فقهه الأكبر يذكر الناس بغضبات السماء ، ليعملوا صالحاً ترضاه ، ويتذكروا أسباب نعمة الله . فيكتب إلى عماله : (أما بعد : فهذا الرجف (زلزال) شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا وشهر كذا وكذا فن كان عنده شيء فليصدق به فإن الله تعالى يقول : (قد أفلح من تركى وذكر اسم ربه فصلى) . وقولوا كما قال آدم : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

هذه الشهور الثلاثون من حكم عمر حجة لله على خلقه باقتدار رجل واحد ، في أقصر زمن ، على إصلاح ما تفسده دول بتمامها ، مهما استحكم الفساد واستغلظ ، إذا صدقت النية ؛ فإنه عندئذ يجد الرجال الصدق والطرائق القاصدة ، ومن خلصت نيته لله فالله معه .

ويذكر المسعودى في مروج الذهب أن صاحب القسطنطينية إذ بلغه نعيه نزل عن سريره وبكى ، وقال لو فد من العرب ذهب للفداء بين الروم والمسلمين : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحى الموتى لظننت أنه يحى الموتى ! ولقد كانت تأتىني أخباره باطنا وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته لطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته . ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدمه ، فزهد فيها حتى صار مثل الراهب (١) .

* * *

(١) قال أسلم : اتكأ عمر بن الخطاب على جدار في جوف الليل وهو يعسر في المدينة . فسمع امرأة تقول لبيتها : قومى

أما حديث هذه الدولة السياسي من قبل عمر ومن بعده فيمكن إجمالاً في أنها رفعت رايات الإسلام فوق جبال القارة الهندية في قلب آسيا في الشرق ، وفي جبال الأندلس وأطراف أوربة على شواطئ المحيط الأطلنطي في الغرب ، على أيدي محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم في آسيا وموسى بن نصير وطارق بن زياد في أوربة . وفي الأندلس استقر المسلمون قرونًا ثمانية انتقلت فيها علوم المسلمين إلى أوربة المسيحية ؛ لتختتم العصور الوسطى وتبدأ العصور الحديثة ، وينتقل المنهج الإسلامي الذي جاء به القرآن إلى عصور النهضة فتبلغ به الحضارة الغربية مبالغها الحالية . كما يمكن إجمال تاريخ الحكم والظلم والعقاب والعذاب من السماء في حروب وثورات شغلت تاريخ بني أمية وبني مروان حصّلها قول عبد الملك بن عمير الليثي لعبد الملك بن مروان إذ هو خليفة : (رأيت في قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما على ترس ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن عبيد ، ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بين يدي مصعب ابن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان ، فتحدثت بذلك إلى عبد الملك فتطير منه) .

أما الرأس الأول فرأس ريحانة النبي ﷺ . وأما الرؤوس الثلاثة الأخرى فرؤوس قواد أضرموا نيران الحروب على بني أمية وبني مروان والآخر منهم كان صديقاً لعبد الملك ومع ذلك سبّ إليه من قتله ! .

وكان عبد الملك معدوداً في الفقهاء حتى ولي السلطة فقست قلبه . والحججاج واحد من ولاته . وهو الذي ضرب الكعبة في حرب عبد الملك مع ابن الزبير إذ تنازعا على الخلافة . وكان لزاماً على الخليفة الفقيه أن يتوقع حساب السماء له على بطشه ويطش الحججاج لحسابه ! .

فسيرى الناس عند قيام دولة بني العباس ، بعد نصف قرن أو يزيد شيئاً ، سبعين ونيفاً من بني أمية يتصدرهم حفيده سليمان بن هشام بن عبد الملك يذبّحون في وليمة أعدت لهم ، ولا يعنى من الذبح إلا حفيد للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز !

ويمكن إجمال الحديث عن ثلث القرن الأخير من عمر الدولة بعد موت عمر بن عبد العزيز بكلمات عن السنوات الأربع التي استخلف فيها يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥) فاستفتحتها

= إلى اللين فامزقه ؛ قالت الفتاة : أما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين أنه لا يشاب اللين بالماء ؟ قالت المرأة : إنك موضح لا يراك فيه عمر ! قالت : والله ما كنت لأطيعه في الملاء وأعصيه في الخفاء ! وعمر يسمع هذا كله .

قال علم الباب واعرف الموضع - ومضى في عسه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع . فنظرت فإذا الحارية آبه لا بعل لها ، وإذا بك أمها لا بعل لها ، فأبيت عمر فأخبرته ، فدعا ولده ، فجمعهم وقال : فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ قال عاصم : لا زوجة لي فزوجني . فزوجها عاصماً . فولدت له بنتاً ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز .

برسالة منه إلى ولاته يقول فيها عن الرجل الصالح وعن أرواح المسلمين وأموالهم : (أما بعد فإن عمر كان مغرورا غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج . فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا كرهوا أم أحبوا ، حيوا أم ماتوا . والسلام) .

وليس بعد قتل الراعى للرعية وسلبها ذنوب !

وتوارى يزيد في مبادله يلقي إليه السمع كل مشاء بنميم ، ويرعى سمعه مغنيتي القصر الشهيرتين سلامة وحبابة ، تثبطان نشاطه وتفسدان حاشيته ، فيصيح من تباريح غرامه : دعوني أطيروا وتطارحه الغانية الصبابة فتهتف : إلى من تدع الأمة ؟

ولما لفظت حبابة أنفاسها تلفت نفسه ، فلفظ أنفاسه بعدها بأيام سبعة !

تلك حال الدولة التي صيرها معاوية (هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل) كما قال له عبد الرحمن بن أبي بكر . والتي حكمت العرب في الموالي وهم كثرة الأمصار ، فلم يصلح حال العرب في جزيرتهم ولا بال الموالي في سائر الديار ، وأقبلت الجيوش من خراسان تطالب بعودة الحكم إلى أهل بيت النبي ، فليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى .

* * *

قامت دولة بني العباس (١٣٢-٦٥٦) على شعارين هما :

١- إعادة الدولة للحكم الإسلامي الحق على أن يتولاها أهل بيت النبي .

٢- المساواة بين الموالي والعرب .

لكن الدولة لم تكد تبدأ حتى أبعدت من الشعارين كل البعد ! فأصبحت ملكاً عضوداً يسيطر الموالي فيه على العرب ، ويوضع الأساس لحكم (شعوى) يقتلع كل ما هو عربى ويخلط في العقائد بقصد وبغير قصد ويفتك بأهل بيت النبي .

ولم يكد أبو جعفر المنصور يبنى بغداد (سنة ١٤٥) حتى غدت كهيئة صندوق الدنيا : عدسة صغيرة يبصر فيها الناظر إليها عجائب العالم ومتناقضاته !

وسيحكم الجاحظ على الدولة بعد انقضاء قرن على قيامها فيقول : (دولتهم أعجمية خراسانية ، ودولة بني أمية عربية أعرابية) .

ولم يقتصر التخليط على الأفكار والأفعال ، بل تسرب إلى دماء الخلفاء فكثير منهم الهجناء . المأمون (٢١٨) أمه «مراجل» خراسانية ، والمعتصم أمه (ماردة) تركية ، وأم الواثق (قراطيس) رومية ، والمتوكل أمه (شجاع) خوارزمية ، والمعتز أمه (قبيحة) والمقتدر والمستكنى أمهما روميتان والمطيع أمه صقلية !

وجنّ على البيت الهاشمي ليل بهم تدلج فيه البدع ، وتناهت إلى المسلمين إسرائيليات كثيرة وخلافات وعقائد من النصارى والفرس والإغريق ، وبدأت آثار الفرقة تظهر في محيط المذاهب بين أهل السنة ، ومال بيت الخلافة عنهم زماناً ، فأضرم الفتنة ، ثم مال إليهم فلم ينفع أو ينتفع ، فلقد ساءت سيرته واستئشس العلماء منه ، أن صار نادياً للخمر وللهو منذ المائة الثانية من عمر الدولة .

وحياة الأمم في عصر هي حاصل حياة أفرادهم وقواده . والناس على دين ملوكهم .

وبعد أن كان في الدولة جهاز لمقاومة الزندقة أصبح فيها من العلماء من يحرض المأمون والمعتصم على الفتك بعلماء الحديث والسنة ، واقتربت نزعة الاجتهاد ونزعة التقليد ، ثم استبد التقليد بعقول العلماء ، وخبا الضياء ، وران الجهل على القلوب ، ولم يعد بين الخلفاء علماء أو أصحاب ورع ، بل شاعت أحاديث البلهنية والرفاهية عنهم ، وحكمت الحاشية باسمهم أو على الرغم منهم (١) .

(١) فقدت الدولة العباسية توازنها بعد موت الرشيد ، وكان أول الأسباب فساد الدين وسوء سلوك الخليفة الأمين . إذ أوصى إليه الرشيد بالخلافة تغليبا للعنصر العربي في بني العباس فأمه زبيدة بنت عم الرشيد . وأوصى لأخيه الأكبر - المأمون - بخراسان . واستفتح الأمين عصر اللهو والخمر والجون في بيت بني العباس على مدى سنوات خمس تعسة ، وثارت خراسان على الخليفة العربي الأب والأم ، كمثل ما ثارت على دولة بني أمية العربية الأعرابية كما يصفها الجاحظ ، وانتصرت جيوشها على الأمين وقتلته وأحلت المأمون محله . وسار المأمون سيرة سوء في المحدثين : ففصل بين الأمة وبين الخلافة ، ثم خلفه أخوه المعتصم بعد أن وصاه المأمون أن يسير في المحدثين سيرته نفسها وأن يمتحنهم بمحنة خلق القرآن ، وهو الخليفة الذي ضرب أحمد بن حنبل ووضعه على العقابين ليعذب حتى الموت أو يقول بخلق القرآن ولو تقيّة .

وكان طبيعياً وقد انحرفت الدولة عن الجادة على مدى ثلث قرن من حكم الإخوة الثلاثة أن تنحرف عن العرب إلى الفرس في حياة المأمون ، فهم أخواله وجنده ، ثم إلى الترك في حياة المعتصم ، فهم أخواله وجنده !

وكان غير طبيعي أن يسقط المعتصم العرب من ديوان الجيش ، وأن يقصره على الأتراك ، فقد لاذ منهم بذنب سيفترس أبناءه وخلفاءه . وأحدث الأتراك الانفصام بين الحكم وبين العقيدة . وأصبحت السلطة غرضهم على حساب الأمة والعقيدة . فتوجه بنو العباس إلى اللهو المزرى يغرقون فيه همومهم . وإلى السرف يعوضون فيه حقائق السلطة التي تفلتت من أيديهم إلى الترك . فأصبحوا أسرى لهم ، بمظاهر التراء والبجبة ، ليظهروا في أعين الناس وفي أعين أنفسهم أنهم ما يزالون محل اعتبار !

فالواثق بن المعتصم - هو الذي توج أشناس التركي ملكاً .

وهو الذي جلس ذات يوم على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب في قصر مفروش بالوشى والديباج يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ ، ويستمع إلى جاريته (فريدة) وهي تغني :

أهابك إجلالاً وما بي حاجة إليك ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها قلتك ولكن قل منك نصيبها

وأخذته النشوة فضر بها برجله ، فتدهورت تحت السرير فقال : صنعت ذلك لأنني تصورت أنك ستغنين بعدى للمتوكل !

ولما خلفه أخوه المتوكل (جعفر) اختفت فريدة ، وملكت قلبه الجارية (قبيحة) . فآثر ابنها المعتز على ابنه الآخر المعتصم ، فتآمر المعتصم على أبيه مع الأتراك فقتلوه سنة ٢٤٧ . ثم قتلوا المعتصم بعد ستة أشهر !

ولم يظهر أحد من الإسراف ما أظهره المتوكل : بلغ مجموع ما أنفق على بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم وهي ثلاثة أرباع دخل الدولة في عام ، وكانت كل نوبة من نوب الفراشين في هذه القصور أربعة آلاف من السراي ، أما فراشه فيخصص له خمسمائة وصيفة أحظاهن عنده (قبيحة) .

وكما استعان المأمون بأخواله الفرس استعان المعتصم بأخواله الترك فغلب الواغلون على الدولة ، وقتلوا ابنه المتوكل بمؤامرة مع ابن له ، ثم قتلوا ذلك الابن ، ثم ولوا المستعين ثم قتلوه (٢٥٢) ، وولوا المعتز ثم خلعه . بعد ثلاث سنوات وحبسه في بيت مسدود حتى مات فيه ! وولوا المهتدي ثم قتلوه سنة ٢٥٦ ، وولوا المعتمد ثلاثة وعشرين عاماً طالت قدر ما طال خضوعه لهم ، فلقد طلب ذات يوم ثلثمائة دينار فلم يجدها ! وتناقل التاريخ شعره :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه ؟
ثم ولوا المعتضد فالمكتفى حتى مات سنة ٢٦٥ ، وولوا أخاه المقتدر وهو غلام أخذاً بنصح وزيرهم ابن الفرات حين رشحه للخلافة ، لأنه (صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب) وثارت عليه طائفة منهم ولت ابن المعتز. وله الأرجوزة الدائعة الصيت في الأدب العربي ، وفي بيت واحد منها قانون السلطة الذي أخذ به الأتراك خلفاء بني العباس ، وهو في طليعة المأخوذين ؛ إذ لم يستخلف إلا ليلة ! فكان كما قال في أرجوزته :

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل
ثم أعادوا المقتدر ، فكانت أمه تسوس الدولة وتجلس قهرمانتها (ثمل) للمظالم ! ولما قبضت أم المقتدر يدها عن الجند قتلوا ابنها ، وولوا أخاه من غيرها ولقبوه (القاهر) فعلقها منكسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثة آلاف دينار ! وخلع الأتراك القاهر بعد عامين ، وفقثوا عينه ، وأجاعوه ، فكان يتكفف الناس بين الصفوف في جامع المنصور !

ثم ولوا الراضى سنة ٣٢٢ فبقى حتى سنة ٣٢٩ ، وفي عهده أضيفت في خزائن الدولة إلى جمجمة وزير سابق « هو الحسن بن القاسم » يد وزير لاحق هو ابن مقله وهى صاحبة الخط الشهير باسمه . فحفظتا في سبط واحد كتب عليه : (إن هذه اليد هى التى أمرت بقطع هذا الرأس) ! وفى سنة ٣٢٩ ولوا المتقى ثم خلعه سنة ٣٣٤ وسملوا عينيه ، وولوا المكتفى ولم يمهله إلا أربعين يوماً ، ثم دخل عليه اثنان من النقباء الديلم فتناولوا يده ، ففدها حسباً منه أنها سيقبلان يده ! فجذباه من سريره وجعلا عامته في حلقة وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة البويهى وسملوا عينيه !

خرجت إليه يوم عيد النيروز تساقيه الخمر وتغنيه :

فيا من مناها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناباك جعفرا !

وولوا ابنه المطيع ليبقى في طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ، وفي عهده قامت هوشة الكرخ من أحياء بغداد فحرقها الوزير معز الدولة (أبو الفضل الشيرازي) ، بل أرسل جنده فطرحوا عليها النار وأحرقوا النساء والصبيان والأموال ، فهلك ١٧ ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثمائة وعشرون داراً . وثلاثة وثلاثون مسجداً . والبويهيون شيعة ، وسكان الكرخ شيعة ! وسيتابع الخلفاء المطاوع حتى المستعصم وهو الذي يقول ابن الطقطقي فيه وفي نداماه وحاشيته : (كانوا منهمكين معه في التمتع واللذات لا يرجون له صلاحاً) وما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب ، وفي تلك الحال وصلت رسل السلطان الأكبر (هولاكو) يطلب منه منجنقات وآلات حصار ، فقال بدر الدين : (انظر إلى المظلومين ، وابكوا على الإسلام وأهله !) .

* * *

وجرى قضاء الله على المسلمين بما يستحقون ، وبخاصة أولى الأمر منهم . سواء أكانوا الأمراء الذين استسخروا العلماء أو عمل العلماء في إضلالهم ، أم كانوا العلماء الذين أضاعوا العلم ، ولم يأملوا بالمعروف وبنهوا عن المنكر !

وتخلف عن آثار الانفصام الذي أصاب دولة تظهر النسك وتبطن نقيضه ، ومشيخة للعلماء يأخذ الأمراء من دينهم أضعاف ما يصيب العلماء من دنيا الأمراء - أن أصبحت الأمة رجراجة ، تنجذب يميناً أو يسرة على حسب ذبذبات السلطة ، وتدفعها بين هؤلاء وهؤلاء شهوات الحكام بالسلطة والقسوة في مهاب الرياح الأربعة !

وحسبك أنباء صغيرة من (حوليات) ذلك الزمان تفوق دلالتها أفصح التعبيرات عن فساد كالمئات يسيل إلى الناس من علي . ولقد طالما فاقت همسات الصغائر جلجلة الكبائر في الأثر ، وبخاصة عندما يقارنها صاحب السلطة أو رجل العلم الذي تطلع إليه العامة والخاصة : لم يكد القرن الثاني للهجرة يشارف ختامه في أخريات عصر الرشيد حتى شرع ببناء الدولة العباسية في التصدع ، فقامت في أقطارها المتنازحة دويلات صغيرة أولاها دولة الأغالبة (١٩٠ - ٢٢٠) في أفريقية ، ثم الدولة الطاهرية في خراسان ، ثم الدولة السامانية في عهد المعتضد ، ثم الدولة الصفيرية في عهد المعتز ، وقامت بمصر الدولة الطولونية (٢٤٥ - ٢٩٢) ، فالدولة الإخشيدية^(١) (٣٣٢ - ٣٥٨) ؛ كما قامت الدولة الحمدانية في حلب (٣١٧ - ٣٩٤) . وفي أفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ لتبقى دولة كبرى حتى سنة ٥٦٧ .

(١) الإخشيد لقب فارسي كان يطلق على ملوك الفرغانة . ومعناه « ملك الملوك » وسرى بعد سخط الناس على هذا اللقب عندما ادعاه لنفسه الأمير التركي بلغة عربية .

وغلبت دولة بني بويه على الخلافة العباسية ابتداء من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ عندما دخل السلاجقة بغداد ، وصار الخلفاء ذمى في أصابع البويهيين ، فالسلاجقة ، واستحبوا الخنوع ، واتخذوا المنصب الدينى وسيلة للمعاش . فأصبحوا عناوين كذب على حكم لا يمت إلى الدين بأوهى سبب .

يقول عنهم المسعودى فى سنة ٣٤٥ : (لم أعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكنى والمطيع ومذاهبيهم ؛ إذ كان هؤلاء الخلفاء كالمولى عليهم : لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثره المتغلبون الذين استظهروا عليهم بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مخاطبة الخلفاء (بأمر المؤمنين) والدعاء لهم ، وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم ، وصاروا خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ، ورضوا بالسلامة) .

وصغار الخلفاء كهوان العلماء وغلول الأمراء ولصوصية الحرس - نذر دمار لا يتخلف : يذكر ابن الأثير فى الكامل أن المطيع قال للأمير البويهى إذ طلب منه مالا للغزو : (إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدي وتجيى الأموال إلى ، وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء ! وإنما يلزم من البلاد فى يده ، وليس لى إلا الخطبة ، فإن شئت أن أعتزل فعلت) .

فخليفة المسلمين يعتزل الخلافة فيهم ، إذ يختلف هو ورجل ، بل هو لا يملك أن يعتزل إلا أن يأذن له الرجل !

ويقول ابن الجوزى فى كتابه المنتظم عن أحداث سنة ٤٢٦ : إن سخط الخليفة القائم بأمر الله على الدولة بلغ به أن يأمر القضاة بالامتناع عن الحكم ويأمر الخطباء (ألا يحضروا إماماً ولا يعقدوا عقداً) .

فخليفة المسلمين يعطل أحكام الشريعة إذا غضب ويجريها إذا رضى ! ومن قبل هذا الانتقاض على الدولة التى تدار باسمه كان الخطباء ينتفضون على الخليفة ذاته : روى بن الجوزى فى حوادث سنة ٤٠٢ أنهم كانوا بعد الدعاء للنبي ﷺ يضيفون دعاء شيعة على بن أبى طالب : (وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مكلم الجمجمة ومحبي الأموات ، البشرى الإلهى ، ومكلم فتية أهل الكهف !)

وإذا كان خليفة المسلمين خشخاشة ، وكان الدعاء لعلى على المنبر يقترن بأراجيف مكفرة ترفعه على رسول الله ﷺ - فلم لا يضيف أمير بني بويه لنفسه لقباً يشبه نفسه فيه بالله جل جلاله ؟ ولم لا يمشى إليه الخليفة هرولة ، أو يتبادر العلماء فى ركابه ؟

وصدق رسول الله ﷺ : (من شر ما أوتى العبد شح هالع وجبن خالع) .

يذكر ابن الجوزي عن أحداث سنة ٤٢٩ ما يذكره ابن السبكي في طبقات الفقهاء .
(في رمضان من تلك السنة استقر أن يزداد في ألقاب جلال الدولة (البويهى) لقب شاهنشاه الأعظم (أى ملك الملوك) ، فأمر الخليفة القائم أن يخطب له به ، فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجر ! فكتب الخليفة إلى العلماء في ذلك ، وأجاب أبو عبد الله الصيمرى : أن هذه الأسماء يُعتبر فيها القصد والنية . قال الله تعالى : (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وقال تعالى : (وكان وراءهم ملك) وإذا كان هذا في الأرض جاز أن يكون بعضهم فوق بعض ، وليس في هذا ما يوجب التكبر أو المماثلة بين الخالق والمخلوق .

وكتب أبو الطيب الطبرى أن إطلاق « ملك الملوك » جائز ، ويكون معناه ملك ملوك الأرض ؛ وإذا جاز أن يقال : (كافى الكفاة) . و (قاضى القضاة) جاز (ملك الملوك) ؛ وإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المقصود ملك الملوك في الأرض زالت الشبهة . وكتب التميمي الحنبلى نحو ذلك . وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني أن الماوردى (وكان شافعيًا) منع من جواز ذلك ، وكان يلى وظيفة (قاضى القضاة) لجلال الدولة . فدعاه جلال الدولة فضى على وجل يتوقع المكروه ، فلما دخل عليه قال له : أنا أتتحقق أنك لو حاييت أحداً لحاييتنى لما بينى وبينك مع أنك أكثر الفقهاء إيماناً وأوفاهم جاهاً ومالاً ، وما حملك على مخالفتى إلا الدين . وقد قربك ذلك منى وزاد محلك من قلبى . وقدمتك على نظائرك عندي^(١) .

وعلق ابن الجوزى - وهو الحنبلى - على الفتوى بأن قاضى القضاة (الماوردى) على حق لأنه قد صحح فى الحديث ما يدل على المنع ، ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل .
ويشرح ابن السبكي (الفقيه الشافعى) قول ابن الجوزى ، فيذكر النقل المقصود وهو حديث

(١) العلم أمانة لا تختمل إلا الوفاء . وقد يختلف العلماء ولكنهم يؤدون الأمانة ، ولا يتواطئون ، ولا يتصرون للظلم أو للكفر . ومنهم السياسيون الذين يتيحون للدولة للنادح والفرص . ومنهم من يأخذونها بالشدة حتى لا تميل ، لكن الفريقين لا يبغيان إلا النصيحة للمسلمين . إليك مثلاً من خلاف عليين يمثلان الفريقين :
بعث عمر بن هبيرة إلى العراق لبنى مروان إلى الشعبي (١٠٤) المحدث وقاضى الكوفة لعبد الملك بن مروان وسفيره وصديقه وإلى الحسن البصرى (١١٠) .

قال عمر بن هبيرة : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك طلب إلى أموراً أعمل بها ، فما تريان ؟
قال الشعبي : أنت مأمور والتبعة على من أمرك !
وقال الحسن : إن الله تعالى ينجيك من يزيد ، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه وتعالى . لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .
وخرج الحسن وتبعه الآذن يقول له : أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير ؟
قال الحسن : قال الله تعالى : «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم»
والحسن أعلم بيزيد فهو يدرك ماذا بعث به إلى عمر .
ولقد مر بنا أمر يزيد .

الرسول : (أنزع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) وحديث (اشتد غضب الله تعالى على رجل تسمى بملك الملوك . لا ملك إلا الله تعالى) . وأضاف أن دولة بني بويه لم تمكث بعد هذا اللقب إلا قليلاً .

ولم يمض جلال الدولة بعد هذا شهراً وعاش الماوردي (٤٠٥) سنين ضئيلاً بكرامة العلم والعلماء وهو مع عظمتهم في القضاء أعظم في الفقه وفي أدب الدنيا والدين وفي تفسير القرآن .

* * *

في هذه الواقعة التي تنطق بانحراف الخليفة والسلطان والإمعات الطائفة من أهل العلم دلالة على مبلغ ما استشرى الفساد في كل وجه . وسيرد التنبيه على خطره على العقيدة الإسلامية بعد قرون في كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب وشراحه (١) .

ولئن كان لنا أن نلاحظ أن السلطان التركي لم يفكر في تفخيم دولته إلا وهي تهوى نحو الزوال إخفاء منه لواقع الحال - إن المرء ليشهد كذلك سلطاناً قاهراً دينه القوة وديده الغلول ! وخلفاء مقهورين لا حول لهم ولا طول ! وعلماء معمميين يعيشون عمياناً أو متعمين . فإذا اجتهد واحد منهم لم يجتهد ليظهر حكم الله ؛ وإنما كان همه وكبر مناه أن يبرر للسلطان شهوة تتعارض هي وصريح النص أوجلال الواحد القهار .

والناس دائماً - والمسلمون بوجه خاص - ينتظرون موقف الصدق من الأمراء وكلمة الحق من العلماء ، فما أضيع الأمة إذا فسد هؤلاء كلهم أو جلهم !

ولئن قارب الأتراك الخلفاء ليربطوهم بقطارهم . أو أصهروا إليهم ليضيفوا الدم القرشي النقي إلى دم طولوني أو سلجوقي - إن زواج الدولة هذا كان يدير الحديق في شتى الاتجاهات ، ويتغيا أغرب الغايات من أغراض الزواج ! ففي القرن الثالث زوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى المعتضد ، ليخلع على بني طولون حلة من البهاء ، في حين كان المعتضد يقول : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون ؛ لأنه يضطر أن يجهزها بما لم تجهز به عروس من قبل ! وكان ما قاله : جُهِزَتْ بما استفرغ خزائن مصر والشام !

وفي القرن الخامس غلب السلاجقة على البويهيين ، فدخل طغرل بك مؤسس الدولة

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد : (باب التسمي بقاضي القضاة أو نحوه) : (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أنزع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله) . قال سفيان بن عيينة : مثل شاهنشاه .

والإمام أحمد بن حنبل يروي هذا الحديث عن سفيان ويرويه بطريق أخرى . ومن قبل ابن عبد الوهاب يقول ابن قيم الجوزية : تحرم التسمية بسيد الناس وسيدة الكل (ست الكل) كما يحرم تسييد ولد آدم ؛ فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ .

السلجوقية بغداد ، فأطلق الخليفة القائم بأمر الله من حبسه ، وأخذ بلجام بغلته وزوجه بنت أخيه داود سنة ٤٤٨ . ثم تزوج هوبنت الخليفة . حتى إذا ولي السلطان مسعود السلجوقي أجلس الخليفة المتقى على مسند الخلافة ، وباع له ، ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغيرها وانصرف !

وتستمر الحال على هذا المنوال حتى يدخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ بخيانة وزير الخلافة ابن العلقمي ، فيقتل الخليفة ويجزى ابن العلقمي غدرًا بغدر فيقتله !
وكمثل زواج الدولة وخيانة الوزراء ، ومهانة الذين فسقوا عن أمر ربهم لأجلهم - كان رياء السلاطين وتجارتهن بالدين وهوان الأحياء من بني العباس !
لقد ولي واحد من بني العباس فراراً من بطش التتار ، فهبط مصر سنة ٦٦٠ فتلحقه سلطانهما الظاهر «بيبرس» ، وعينه خليفة قرشياً ، ليتخذه شعاراً لمشروعية حكمه ، ثم تتابع في مصر تعيين السلاطين لخلفاء رمزيين من بني العباس ربما عاشوا من النذور التي كانت تقدم في مسجد يحمل اسم السيدة «نفيسة بنت الحسن» القائم الآن بالقاهرة في حي يحمل اسم (حي الخليفة) تخليداً لمكان إقامة هؤلاء الخلفاء حتى سنة ٩٢٣ - ١٥١٧ م .

ففي ذلك العام غزا الأتراك مصر ، ورجع السلطان سليم العثماني إلى القسطنطينية حاملاً نفائسها وأعلاقيها وعمالها المهرة ومعهم (الخليفة العباسي) ؛ لتنتهي خلافة بني العباس بمصر ولتبدأ «خلافة» تركية للعثمانيين في إسطنبول تبقى قروناً أربعة حتى يقضى عليها مصطفى كمال في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة والربع الأول من القرن العشرين للميلاد .

* * *

هكذا سخر الأتراك الخلافة في كل العصور ، فأذلوا بني العباس في بغداد ، وشروا بهم متاعاً قليلاً في القاهرة ، وحملوهم في رحالهم إلى إسطنبول ؛ ليرثوهم أحياء ، ورفعوا الشعارات الدينية لإيهام الرعية وغيرها بأن الدولة قد تكامل فيها أمر الدين والدنيا بمجرد رفع الشعار دون الالتزام بمضمونه . واستبدلوا الشكل بالموضوع ، والطقوس بالحقائق ، والبدع بالسنن ، وظواهر الأشياء بجواهرها .

وازداد انحدار الجماعة والدولة واستمر ، فلم يكديبتي فرق بين الحكم الوثني وبين حكم المجتمع الإسلامي !

ولم يعد الحرص على الإسلام مشغلة الحكام ، ولا العز على الدين بالنواجذ فضيلة المجتمع ، وإنما انشغل الحكام بالتسلط ، وانطوى الصلحاء على أنفسهم ، وأقفل العلماء باب الاجتهاد . وأمعنوا في تقليد غيرهم وتعطيل فكرهم . وضعفت عزائم الناس عن التصدي للمنكر ، فحق

عليهم قول رسول الله ﷺ .

(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده) .
وما كان تعاقب الدول الغازية لهم - واحدة بعد أخرى - إلا جزء السماء لهم على أحداث
أحدثوها بأنفسهم .

المنهج السلفي مركز الثقل في الأمة

في إبان هذا الفساد الذي يتزايد قدر ما تتباعد العصور من فجر الإسلام ويتحكم الشعوبيون
في الأمة ويمكن الحكام لدولهم على حساب دينهم ، وتسرى القدوة السيئة من الحكام إلى الرعية ،
وتشيع البلبلة من البدع الوافدة من الخارج ، نتجت أمة العرب فحولا ليس لهم نظائر في تاريخ
الشرائع نذروا حياتهم لتعليم المسلمين فقه الشريعة بتخريج معاني النصوص وتطبيقها وتجليه الكنوز
الدينية والفكرية التي حيي بها المسلمون . وكانت بدع المتكلمين والمشككين والمشعوذين والمتساهلين
محلا للحرب ، فهي - كالسموم التي تتعاطاها الأمة بيدها - أعجل في التداول والانتشار
والدمار

ففي القرن الثاني علا نجم مالك (١٧٩) في سماء الحجاز ممثلاً لعلماء المدينة من محدثين وفقهاء ،
وارتفع اسم أبي حنيفة (١٥٠) ، واقترن بإمامة الرأي في العراق ، وفي أواخر القرن انطلق
محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤) من مكة والمدينة إلى مراكز العلم في بغداد بالعراق وجامع عمرو
في مصر ، ليزيد فقه الإمامين اللذين سبقاه تسديداً ، وليضع أصول الفقه الإسلامي ، ويرسي
قواعد الاجتهاد ، ليجرى على سننها المتفقهة أجمعون ، ويسير على الطريق ذاته سائر علماء
المسلمين .

وفي مدرسة المحدثين وحلقة الشافعي نجب أحمد بن حنبل (٢٤١) ، فأصبح إماماً في الفقه
والحديث ، وكان أكثر الأئمة علماً بالنصوص والآثار واستعمالاً لها ولأصلي الإباحة والاستصحاب ،
فكان مذهبه أظهر المذاهب يسراً وسعة والتزاماً بالمنهج السلف .

وفي فاتحة المائة الثالثة تجمعت التيارات الفكرية ودعاوى اليهود والنصارى بين أيدي العلماء ،
يواجههم بها مرجفون ظاهرون ومستترون ، هيأت لهم ساحة الجماعة الإسلامية ظروفًا مواتية ، وفتح
لهم الأبواب استهتأر الخلفاء والحكام بعد إذ ولي الأمين في خواتيم المائة الثانية ، وألهاه المجون عن
الزنادقة ، ثم ولي المأمون وكان شديداً في التشيع ، عنيداً في فرض آراء المعتزلة على الأمة ، حريصاً

على ترجمة كتب الإغريق والفرس والهنود ؛ ففتح الأبواب على مصاريعها لكل قول ، وألزم العلماء ، والسيوف على أعناقهم ، أن يعتنقوا آراء المعتزلة في القول بأن القرآن « مخلوق » . وكان أحمد بن حنبل عالم العصر ، فكان رجل الساعة ، فقال كلمة الساعة .

وسما اسم أحمد بما أصابه من العذاب والاسترهاب ووقوفه في وجه البدع التي أحدثها بعض سواء من المتكلمين^(١) الذين أدخلوا في مجالات العلم والفقه مقولات جدلية قد تحدث البلبلة . أو من العباد أو الزهاد الذين يخترعون بدعاً لم يصنعها السلف الصالح ولا تحملها النصوص أو المعاني الكلية المستنبطة من مجموع نصوص .

والشريعة معقولة المعنى ، فلا يمكن أن يتناقض صريح المعقول وصريح المنقول فيها ، ويتعين على المسلم أن يبادر إلى ما تكلم الله به من اللفظ ، فيتدبره ويعمل بفحواه : كما تلقاه المسلمون عن الرسول وصحبه وتابعيهم فهؤلاء خير القرون . وفيهم قوله ﷺ : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران بن حصين : فلا أدري : أقرنين ذكر بعد قرنه أم ثلاثة ؟ (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون . ويظهر فيهم السمن)^(٢) .

وعمل هذه الأجيال وبخاصة جيله - عليه الصلاة والسلام - خير عمل . فهو ين أن يكون عن مشاهدة لما صنع الرسول وأن يكون فهماً صحيحاً منهم للشريعة ، وقد كانوا أول من خاطبهم الله تعالى . فعملهم عمل السلف الصالح الذي زاده أحمد بن حنبل تثبيتاً عند جمعه للسنة في (المسند) ليكون مرجعاً يرجع الناس إليه .

وتتابع على الجمع والتصحيح بعده أصحاب الصحاح والمسانيد في القرون التالية ، وتناقلت الأجيال السنة الصحيحة ، وفهمت أسماء الله وصفاته وتوحيده على الوجه الذي جاءت به

(١) المتكلمون - والمعتزلة منهم - أصحاب علم الكلام . وهو علم يتضمن الحجاج بالأدلة العقلية - عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، فهم يبدعون بالعقل وينتهون إلى إثبات الشرع ، ويردون على أصحاب البدع والمنحرفين في الاعتقاد .

وكثر جدال المتكلمين في القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله جل شأنه ونظرية الإمامة - الخلافة - وكثر فيهم المؤولون لألفاظ الكتاب والسنة ، واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومع المحدثين جمهور الأمة . يقول الإمام الشافعي : (إياكم والنظر في الكلام ، فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه أخطأ فيها ، كما لو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال : دينة بيضة - كان أكثر شيء أن يضحك منه ، ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة) .

ويروى عنه الربيع قوله : (لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في هذه الوصية) . ولما ناظره حفص الفرد في دعوى خلق القرآن انصرف حفص كاسف البال يشكو أن الشافعي كفره .

(٢) ويروى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يحيى قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته) . والقرن الجيل ، ثم استعملت الكلمة بعد ذلك بمعنى مائة عام .

النصوص ، وفهمها به الصحابة من النبي ، والتابعون من الصحابة ، دون أن تحيك في صدورهم الشكوك . والله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) فهو بصير وسميع له الأسماء الحسنى - يسمع ويرى لا كما يسمع الناس ويرون ، ويستوى على عرشه - هو - لا كهيئة الملوك أو عروشهم - والكون كله في قبضته بسلطانه وجلالة شأنه .

وعمل العلماء العدول بالسنة وعلموها . فلم يوجد في الأئمة مشبه أو مجسد أو مبتدع . وكثر فيهم الزهد على نحو ما زهد الصحابة والتابعون : لا يصطنعون هيات للتعب ولا يسيغون مستحدثات لم يسبق بها الأولون . فإذا أضافوا جديداً فإنما يضيّقون فضلَ عملٍ لا ينبو عن الأصل .

وخلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف لم يكونوا أمثالهم ، لكن الأئمة تركوا آثارهم فيهم . فنشروا العلم ، ولم يستطيعوا أن يمسكوا بالسلوك عن أن يفعل بما أصاب الأمة من غير الزمان واضمحلال الإقبال على الجهاد . وهو ترياق من طبيعة الجماعة الإسلامية شرعه الله ليصهر معدنها وليطهرها ويصقلها ، فإذا اضمحل غلبت عليها الدعة وإثار العاجلة والاستهتار بالقيم الدينية في الحياة اليومية ، فعجزت عن أن تجاهد الشهوات في أنفس أفرادها بالقيم الدينية ، أو تنتهي عن المنكر إذا ارتكبه السلطان أو قارفته الجماعة .

ثم أخذ التخليط الوثني سبيله إلى المجتمع على أيدي غزاة غلاظ القلوب من ديانة بويهيين ، وسامانيين أو خراسانيين وتتار وأتراك يبغيون للدين نصرة ، لكنهم إذا أسلموا بقي في فهمهم للإسلام آثار من دياناتهم أو مجتمعاتهم السابقة ، تدخل في المجتمع المغلوب على أمره بدعاً يقبل عليها المقهورون . والمسلمون أمة صنعتها شريعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله . ويوم يخرجون على قانونهم جهرة أو خفية يفقدون التمكن والتوازن ، ويدلون للحكام أو الأغنياء أو الأقوياء ، وينساقون لتقليد المزخرفين والمزوقين فلا يتناهون عن منكر فعلوه ، وتتسع الهوة بين حياة المسلم وعقيدته ، وتنحدر الجماعة إلى مستوى أدنى من الإسلام ، فذلك يوم لا يصدق عليهم فيه أنهم مسلمون . وتكتب عليهم الهزائم من أنفسهم ثم من الخارج .

والهزائم من أنفسهم معروفة : فهم غير صحيح للدين أو تراخ في التمسك بتعاليمه من أمره ونهيه وأدبه وإرشاده ، وانقطاع عن الجهاد وامتناع عن الاجتهاد وتقليد غيرهم في الدين ، وتحويل للعبادة الصادقة إلى طقوس أو شكليات ! . وأنواع عيش من يوم ليوم بين الرجاء الذي لا يعملون له واليأس الذي يرين على قلوبهم ، ورضاهم بأن يكونوا مع الخوالف . . !

ويسلم جيل مستئثس مستسلم نقائصه إلى جيل أشد ابتعاداً من الأصل وافتقاراً للأمل . وكلما استحکم اليأس انقطع العمل الجاد الذي تحيا به الأمم ، ونما التواكل الذي يقتل العزائم ، وركن

الناس إلى خرافات تبيض وتفرخ في أفهام الخاصة وأوهام العامة ، وتمتد جذورها في ثرى المجتمع وترتفع فروعها ، فيستظل بها العلماء والأمرء . وسيطر الخوف على الناس كافة من غير سبب سواء من الأشخاص أو الأشياء أو الأفكار - فترى الرجال أشباه رجال والعلماء صور علماء ! وفي هذا الخليط من الوسوس والرزائل يضمحل شأن العلم ، ويلتحق العلماء بمواكب السلطة ، ويوشك العقاب أن يعم الأمة ، فلا يصيب الذين ظلموا خاصة .

والهزائم من الخارج وليدة هزائم الداخل : فهذه الأمة لا تدمرها العوامل السياسية أو الحربية أو الجغرافية أو تكاثر العدو أو ظهور غيرها من الأمم على وجه كرة الأرض ، أو ظهورها على المسلمين أنفسهم ، فقد طالما أسلم المنتصرون ، واهتدوا بهدى المسلمين . وإنما تقهرها الآفات التي تصيب نسيجها الذي نسجت منه ، وهو فضائل دينها ، فتعجز عن المقاومة وربما عن مجرد البقاء !

* * *

رفع الإمام أحمد في حياته (١٦٠ - ٢٤١) راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقاوم « بدعة » خلق القرآن وتناقلت الأجيال قوله (هذا زمان مبادرة ، هذا زمان من عمل) ، ليعلم المسلمين أن كل زمان إنما هو زمان مبادرة وزمان عمل . وليس العلم فيه إلا طريقاً أوقرينا للعمل^(١) وقدّم في سبيل ذلك عنقه لسيف المأمون وهو ينتظره شاهراً سيفه ليقتله بيده فحملوه إلى القتل آلاف الأميال ، مقيداً في الحديد ، فقتل الله المأمون وأحيا الإمام !

ودخلت عليه سنة بعد سنة وهو سجين ينتظر القتل بيد المعتصم ، فأنزل به من العذاب على العقابين ما يتناقله التاريخ ، ومزقت السياط جسده ، فلم يطلقوه إلا بعد أن فقد وعيه !

ولما خرج من السجن لم يتهاون مع الذين تهاونوا ، لكيلا يعرف عنه تساهل مع من تساهل في « البدعة » وإن كان أقرب المسلمين إلى قلبه .

دخل عليه يحيى بن معين^(٢) يعوده إذ مرض ، وكان قد قال بخلق القرآن تقيّة - فازورّ المريض

(١) ولد أحمد في عهد خلافة المهدي الذي كتب إليه سفيان الثوري يقول : (هم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك . يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ولا يحدون الشارب ، ويزنون ولا يجلدون الزاني ، ويسرقون ولا يقطعون يد السارق) .

وكان حكم المهدي مع هذا - من أصلح الحكم في الدولة العباسية - نسبياً - ديناً ودنياً ، ومن بعده تتابع الانحدار في الدفاع عن الدين والاتساع في طلب الدنيا ، وانقطع حساب الزنادقة وألغى الديوان الذي أنشأ لمعاقبتهم .

(٢) صاحب يحيى أحمد عظم حياته ورحل معه في عهد الطلب حتى صار علماً في علوم الحديث وكتبه مراجع أصلية فيها ، وكان أبوه من كبار عمال الدولة . خلف له خمسين ألف درهم أنفقها في سبيل العلم ، وترهد . وهو يقول : (أراد الله منا أن نكون مثل أحمد ، والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد) . ويقول : (إن الشئ على أبي عبد الله من أطيب مجالس الذكر) وأحمد يقول في علمه : (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث) ولا يناديه باسمه بل يقول له : (يا أبا زكريا) فلقد كان يكبر أحمد بسبع سنين .

عن زائره وأدار وجهه كي لا يراه أو يحدثه . فتكلم يحيى عن الإكراه الذى يأذن للمكره أن يتقى الأذى بقول لا يعتقد صحته ، وأشار إلى حديث عمار (بإباحة القول تقية) ، فتابع الإمام ازوراره ، وخرج يحيى ، فقعد بالباب منكسر النفس ، ويحيى من أكابر المحدثين فى التاريخ الإسلامى - حتى إذا خرج إليه أبو بكر المروزى تلميذ أحمد وخادمه سأله : ماذا قال أحمد بعدى ؟ فأجاب أبو بكر : قال (يحتج بحديث عمار - مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضربونى) وأنتم قيل لكم : (نريد أن نضربكم) .

يقصد أن الأذى لم يقع فى حين أنه وقع بالفعل فى حديث عمار ، فاحتجاج بالحديث حجة داحضة .

قال يحيى : مر يا أحمد غفر الله لك ، فما رأيت تحت أديم السماء أفقه فى دين الله منك (١) . وعلم أحمد المسلمين درساً خالداً فى الأمر بالمعروف والتصدى « للبدع » علا به اسم الحنابلة بعده ، وارتفعت أصواتهم متشددة فى كل بدعة ، فنسب التشدد فى الدين إلى الحنبلية . وما هى إلا الحنيفية السمحة كلما انتهكت حرمة الله كانت لها غضبتها .

والحنيفية يسر كلها ، ما خير صاحبها عليه الصلاة والسلام بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر ، لكنها تجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين على الجماعة ، إذا لم تقم به أثمت كلها ، لتتضمن فى الفضيلة . فيتعدد المكلفون ويتيقظ المنقذون وتتنوع الوسائل ويتضافر الآمرون بالمعروف ويسر الإصلاح .

وحق إبداء رأى أو حرية الرأى منصوص عليه فى القرآن والسنة فى صورة « واجب » على الحكام والمحكومين فى غير موضع ، ومن أظهرها إيجابه تعالى على رسوله أن يستشير وإن أخطأ المستشارون حيث يقول : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

والله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . فالطاعة لله والرسول فريضة محكمة . ولا طاعة للمخلوق فى معصية الخالق .

وليس للفرد أن يسكت عن إبداء رأيه ، فهو بعض الأمر بالمعروف المفروض عليه . وهذا « الحق » أو « الواجب » أحد المسلمات فى الإسلام قبل أن يعرفه الفرنجة بألف وثلثمائة عام فى نظمهم البرلمانية (٢) . يقول عمر : (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها) .

(١) فصلنا الكلام فى محنة خلق القرآن فى كتابنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف فى الباب الخامس

س ٣٣٣ إلى ٤١٤ .

(٢) لم يصل الأوربيون إلى هذا الحق إلا بعد إقامة النظام النيابى ، فى القرن الثامن عشر للميلاد والثالث عشر للهجرة وفى =

والحكم للدين . فإذا أساغت الجماعة المنكر أو سككت عن إنكاره أو تقاعست عن إبداء رأيها لم تعد هي « الجماعة » ولم تكن لها الطاعة .

يقول ابن مسعود : (الحق ما وافق الجماعة وإن كنت وحدك) وبجلبه قول نعيم بن حماد (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة وإن كنت وحدك) ولما وقف أحمد بن حنبل موقفه الخالد في وجه المأمون كان أحمد - لا خليفة المسلمين ولا الكثرة التي تبادرت إلى مرضاته - ممثلاً لجماعة المسلمين لأن الحق كان معه .

وفي موقف أحمد يقول ابن قيم الجوزية بعد قرون خمسة : (لقد شذ الناس « كلهم » إلا نفراً يسيراً زمن أحمد كانوا هم الجماعة) .

ومن نقائص الجماعة في عهد أحمد بن حنبل ومواقفه منها تتشكل صورة مصغرة لما سوف ينجم في المجتمع من بدع تزداد تفاقماً قدر ما يزداد التخلف .

وأحمد يروى عن رسول الله ﷺ : (كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة) ، ويروى عنه : (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد) .

ولم يرو أحمد حديثاً إلا عمل به ، فحياته درس في دفع البدع وسد الذرائع .

البدع

البدعة شيء يشبه أن يكون من الدين وهو ليس منه ، سواء أكان بالصورة أم بالحقيقة في الشكل أم في الموضوع . وهي محرمة أو مكروهة وفق ما تحدثه من بلبلة ، وقدر قوة شبهها بالأصول وضعفها ، والمكروه منها يجب العدول عنه سداً للدرية .

وكثيراً ما توجد البدعة في كفيات بعض المندوبات وما تميل إليه الأنفس كالذكر والتلاوة بما يدخل عليها البعض من كفيات سلوكية على نحو ما يصنع بعض المنتسبين للطرق ليروجوا طرائقهم . ولا مرأ في أن الفصيل بين الأصل والبدعة هو عمل السلف بالأصل ومتابعة الخلف له ، ففى عملهم عصمة للأمة بتتابع السلاف عليه . وشهادة الأصل له واستمرار العمل به ، والسلف هم علماء أصول السنة والعاملون بها أعظم العمل ، والقرون - الأجيال - الثلاثة الأولى خير القرون ، أولها قرن الرسول . (رسول الله ﷺ - كما يقول الإمام أحمد - هو المعبر عن كتاب الله الدال على

= ذلك الكلمة التي يرددها الأحرار عن جون ستيوارت مل : (لو كان للناس جميعاً - إلا واحداً منهم - رأى . وكان لهذا الواحد رأى مخالف - لم يكن للناس جميعاً حق في إسكات صوت ذلك الواحد ، كمثل ما إنه ليس لهذا الواحد - إذا كانت السلطة في يده - أن يسكت أصوات الناس جميعاً) .

معانيه . شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم لنبيه واصطفاهم له ، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم (وشاهدهم وتعلم عليهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم .

ومن المذاهب ما يعتبر عمل أهل المدينة وعلمهم أصلاً في أصوله أو يعتبر لإجماعهم القوة لمكانة « السابقة » في الإثبات . والأمر أكد في الإثبات إذا نواتر وعم واستمر عليه العمل .

أما ما لم يفعله السلف - مع ثبوت أصله - فالرأى من قول مالك وقول مدرسة أبي حنيفة أنهم لم يفعلوه لأمر ثبت عندهم ، وهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالسنة .

رأى ابن مسعود - معلم الكوفة - قوما يجتمعون بعد العشاء ويذكرون الله جماعة رافعين بالذكر أصواتهم فقال لهم : (يا لله ! لقد جئتم « ببدعة » ظلماء ، أولقد فقم أصحاب محمد علما) .

والشافعية يرون أن كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة وإن لم يعمل به السلف ، فقد يرجع تركهم له إلى أسباب محلية أو وقتية أو لإيثار ما هو خير منه ، أولعله لم يبلغهم جميعاً .

ومن ذلك يختلفون في الذكر جهرًا أو جماعة ، وفي الدعاء كذلك . وحجة الشافعي أنه قد ورد الترغيب في أصله ، وإن لم يرد عن السلف فعله ، فالحجة عنده أن الشرع يدعو إلى القيام بالأمر وإن لم يبين طريق القيام به ، فهو مباح .

ومن البدع ما يكفر صاحبه ومنها ما يكتفى بتبديعه ، ومنها ما هو صريح ، وهو ما ليس له أصل شرعي في مقابلة أمر ثابت شرعاً واجب أو مندوب ، فالبدعة عندئذ تميمت سنة ثبتت ، أى تحارب حقيقة إسلامية ، مثل ادعاء قوم أن بعضاً يعرف الغيب استناداً إلى الفراسة . ومن البدع ما هو محل خلاف ، فالانتهاء عنه أنجح للمرء وأنفع للجماعة .

ونخطر البدع كبير لتسربها في المجتمع الرخو الهشيش ، وكثيراً ما انتهت بأفراد أو جماعته إلى قبول ممارسات تناقض الدين ، أو معتقدات زيوف يصطنعها بعض للتظاهر أو السيطرة . !

والصغير من البدع يؤدي إلى الكبير . وكثيراً ما تعاظمت الصغائر وتعددت وتنوعت ، فصار لها خطر الكبائر ، وقل أن يُقدم الفرد أو المجتمع على الكبيرة بغتة دون أن تمهد السوابق الصغيرة أو الشائعة لذلك الهجوم ، فما بالك بالبدع التي تعم بها البلوى وتشوه وجه المجتمع ، ويتعين العدول عنها إبقاء على سلامة العقيدة وسلوك الأفراد .

وكثيراً ما يكون المنكر الصغير خروجاً على واجب واحد ، لكن فيه تهوينا أو تحريضاً للخروج على واجبات كثيرة .

والإبعاد من الجادة إذ يبدأ بخطوة واحدة يزداد قدر ما يزداد الانحراف . ومن القطرات بدايات السيل العرم .

ومن ذلك تشدد الأئمة لاتباع الأصل ، لأنه الدليل الشرعى .

* * *

أحمد رضى الله عنه لا تعجبه الصلاة فى جلود الثعالب .
ولا يتزىا بزى النساك ، فلم يلبس الخرق ، بل كان يأتزر ويعتم فوق القلنسوة . وليس ثوبه غليظا ولا رقيقا ينكر ، وكان فى غاية النظافة .
ولا يرى أحمد شد الرحال لزيارة القبور .

ولا يرى بناء القبور مرتفعة بل يقول (مثل قبور أحد) .
وسئل عن القراءة على القبور : هل يحفظ فيها شيئا ؟ قال لا . وإن كان الشافعى لا يرى بها بأسا ، وكذلك إبراهيم النخعى .

ولا يرضى أحمد عن سياحة الطوافين بالبلاد يظهرون النسك بأسماءهم البالية .
فإذا نسبت إليه كرامة (بالمعنى الغيبي) هاج وماج :
ففى ذات يوم مسح تلميذه على يده ثم مسح على بدنه (بدن التلميذ) ، فنظر إليه مغضبا غضبا شديدا ، وجعل ينفض نفسه ويقول : عمن أخدم هذا ؟

ولما طلب إليه رجل أن يدعو لأمه - وهى زمرة - أجاب مغضبا : نحن أحوج إلى أن تدعولنا .
وهجر الحارث بن أسد المحاسبى (٢٤٣) وهو شيخ كثير من المتصوفة . كان يعقد مجالس للذكر فى داره ودور أصحابه ، فسمع أحمد بها ، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه ، فلما رآهم كأن على رؤوسهم الطير ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يزعم - بكى أحمد فى محبته وغشى عليه من البكاء . فلما انفض المجلس قال لصاحبه : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

وأضاف إمام المسلمين : ولا أرى لك صحبتهم .
وأحمد ينهى عن التهليل ورفع الصوت بالقراءة ، ويعتبر ذلك بدعة محدثة . وكان الشافعى من قبل يقول : (تركت شيئا بالعراق يقال له التعبير أحدثه الزنادقة يصدون به عن القرآن)
وصلى أحمد خلف إمام يجمع ثوبه إذا سجد بيده اليسرى ، فلم يقل له شيئا ، ولكن قال لصاحب بجواره : (قال النبى ﷺ : إذا قام أحدكم فى الصلاة فلا يكف شعرا ولا ثوبا) .
ومضى .

وسأل الرجل صاحب أحمد عما قال له ، فأخبره وأردف قائلا : ما أحسب المعنى إلا لك !
وأحمد فى هذا كالحسن البصرى دُعِيَ إلى عرس فجىء بجام من فضة فيه طعام ، فتناول الطعام فقلبه على رغيغ فأصاب منه . فهذا نهى فى تسكين عن استعمال آنية الفضة .

وما هو إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ كثيرا ما أصدر أمره بطريقة غير مباشرة ، كما كان يقول للناس : (أقبلوا ذوى الهيئة عثراتهم) .
وأم الدرداء تقول - وكانت من العلماء - من وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

وآفة النصيح أن يكون جهاراً .
ويقول أحمد : النياحة من فعل الجاهلية .
ولما سئل عن الرجل يدخل ليغسل الميت ، فيسمع صوت النوح : أيدخل ليغسله وهم ينوحون ؟ فأجاب : نعم ، ولكن ينههم .
وسأله تلميذه حرب بن إسماعيل : الرجل يسمع النوح فيترقق . قال : « ما أدري » وروى حديث سعيد بن صالح : رأيت أبا وائل^(١) يستمع النوح ويبكى .

* * *

وإذا جاز للمسلم أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز له ذلك أيضا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن ذلك قول الغزالي : إنه يستحب له أن يعرض نفسه للضرب بل القتل إذا كان لفعله تأثير في رفع المنكر أو كسر لجاه الفاسق أو تقوية لقلوب أهل الدين .
روى أبو بكر المروزي - تلميذ أحمد وخادمه - أنه ذكر ابن مروان الذي صلب في الأمر بالمعروف ، فترحم عليه وقال : قد قضى ما عليه .
لكن الموعظة الحسنة للسلطان تقتضي اختيار الزمان والمكان والأسلوب والرجل ، كان المهدي أكثر بني العباس يسرا وورعا وأشدهم على أعداء الدين بأسا ، وفي إحدى حجاته طلب أن يخلى له المطاف حين طوافه بالكعبة ، فمنعه من ذلك المحتسب ، فخضع له ، في جوار الكعبة ، ثم حبسه وحبس معه فرسا شموسا حتى قتله الفرس !
ولقد وعظ سفيان الثوري أبا جعفر المنصور في مواجهته حتى أوصاه حاجبه بقتله ، وكان مع ذلك يوصي الأمرين بالحكمة ويخشي أن يسدر السلطان في غيه . ولقد يكون السلطان ميثوساً منه .
سأله سائل : ألا تأتي السلطان فتأمره ؟ فأجاب إذا انبثق البحر فن يسكره^(٢) !
والمؤمن ينتصر لله لا لنفسه إذ يعظ غيره ، فالانتصار لله تعبد ، والانتصار للنفس حب للمحمدة أو خوف للمزمة أو عجب بالذات أو شهوة للشهرة ، وهكذا كله غير محمود ؛ لأن

(١) جد سفيان الثوري وكان من خيار زمانه زهادة وعبادة .

(٢) يسده .

الإرادة فيه لم تتمحض لله وحده . وإذا وجد شرك خفي في العمل بطل (١) .
وأحمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل مسئولية الأمر ، ويخاف على الناس ويوجب
الستر عليهم ، ولا يشرك السلطان إلا في الشدائد ، ويؤثر الاستعانة بالجماعة : كل أولئك في مزاج
موفق بين سياسة الناس في دنياهم وجمع كلمتهم على استنكار المنكر .

‘ واستخدام السلطان مخطرة لا ابتداره بالبطش في مواقع كثيرة قد يكون للمنطق فيها
موضع .

والسلطان مُسلط عليه الكثير من فوقه ، ومغلوب على أمره بكثيرين تحته ، وبعوامل شتى منها
الشهوة والصولة والاستعلاء ؛ فالاستعانة به لا تؤمن مغبتها ، وقد يكون سكوته إذ يُستعدى سبباً ، في
سوء فهم العامة أو تمكيناً للضلال بالسلطة ، وفي الاستعانة بالسلطان تبليغ عن المنكر تمتنع بعده
الشفاعة وتعلن الفضيحة . وكثيراً ما كانت دِرَّة السلطان قاتلة ، وكانت فضيحة الآثم مدعاة ليتولى
كبره فيتردى في وزره ، وكان أخذه باليسر أنجح للنصحاء وأفلح للمتصح .
سئل أحمد عن جار يرى منه الفسق والدعارة : أيرفعه إلى السلطان ؟ قال : إن علمت أنه
يقيم الحد فارفعه . ونبه على أن الأمر جد فأضاف : « كان لنا جار فرفع إلى السلطان . كان قد
تأذى منه جيرانه ، فرفعوه فضربوه ثلاثين دره فمات » .

ووضع السيف في موضع الندى مضر كوضع الندى موضعه : سأله تلميذه يعقوب بن بختان
عن القوم يؤذونه بالغناء فأجاب : تقدم إليهم وانهم واجمع عليهم قال يعقوب : أأستعين
بالسلطان ؟ فأجاب الإمام : لا . قال يعقوب : فأدع الصلاة ؟ قال الإمام « لا تضع المسجد »
فهو ينتهي بالمسجد ويبدأ الفتيا بعدم الالتجاء إلى السلطان أخذاً لكل شيء بقدره . ويرى أن

(١) روى أحمد أن رجلاً جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟
فقال عليه الصلاة والسلام : لا شيء له ! فأعادها ثلاث مرات يقول له الرسول لا شيء له ، ثم قال : (إن الله لا يقبل من العمل
إلا ما كان خالصاً له) .

وسئل عن الرجل يقاتل من أجل أخيه حمية وعن رجل يقاتل لا يدفعه للقتال إلا الشجاعة والمروءة ، وعن رجل يقاتل للرياء
والتظاهر ! فقال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) .
ويروى عنه ﷺ : (أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟
قال : قتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء . فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى
أُلقي في النار) .

وروى مالك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه ، فصاح به فلم يجبه ، فاسترجع رسول الله
ﷺ وقال : (غلبنا عليك يا أبا الريح) فقالت ابنته : والله إني كنت أرجو أن تكون شهيداً فإنك قد فضيت جهازك ؛ فقال
رسول الله ﷺ : (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته) .

يجمع الناس ليروا المنكر ويشتركوا في إنكاره ويصلحوا الفساد وهم أجمعون ، فيصلحون .
ويُصلحون^(١) .

وإذا أعلن الفاسق فسقه أو أخطأ خاطئاً في العبادة ، فلا وجه للصبر عليه . كانت لأحمد مساكن يؤجرها قبله بين المغرب والعشاء عن ساكن له أنه طلق امرأته ، وأنها تقيم معه ، فخرج إليه وصاح به : تطلق وتقيم ؟ وأمره أن يتحول عنه وقال : انتقل .
وصلى أحمد إلى جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود فقال : يا هذا ، أقم صلبك في الركوع

(١) وسأله سائل . إذا أمرت بالمعروف فلم ينته فماذا أصنع ؟ قال : فدعه . قد أمرته . وقد أنكرت عليه بلسانك وجوارحك . لا تخرج إلى غيره ولا ترفعه إلى السلطان يتعدى عليه .

كان أصحاب عبد الله : إذا تلاهى قوم قالوا : مهلاً بارك الله فيكم . مهلاً بارك الله فيكم .
ويقول أحمد في موضع آخر : أما السلطان فلا . إذا رفعهم إلى السلطان خرج الأمر من يده ، أما علمت وصية عقبة بن عامر ؟

أما أصحاب عبد الله فأصحاب ابن مسعود حاجب النبي ﷺ سادس السنة الأولى في الإسلام ، وإليه ترجع مدرسة الكوفة التي نتجت أبا حنيفة .

وأما عقبة بن عامر فصحابي ولي مصر لمعاوية سنوات . وهو القائل إذ أخبره رجل أن لهم جيراناً يشربون الخمر وأنه داع لهم الشرطة ليأخذوهم . (لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم) ففعل فلم ينتهوا ، فعاد إليه يريد تبليغ الشرطة فقال عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإنى سمعت رسول الله يقول : (من ستر مؤمناً فكأنما استحيا موءودة من قبرها) .
وشكا رجل إلى أحمد جاراً يؤذيه بمنكر ، فقال له : مره بينك وبينه ، قال : أمرته مراراً وكأنه يضحك ! قال الإمام : وأى شيء عليك ، إنما هو يضحك على نفسه ! أنكرك بقلبك ودعه .

وإذا لم يقوَ امرؤ على الإنكار على صاحب السطوة وقوى على الإنكار على ضعيف فعليه ألا يسوى بين الاثنين ، فيترك الإنكار على الضعيف من أجل ضعفه : أى عليه أن ينكر على من يقدر على رده عن المنكر وإلا أصبح الضعف قوة تأذن بارتكاب المنكر واختلقت قوة المبطل حجة على إجازة الباطل ! يقول أحمد : ينكر على الذى يقوى أن ينكر عليه .

سئل أحمد عن بيع اليهودى والنصراني الخمر ظاهراً : فهل على المسلم شيء ؟ فقال : إذا كان ذلك من السلطان فليس يتعرض هو .

قيل : فإذا رأى مسلماً قد حمل شيئاً منه ؟ قال : المسلم يعظه . فإن أبى أهرقه .
وأكثر الناس قادرون في أكثر الظروف على الإنكار على أكثر المنكرين ، والنهى عن المنكر يشد ظهور المؤمنين - وما أحوجهم إلى شد ظهورهم - وبرغم أنف المنافقين . وهم كثر .

يقول أحمد في عصره ، وشتان ما عصره والعصور بعده ، إذا رأيتم اليوم شيئاً مستويّاً فتعجبوا !
ويقول : يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم كالجيفة ، ويكون المنافق يُشار إليه بالأصابع ! فقيل له : كيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ فقال : صيروا الأمر فضولاً : المؤمن إذا رأى أمراً بالمعروف أو نهيّاً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى . يعنى قالوا هذا فضول ! والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فيه (وضعها على فيه علامة على الصمت) ، فقالوا : نعم الرجل !
وإذا كان للمعروف دائماً موضع فالأمر به يحتاج إلى كيس الكيس ، أو دهاء الدهى . ومن الناس من ختم الله على قلوبهم وألقى الغشاوة على أبصارهم . ومن الناس من لا ينفع النصيح فيهم .

وقديماً قال يعنى بن كثير : موعظة الجاهل كالملغى عند رأس الميت !

والسجود وأحسن صلاتك .

وسئل عن رجل يضرب الطنبور والطبل أو نحو ذلك : أيوجب أن يغير؟ قال : أوجب . . إن غير
فله فضل ؛ فسئل فيرفع إلى السلطان ؟ قال : تخافه ؟ قال : نعم ؛ قال : أنكره بقلبك . وليعلم الله
ذلك منك . روى ذلك عن عبد الله بن مسعود .

فإذا انكشف المنكر فلا حرمة له : يقول أحمد : لا يمر بالخمير مكشوفاً . قيل له : فإذا كان
مغطى ؟ قال : لا تتعرض له إذا كان مغطى .

سئل عن الرجل يرى القنينة (يظن) أن فيها مسكراً ؟ فقال : دعه (١) وسأله أبو بكر المروزي -
لو رأيت الخمر مكشوفاً في قنينة أو قربة ترى أن تكسر أو تصب ؟ قال : تكسر .
وسأله عن الطنبور إذا كان مغطى ؟ فأجاب : إذا ستر عنك فلا .

يقول أحمد لمن سأله : وإن كان العود من وراء الثوب وهو يصفه أو يبينه ؟ لا إذا كان مغطى
فلا أرى له ذلك .

ومن مجموع النصوص والآثار يمكن الترخيص في الغناء في العرس والعيد غناء الرجولة أو
المناسبة الصالحة الذي لا يترجم الفساق بمثله :

أخرج النسائي عن عامر بن سعد : دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصاري في
عرس وإذا جوار يغنين فقلت : أي صاحبي رسول الله ﷺ وأهل بدر يفعل هذا عندهم ؟ فقالا :
اجلس فاسمع معنا ، وإن شئت فاذهب ، فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس .
وفي تحريم غناء النساء قال الرسول (لا تشتروا القينات ولا تبيعهوهن ولا خير في تجارتهم وثمرتهن

(١) دخل أحمد ويحيى بن معين وأبو خيثمة دار خلف بن هشام البزار يطلبون حديثه . وهو من كبار المحدثين وله قراءة
اختص بها ، لكنه كان يشرب النبيذ - أخذوا أخذ من أباحه من العراقيين كالشعبي والنخعي وأبى حنيفة وإن لم يتبذ منهم أحد قط -
فوجدوا بين يدي خلف قنينة نبيذ . وأقبل أحمد يسأله ، وحول ظهره إلى القنينة ، حتى إذا أزمعوا الانصراف سأله خلف :
يا أبا عبد الله ، أي شيء تقول في هذا ؟ - يقصد القنينة - قال أحمد : ليس ذلك إلي ، ذلك إليك ! قال خلف . كيف ؟ قال
أحمد : قال النبي ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع في منزله ومسئول عما فيه ، وليس للخارج أن يغير على
الداخل شيئاً .

ولما خرجوا سكب خلف خابيتين ، وعاهد الله على ألا يذوقه حتى يعرض على الله عز وجل .
وتوثق أحمد لخلف شرب أم لم يشرب - قبل متاب خلف أم بعده - مظهر لاحتزام الاجتهاد والاختلاف فيما هو محل للخلاف .
يقول حاتم الأصم من فقهاء المعتزلة وزعماء المتصوفين : (حادث أحمد فيمن شرب النبيذ من أهل الكوفة ؛ فقال : (هذه
زلات لا تسقط عدالتهم) . وإنما قصد أحمد أنها زلات رأى لا سقطات في الدين .
ويقول ابن تيمية : (فأما من فعل محرماً بتأويل فلا ترد روايته في ظاهر المذهب) .

حرام) وفي مثل ذلك نزلت (ومن الناس من يشتري لهو الحديث...) (١).
وأحمد يرى أن الجارية التي تقرأ القرآن بالألحان إذا بيعت بيعت ساذجة : أي ليس لها هذه الخصيصة .

وسئل عن قراءة القرآن بالألحان فكرها وقال : « ما يعجبني . هو محدث » وقال « بدعة » لا يسمع . وأنكر الأحاديث التي يحتاج بها في القراءة بالألحان .
أما حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) فقيل في معنى (يتغن) قول سفيان بن عيينة (يستغنى) وقال الشافعي : (إنما هو يتحزن وترم ويقرؤه حدرًا (دون تمطيط) ، وتحرينا . وبعض يقول : إن رفع الصوت بالقرآن هو التغنى به .
وأى هذا كان يتعين ألا تخرج طريقة الأمر بالمعروف عن المعروف . والله يقول (ولا تجسسوا) .

* * *

فالمحتسبة لا يتسلقون الحيطان ولا يتجسسون مهما عظم المنكر إذا كان خاصا كالزنى والخمر ، فلا يجوز التجسس على ما خفي من هذه القاذورات ، لأن ضررها مقصور على أصحابها . ومن ذلك قول أحمد بن حنبل (ما غاب فلا تفنش) وإنما يجوز التجسس فيما يتصل بحياة المسلمين كفش الدواء والشراب والطعام والتأمر للقتل .

لم يكذ الإمام يقضى نجه حتى أصبحت الحنبلية - شعاراً للتمسك بالدين ومقاومة البدع .

(١) سئل أحمد عن حديث عن عائشة فيه جوار يتغني : إيش هذا الغناء ؟ قال : غناء الركب أتيناكم أتيناكم . وهو يروى في المسند :

- عن عائشة رضي الله عنها : كانت عندنا يتيمة من الأنصار فزوجناها رجلاً من الأنصار ، فكنت فيمن أهداها إلى زوجها فقال رسول الله ﷺ : (يا عائشة ، الأنصار فيهم غزل فما قلت ؟) قالت : دعونا بالبركة ، لم انصرفوا . قال : أفلا قلتم :

أتيناكم	أتيناكم	فحيونا	نحيبكم
ولولا	الذهب	الأحمر	ما حلت بواديبكم
ولولا	الحبة	السمراء	لم تسمن عذاريبكم

ولما سئل أحمد عن لعب الحبشة في المسجد لم يجب (الحديث أخرجه أبو داود) .
ويرى أحمد أن الدف لا يعرض له في الإملاك والزفاف بالغناء . ويتسم إذ يعلم أن أبا بكر المروزي ذهب يغسل ميتاً فوجد دفاً فكسره .

قال أحمد : يكسره في مثل الميت : أي أنه لا يرى للدف محلاً حيث تلتقي الدنيا والآخرة . وهو القائل : إذا ضربتم بالدف فلا تضربوا إلا بتسبيح وتكبير . ويرخص به في النكاح إعلاماً به ، وهو عليم أن رسول الله ﷺ مر بجوار من بنى النجار وهن يضربن بدف لهن ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال : (الله يعلم أني أحبكم) .

وشجرت الفتن بين الحنابلة وبين الآخرين ، فشكاهم صاحب الخبر إلى الخليفة . فكتب المتوكل إلى صاحب الخبر : (لا ترفع إلى شيئاً من أخبارهم ، وشد على أيديهم ، فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد ! وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته ، وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين) .

وعمرت المساجد بالجمع والجماعات ، واختفى المفطرون في رمضان ، وتحجبت السافرات ، وامتنعت نياحة النائمات ، وانقطع مشى الرجال والنساء في الطرقات . وحمل أصحاب أحمد على أصحاب البدع وبخاصة من يدعون دعاوى الصوفية . وشغب علام خليل (٢٧٥) عليهم العامة فاتهمهم بالزندقة ، وسعى عند والده الخليفة حتى سجن سبعون رجلاً منهم وهرب بعضهم وحوكم بعض آخر وقضى القاضي ببراءتهم .

وفي القرن التالي كان علي بن خلف البريهاري (٣٢٩) شيخ الحنابلة ، ولما مات أمر الخليفة بدفنه إلى جواره .

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٢ (عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان . فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه . من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأرهمجوا بغداد) .

والسلطة غيور لا تقبل الشركة ، وواجبها ألا تأخذ الناس بالظنة ، وبهذا وقعت الواقعة بين الخلافة والحنابلة فأصدر الخليفة الراضى توقيعاً عنيفاً يقرأ عليهم ، وركب صاحب الشرطة ونادى في الناس : لا يجتمع من الحنابلة اثنان . لكن الحنابلة ظلوا على طريقتهم . وأمسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظ على منهج السلف في التعبد والسلوك ومقاومة البدع تراثاً للمذهب .

وسرى بعد ، أنهم كانوا على حق في معالجة البدع بالردع كي لا يستفحل خطرهما فيما بعد . والبدعة جرثومة تتكاثر ، فلا يقتصر أذاها على العامة وإنما يتعداهم إلى الخاصة ، وينتقل من السقطى إلى فضلاء ، ومن الضعفة إلى أقوياء .

الفصل الثاني

من البدع المذمومة إلى البدع المكفرة

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

قرآن كريم

تعلم المسلمون أن يتجنبوا محدثات الأمور ، وأن يؤدوا الأمانة في دينهم . وكل أمانة لا تؤخذ مأخذ الجدد مأثها إلى عدم الأداء ، والشرك أخفى من ديبب التمل في الغافلين ، إن لم تتيقظ له النفس دب إليها من حيث لا تستين .

لم تكد تنقضي الأجيال الثلاثة المفضلة حتى نجمت البدع في المجتمع ، ومنها ما تصدى له خلفاء بني أمية في أخريات أيامهم وبني العباس في مطالع دولتهم .

ولم يسلم التيار الفكري للأمة من بدع وافدة من الخارج تهاون في صدها جمهور أهل العلم ، فكنوا للفكر الباطني أن تنمو بذوره وأن تمد جذورها من فرقة إلى أخرى : مثل التأويل الباطني أو الرمزي ، وادعاء العلم اللدني ، والخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وتقديس رجال زعموا رفع التكليف عنهم ، وإتيانهم بالخوارق ، أو أنهم يعلمون الغيب ولا يحسبهم سوء .

وكان كل جيل جديد يشهد جديداً من البدع أو تمكيناً لغيرها حتى حل زمان لم يكن ييسر للنظر أن يبصر فيه بأساس دين المسلمين وهو التوحيد الخالص !

وإنما بلغ المسلمون هذا المبلغ دحرجة ، بعد إذ نسي الناس الله فأنساهم أنفسهم ، فأسلموها إلى جنس غالب عليهم بعد جنس آخر ، وسرت كالولاء آراء مفكرين جلهم من غير العرب ، لأن المسلمين لم يقابلوها بالفكر الأصيل الشافي من المرض ، وهو القرآن والسنة . وعلى هذا التراخي أرخى الليل سدوله ، وتباطأ تيار الشرع الدقيق في جريانه .

والفكر الأصيل لا يتوقف دفعة واحدة ، وإنما يصاب صاحبه بالاختناق ؛ إذ تعجز القنوات الاجتماعية والإنسانية عن تحمله لعوامل قريبة أو بعيدة . منها ضعف الدين أو نقص العلم أو فقدان الأنفس ثقته بما هي فيه عن يقين أو توهم ، فتستحب الدخيل عليها أو تستنيم له أو تعجز عن

مغالبتة ، ويوهى جلدتها تعاقبُ الزمان وانقطاع الأمل والعجز عن الجهاد والاجتهاد والرضا بالتقليد والتواكل . فترك الشر وشأنه .

ولم يك بعيداً عن ذلك أمم الجماعة الإسلامية منذ المائة الثالثة للهجرة ، إذ أتيح للفكر الشعبي أن يزدهر بأفول نجم العرب ، ثم بحرمانهم من الجهاد ، منذ قصر المعتصم الجندية على الأتراك . وتلاحق الغزاة على المجتمع ، وفي جعبتهم آراء شتى ومتشعبة وبقايا مترسبة من عقائد بالية لم تتطهر بعد بالإيمان الصحيح ، أو حرص عليها أصحابها كشعار عنصري لمقاومة العرب . ومن ذلك تأليه الملوك وعبادة النار والاعتقاد بوجود إلهين للخير والشر والنور والظلام والامتناع عن الزواج وشيوعية الأموال والأزواج ورجوع الموتى للحياة في الدنيا !

فمن قبل الإسلام سادت المزدكية في فارس وخراسان وفيها جماع مبادئ الديانات الفارسية : من أتباع ماني الذين يرون للعالم أصليين هما الظلام والنور ، وأن الحياة على الأرض جنابة ، وأن لا داعي للزواج - إلى أتباع زرادشت (٥٨٣ ق . م) الذين يؤمنون بوجود إلهين إله للخير وآخر للشر ، وأضاف مزدك إلى العقيدتين السابقتين مبدأ شيوعية الأموال والأزواج . وعندما قتل ماني (٢٧٦) ومزدك (٥٢٩) شاع بين أتباعها أنها لم يقتلا ، وإنما رفعا إلى السماء ، وأن كلاً منهما سيعود ليملأ الدنيا عدلاً !

ولما دخل المسلمون فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان (روسيا السوفيتية الآن) في القرن الأول للهجرة وجدوا الناس يعبدون النار ، ويعتقدون تعدد الآلهة والاتصال بالعالم الخفي وهبوط المعارف من العالم الإلهي إلى بعض الناس .

ولم يكد يستهل القرن الثاني للهجرة حتى تداول المسلمون ترجحات شتى ، منها ترجمة ابن المقفع لكتاب مزدك المسمى (دستاو) ، وترجمته لكتاب كليله ودمنة من اللغة الهندية فيها أفكار مزدكية . واشتهرت زندقته حتى كان الخليفة المهدي يقول : (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع) .

وكما نبه البيروني فيما بعد على ما في كليله ودمنة من زندقة ، نبه على أن عبد الكريم بن أبي العوجاء - وهو عرني ملحد قتله المهدي فيمن قتلهم من الزنادقة - كان من المانوية . ومن قبل المهدي ظهرت هذه العقائد في أتباع أبي مسلم الخراساني - قائد الجيش الخراساني الذي جاء ببني العباس إلى الخلافة - فألهه أنصاره قبل أن يقتله عبيد أبي جعفر المنصور في حضرته ، ثم في أتباع ابنته وابنها فيروز ، وفي أتباع سباز ؛ إذ قام يطالب بدمه . وفي الراوندية الذين هجموا على أبي جعفر ليقتلوه فنجا منهم بشجاعته .

أما يحيى بن خالد - أبو البرامكة وأستاذ الرشيد ومريه ووزيره الذى فوض إليه وإلى بنيه شئون الدولة - فكان جدوده سدة بيت التارفى بلخ .

وفى يحيى وبنيه يقول الأصمعى :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكان جوستينيان إمبراطور الرومان قد أغلق « الأكاديمية » فى أثينا ، فلجأ علماءها إلى كسرى سنة ٥٢٩ للميلاد ، فكن لهم فى « مدرسة جنديسابور » . وأحدثت هذه المدرسة من نحو قرن قبل قيام التقويم الهجرى تحليطاً إغريقياً فارسياً فى التفكير آل إلى المسلمين بين ما آل إليهم من العلاقات والترجمات ، وقد أخذت سبيلها إلى العرب من عهد بنى أمية ؛ ولهذا لم تبعد من المسلمين آثار مدرسة الإسكندرية وفيها الفكر الإغريقى الوثنى بمثالبه واتجاهاته .

ولمدرسة الإسكندرية شأن من عهد إقليدس وأرشميدس وأفلاطون وفيثاغورث ، وفيها أصداء الفلسفة الكنسية التى تأثرت بها فلسفة أفلاطون فسميت الأفلاطونية المحدثه .

وكان للراهب القبطى المصرى الإخميمى أفلوطين أثر ظاهر فى هذه الفلسفة ذاع به التشبيه والتجسيد والغنوص .

ومن مصر القبطية عرف العالم نظامى الرهبنة التوحدية والديرانية ، وانتقل مثلها إلى فلاسفة المتصوفين المسلمين ، فتأثروا بها بين ما تأثروا به من فكر باطنى وتأويل رمزى وآراء غيبية ونزعات فارسية وهندية وإغريقية وإسكندرانية .

وسنرى بعد ذلك كثيراً من الأفكار الوافدة من الخارج وآثارها لدى غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة فيما أطلق عليه المتأخرون وصف (التصوف الفلسفى) ، وفى كثير منه ما أجمع العلماء على تبديعه ، لأنه يخالف الأصول .

التصوف السلفى

أما التصوف السلفى الذى يجمع عليه المسلمون فهو زهد الصحابة والتابعين أى « السلف الصالح » . والمتصوفة عموماً يعتبرون أحمد بن حنبل من أوتادهم : يقول أبو بكر البطائنى : (أوتاد العراق ثمانية : معروف الكرخى وأحمد بن حنبل وبشر الحافى وسرى السقطى . . .) .
وأحمد أزهد الناس فى مدخله ومخرجه ومسكنه ومأكله وملبسه .

يقول : (ما أعدل بالفقر شيئا) ويقول : (إني أفرح إذا لم يكن عندى شيء) ويقول :
(ما قل من الدنيا كان أقل للحساب) .

ولما أحاط به الرفاه فى قصر المتوكل تقبّض عنه واستخرج الكيسر من زاده ، وجاع حتى خيف
عليه التلف .

يشترى بدرهم شحما . فيأكل منه شهرا ؛ فإذا استيسر له الأمر فربما اشترى بطيخة أو عنباً
أو تمرًا . أو ربما أخذ الكيسر فصيرها فى قصعة وأضاف إليها الملح وأكل .
وأبو حنيفة ومالك لبّاسان . وفى الطعام يتقشف أبو حنيفة .
والشافعى يأكل ويلبس ما تيسر .

وهدى الرسول ﷺ أكل ما تيسر ولبس ما تيسر . لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا وما قرب
إليه شيء من الطعام إلا أكله إلا أن تعافه نفسه من غير تحريم . ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه . يرى
الهلal وراء الهلال وما توقد فى بيته نار !

والفقر زهد فى المال والمظهر والطعام واللباس وخلو القلب من كل ذلك . والغنى سافل وعال :
السافل غنى عن الأعراض والعواري المستردة . والعالى غنى القلب .

يقول عليه الصلاة والسلام : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) .
وقالت حفصة أم المؤمنين لعمر إذ فتحت الفتوح : البس الثياب ، وإذا وفدت عليك
الوفود فربصنع طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال لها : هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع
ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ هل تعلمين أن رسول الله
قربتم إليه طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع
الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ . إن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية ، فثبت
ليلة أربع طاقات نام عليها ، فلما استيقظ قال : منعمونى قيام الليل بهذه العباءة اثنوها اثنتين كما
كنتم تثنونها) .

وهو القائل ﷺ : (طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع) .
وفى زهد الصحابة يقول عبادة بن الصامت للمقوقس : (وما يبالي أحدنا أكان له قناطير
مقنطرة من الذهب والفضة أم كان لا يملك إلا درهما ؛ لأن غاية أحدنا أكلة من الدنيا يسد بها
جوعه ليله ونهاره) .

وكان منهم الأغنياء من تجاراتهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة رضى الله عنهم .
والهجرة والجهاد والتضحية بالنفس والمال أعظم درجة : روى النعمان بن بشير قال : كنت عند
النبي ﷺ فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ! وقال آخر ما أبالي

بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ! وقال على بن أبي طالب : الجهاد في سبيل الله أفضل ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته : فسأله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) . ولما غاب عمير بن سعد في ولايته أرسل عمر يستدعيه ، فأقبل وعلى كتفه اليسرى قربة ماء وعلى اليمنى قصعة ، وفي يده عصاه ، فدخل المدينة أشعث أغبر من وعثاء السفر حتى بلغ مجلس عمر ، قال : ما شأنك يا عمير ؟

قال : شأني ما ترى ؟ ألسنتي تراني صحيح البدن طاهر الدم ، معي الدنيا التي أجرها بقرنيها .

قال عمر : أجئت ماشيا ، أو لم تجد من يعطيك دابة تركبها ؟

قال : إنهم لم يفعلوا ولم أسألهم .

قال عمر : فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟

قال : أتيت البلد الذي بعثني إليه ، فجمعت صلحاء أهله ، ووليتهم جباية فيهم وأموالهم

حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها . .

قال عمر : فما جئتنا بشيء ؟ قال لا ، ولو بقي لجئتكم به .

قال عمر : جددوا لعمر عهدا !

قال عمير : (تلك أيام قد نخلت ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك) .

ولم يكن عمر يطيق رجلا قعدة ، بل كان يسقط من عينه الرجل إذا لم تكن له حرفة . سأل

أهل الصفة : مم تعيشون ؟ قالوا : نقيم الصلاة ونتلقى الصدقات ، قال : ليس في الإسلام سؤلة ،

وأخذ منهم أموالهم وغنمهم وآتاهم جريداً وعلمهم كيف يصنعون الحصر .

وفي العام التالي قالوا له : إنا نزكي الآن ونتصدق ؛ فلقد صاروا أغنياء بالعمل .

ويسأل عليه الصلاة والسلام عن اللباس الحسن : أيكون من الكبر ؟ فيجيب (لا ، إن الله

جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس) .

ويقول مالك بن دينار : (أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى

وأدنى ، لا يعيب صاحب الخنزير على صاحب الصوف . ولا صاحب الصوف على صاحب الخنزير) .

ويضع عبد الله بن عمرو (٦٦) الضوابط بين المسلم العادي الذي أغناه الله عن الناس وبين

من عداه يوم سأله سائل : وقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ؛ قال : ألك

مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ؛ قال الرجل : فإن لي خادماً ؛ قال : أنت من الملوك !

وكان أحمد بن حنبل يلبس الغليظ لكن ثوبه ليس غليظاً ينكر أورقيفاً ينكر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه . ملحفته تساوى خمسة عشر درهماً ، ولم يكن لباسه بذلك . وقد يرقع قميصه برقعة يقطعها من إزاره .

وسيصبح لباسه أجود قليلاً بعد إذ يبلغ السبعين ويستغنى عنه ابنه ، فيومئذ تخلص له أجرة حوانيته التي كان يؤجرها في الشهر ببضعة عشر درهماً .

وهذا الإيراد الذي يكفيه يحدد لنا حدود الزهد عنده ، إذ يسأله سائل عمن يمتلك مائة دينار : أياكون زاهداً ؟ ويجيب الإمام : « نعم على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يجزع . » ومائة دينار تربو على مائة ضعف لما يكنى أحمد شهراً .

وابن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن الغنى والفقر : (هما مطيتان ما أبالي أيهما ركبت ! إن كان الغنى ففيه البذل ، وإن كان الفقر ففيه الصبر) . وفي هذا الزهد السلفي يتشدد المتصوفة الأول ، فيقولون : إن أصولهم ثلاثة :
١ - ملازمة الكتاب والسنة .

٢ - ترك الأهواء والبدع .

٣ - ترك الرخص والتأويلات : أى الأخذ بالعزائم .

يقولون : كان النبي ينهى عن وصل الصيام ، ومع ذلك كان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر . ويفطر حتى يقال لا بصوم ! ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع نهى النبي عنه ، لأنهم فهموا أن النهى للرفق ولم يروا أن يرفقوا بأنفسهم ؛ لأن ترك النفس على هواها خطر ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (حفت النار بالشهوات) . ومن الثابت أن الصحابة تورعوا عن كثير من المباحات : كأم المؤمنين عائشة . فكثيراً ما تصدقت بالمال العظيم ، وأفطرت على أقل شيء .

* * *

ومع أن النهى عن التشديد صريح في الشريعة في كل مجال حتى صار أمراً قطعياً ، فإن بعضاً كانوا يستحبون المشقة وهم العليمون أن الله يحب أن تتعاطى رخصه . ومع أن إيذاء النفس منهى عنه فالبعض يقارنون بين عمار حين استعمل التقية ، والكفار يعذبونه بالنار لينجوا بحشاشته ، وبين خبيب بن عدي إذ رفض استعمال التقية فقتل .

وكان إبراهيم التيمي (الذي مات في سجن الحجاج سنة ٩٢) يقول : إذا أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله .

وأحمد يروى عن محمد بن يحيى القطان : لو أن رجلاً عمل بكل رخصة : بقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع (يعني الغناء) وأهل مكة في المتعة - أو كما قال - لكان فاسقاً .
ولما سئل أحمد عن الأسير يخير بين القتل وبين شرب الخمر أجاب : إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة .

فأحمد يرى الصبر شرفاً والرخصة حقاً .

وأقوال الصوفية متواترة على أنهم لا يخرجون على السنة : فالجنيد (٢٩٧) يقول : (علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة) . ويقول : (الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتنى آثار النبي ﷺ فإن الله عز وجل يقول في حديث قدسي : وعزني وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك) .

ويقول : (أخذت عن أبي الحسن السري بن المغلس السقطي (٢٥٣) (١)، وأخذ السري عن معروف الكرخي (٢٠٠) ، وأخذ معروف عن فرقد السنجي ، وأخذ فرقد عن الحسن البصري (٢) (١١٠) ، ولقي الحسن سبعين من البدرين) .

ومن مشيخة الصوفية الشبلي أبو بكر بن جحدر (٣٢٧) ، وكان فقيهاً على مذهب مالك ، يسأل عن الزكاة في خمسين من الإبل فيجيب : في الشرع شاة . وفيما يلزم أمثالنا كلها . قال السائل : هل لك في هذا إمام ؟ فأجاب : أبو بكر الصديق ، حيث أخرج ماله كله فقال النبي ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ! وفي رواية أخرى أنه أجاب « أما الواجب فشاة . وأما عندنا فكلها لله » . قيل وما دليلك ؟ فأجاب : أبو بكر حيث خرج عن ماله كله لله . فمن خرج عن ماله كله فدليله أبو بكر . ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فدليله عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله فدليله عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي »

* * *

(١) خال الجنيد ومعلمه وكان زميلاً لأحمد بن حنبل في عهد الطلب ، وكان من أوائل المتكلمين في التوحيد على طريقة الصوفية . وهو التاجر الصدوق والزاهد الأمثل . وكان يعمل وينفق أمواله على الزهاد .

(٢) يقول فيه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٤٣٠) في حلية الأولياء : (حليف الخوف والحزن والهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن الحسن ، الفقيه الزاهد المتشمر العابد) .

قال له رجل من عظم مهابته أنت متكبر ، قال : (لست بمتكبر ولكني عزيز) وهو قاضي عمر بن عبد العزيز .

الصوفي :

والصوفية لا ينتسبون لأهل الصفة أو إلى الصفاء كما يدعى بعضهم^(١) بل هم منسوبون إما إلى لبس الصوف وإما إلى كلمة (صوفي) Sophia الإغريقية .
أما النسب الأول فعرفى مرده إلى أن بعض الحنفاء في الجاهلية كأمية بن الصلت قد ارتدوا الصوف ، أوكزيد بن عمرو وقد ارتدى ملابس من شعر .
وفي الإسلام لبس الصوف سلمان الفارسي وأبو ذر وأبو عبيدة . وقال أبو موسى الأشعري :
يا بى ، لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لبسنا الصوف .
ثم مضى قرن ظهر لبس الصوف فيه على بعض الزاهدين ، ومنهم من تظاهر بالتقشف ، إذ لبسه ، فأصبح سفيان الثوري (١٦١) يرى لباس الصوف علامة رياء . فيقول : (لولا أبو هاشم الكوفي (١٥٠) ما عرفت دقيق الرياء) وأبو هاشم أول من أطلق عليه وصف « الصوفي » وكان يلبس الصوف . ثم لبسه الكثيرون في القرون التالية ، كما لبسوا الخرقة علامة على التصوف .
وفي محاربة التظاهر بالملبس يقول الجنيد منذ القرن الثالث : (إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهرة فاعلم أن باطنه خراب : ليس التصوف بالخرقة ولكن الاعتبار بالخرقة) .
وفي القرن الخامس كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يلبس الصوف أحياناً ، ويفتك بالأمة !
وأما النسب الثاني فإغريقي صراح يترجم القول به منذ القرن الرابع أعظم عقلية في التاريخ - كما يقول المؤرخ الأوربي سخاو - البيروني (٣٥١ - ٤٤٠) .
والبيروني منذ ثذ يرى أن (صوفيا) اليونانية . ومعناها « الحكمة » أصل وصف (الصوفي) في المسلمين .

ومن المستشرقين كثيرون^(٢) يرون أن قرب خراسان من الهند ومن بلاد فارس ومن العرب يسر فهم الأصل المجوسى للتصوف . والبيروني يرى التشابه قويا بين اليوجا الهندية وبين كثير من تصرفات المتصوفة ويوازن بين أنظار اليونان ومذاهبهم وبين أذواق المتصوفة ومقولاتهم ورياضاتهم ، وينتهى إلى تشابه حكماء الهند واليونان وصوفية المسلمين ؛ إذ يشترك التصوف والديانة البرهمية في عقيدة وحدة الوجود التي تجلت في مقولات المتفلسفين من المتصوفة في أواخر القرن الرابع للهجرة .

(١) البيروني منذ القرن الرابع يروى قول أبي الفتح البستي (٤٠٠) :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير قبيح صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

(٢) منهم هورتين وتوليك وبلوشيه وماسنيون وبراون وأوليري وجولدتسبير .

والبعض يرى آثاراً من المسيحية وانتشار الرهبنة فيها والقول بالحلب الإلهي قد انتقل إلى المتصوفة المسلمين من القساوسة . بل يروى المبرد في الكامل أن راهبين قدما من الشام لزيارة الحسن البصري (فإن صفاته كحياة المسيح) كما عبر واحد منهما عن شعوره .
ومن قبل الإسلام غلا أقباط مصر في رهبانهم ، وازدادوا غلوا في الذين يموتون منهم ، فاتخذوا قبورهم أوثاناً تعبد أو مناسبات لشد الرحال في الأعياد والموالد . وكانت تحدث فيها انحرافات نهى عنها صلحاء المسيحية ، سترها تنحدر إلى أجيال لاحقة في مجتمع المسلمين .
كما قدست أجيال لاحقة الأولياء كهيئة تقديس القدماء للقساوسة ، في حياتهم وبعد موتهم ، وأقامت التكايا كهيئة الأديرة التي أقامها أقباط مصر القدماء ، ونقلها عنهم المسيحيون في أرجاء العالم^(١) .

التصوف الفلسفي

الحق أن القرون الأولى من عمر الإسلام لم تعرف التصوف إلا على أنه الزهد والتقشف ، وإن بدأت تستمع إلى أقوال في الحب والأذواق والمواجيد والأحوال والمقامات في المائة الثانية ثم الثالثة .
والحق كذلك أن التصوف - كالتشيع - وجد مثابة له في كثير من أنحاء فارس وخراسان وفيها تعاقبت دول الشيعة .

ففي القرن الثاني (المائة الثانية) توفي أربعة من أشياخ التصوف هم داود بن نصير الطائي والفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم^(٢) وتلميذه شقيق البلخي (١٩٤) وأولهم عربي والثلاثة الآخرون من بلخ ومرو أو سمرقند .

ثم وجد في القرن الثالث متصوفة عراقيون وشاميون ومصريون كأبي حمزة (٢٦٩) - تلميذ أحد بن حنبل - والحارث المحاسبي وأبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري (٢٩٥)

(١) جاء في كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) أن القديس باخميوس (٢٩٠-٣٤٨ م) وضع مجموعات قوانين للربان الذين يعيشون في دير واحد حياة فقر اختياري وتبتل وطاعة للمرشد ، وأن الأنبا شنودة (٣٣٣-٣٥٠ م) أقام للربان الديرين الأبيض والأحمر قريبتاً من أنخيم وسوهاج وأخضعهم بالنظم القاسية . ونادى بإصلاح حال الموالد حيث يقيم القبط أعياداً للقديسين تقام الصلوات فيها وتؤدى النذور ، وتنحر الدبائح ، وكانت تحتوى على فضائح في الخيام والأسواق لا تقرها الكنيسة ، وفي صدها ألقى الأنبا شنودة موعظته الشهيرة عند أقباط مصر وفيها يقول : (جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلي وينشد المزامير ويظهر نفسه ، ويتناول الأسرار المقدسة ، أما من ذهب ليتكلم ويأكل ويشرب الخمر ويزنى ويرتكب الجرائم فهذا الكافر بعينه) .
وكما حارب القس القبطي الموالد حارب التدجيل الطبى والسحر وبناء الهياكل على أجساد الشهداء باعتبار ذلك كله وثنية آثمة .
(٢) كان أبو حنيفة يقول إذ يغشى حلقة إبراهيم بن أدهم (١٦٠) : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم .

وذى النون (٢٤٥) ، لكن الذين نبه ذكرهم من خارج جزيرة العرب كانوا أكثر عددا كمصور ابن عمار وبشر الحافى (٢٢٧) وحامم الأصم تلميذ شقيق وأحمد بن خضرويه (٢٤٠) وأبى تراب النخشبى (٢٤٥) - والسرى السقطى (٢٥٣) والجنيذ ويحيى بن معاذ الرازى (٢٥٨) وأبى يزيد البسطامى (٢٦١) (١) .

وفى خواتيم القرن الثالث مات منهم محمد بن على الحكيم الترمذى (٢٩٦) (٢) الذى نجمت فى مؤلفاته نظرية الولاية وخامم الأولياء ، فدار حولها فلاسفة التصوف .

وفى الحكيم الترمذى يتمثل ميلاد فكر هجين فى المتصوفة المسلمين ، وفى ذلك قول المستشرق ماسنيون إنه (كان أول مسلم صوفى ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية) .

ولم تدع مؤلفاته بعد وفاته إما لإخفائها وإما لرفضها . فأبوبكر الكلاباذى (٣٨٠) لا يذكره فى كتابه مع أنه عقد فصلا بخاصة عن النبوة والولاية وفى القرن التالى ذكره القشيرى ولم ينبه على أفكاره . ويقول : (آربرى وحسن عبد القادر) : (وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب فى إهمال هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن الصوفية فى القرنين الرابع والخامس لم يقتنعوا بحال الترمذى ، ليتخذوا منه دليلا على خطتهم فى الدفاع عن الصوفية ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة) . ولقد كان الحكيم الترمذى يقول : (ما صنعت حرفا عن تدبر ولا لينسب إلى شيء منه ، ولكن كان إذا اشتد على وقتى أتسلى به) .

لكن الهجويرى (٤٦٥) يتكلم عنه (٣) فيطيل الكلام .

(١) أبويزيد البسطامى أول من استحدث كلمة السكر تعبيرا عن الحب وانتهاء إلى الفناء والتحقق بالانحداد مع الذات الإلهية ومثله يحيى بن معاذ .

(٢) ولد فى أوائل القرن الثالث بترمذ . والمؤرخون يروون أنها كانت مركزا للبوذية فيها اثنا عشر ديرا وألف راهب ، نفي أهل ترمذ الحكيم الترمذى من بلدهم ، فخرج إلى نيسابور . والسلمى يذكر أنه خرج إلى بلخ ، ويقول تاج الدين السبكي فى طبقات الشافعية : (ولعل الأمر كما زعم السلمى وإلا فها تظن بمسلم أنه يفضل بشرا على الأنبياء عليهم السلام) .

(٣) يقول الهجويرى ما تعريه : (فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ . وإن اختلفت عباراتهم فى ذلك . وكان محمد بن على الحكيم الترمذى هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف . . . وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفى حتى تنتفع بهذه الآراء ، وكذلك من يقع هذا الكتاب فى يده : فاعلم أن « الولي » هو لفظ جار على السنة الناس ، وجاء فى القرآن وحديث الرسول ، فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته ، واختارهم حكاما للملكة ، ومنحهم أنواع الكرامات . . . ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين إنما هى عند العلماء فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هى عند الأولياء . . . والله جعل دلائل النبوة باقية إلى وقتنا الحاضر ، وجعل الأولياء مظهرا لهذا المعنى علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد : فجعل الأولياء حكام هذا العالم ، واختارهم لهذا العمل ، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم ، فببركة حلولهم تنظر السماء ، وبنقاء حياتهم ينبت الزرع ، وبدعائهم يتصر المسلمون على الكفار ، وهم ليسوا معصومين من الذنب لأن ذلك للأنبياء خاصة ، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية .

هذه هى أصول مذهب محمد بن على الحكيم الترمذى .

أما محيي الدين بن عربي في القرن السابع فسينقل كلامه كله ثم يطوره أطواراً أبعد ما تكون عن نهج آباء الصوفية الصالحاء : كإبراهيم بن أدهم والجنيد والشبلي والسقطي وأمثالهم .
والحسين الحلاج مولود بمدينة بيضاء بفارس سنة ٢٤٤ من السابقين إلى القول بالحلول والاتحاد وفي ذلك شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا
وافتن الناس بالحلاج ، فنسبوا إليه القدرة على معرفة الغيب وإحياء الموتى ، واتصلت أسبابه بالقرامطة ، وصدرت ضده الفتوى من محمد بن داود الأصفهاني - الظاهري - فسجن وهرب ثم قبض عليه وحوكم وأعدم سنة ٣٠٩ .

لكن التيار العام للتصوف ظل يجري في القرن الرابع بين ضفاف الفكر الإسلامي ، مثلما شهدنا ابن حنبل في القرن الثالث يشهد جلسة الحارث المحاسبي فيتأثر كجلالته ويكتفي بأن ينهي صاحبه عن مجالسهم دون أن يفسقهم .

وفي أواخر القرن الرابع ظهرت مؤلفات أبي نصر السراج (٣٧٨) صاحب اللمع ، والكلاذبي (٣٨٠) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف وأبي طالب المكي (٣٨٦) صاحب قوت القلوب .

وفي منتصف القرن الخامس ألف الهجویری كتابه كشف المحجوب فعد للمتصوفة اثني عشر فرقة هي المحاسبة نسبة للحارث بن أسد المحاسبي والقصارية نسبة لحمدون القصار والطيفورية نسبة لابن يزيد طيفور البسطامي والجنيدية نسبة للجنيد والنورية لأبي الحسين النوري والسهلية نسبة لسهل التستري والحكيمية نسبة للحكيم الترمذي والخرازية نسبة لأبي سعيد الخراز والخفيفية نسبة لمحمد بن الخفيف والسيارية نسبة لأبي العباس السيارى والحلولية للقائلين بالحلول . ولم يذكر الفرقة الثانية عشرة فلعلها سائر المتصوفة .

والقشيري - وهو من كبار كتاب المتصوفة ، ومعاصر للهجویری - لا يحتفل إلا قليلاً بالحكيم

= واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام يقولون : إن الأولياء في كل وقت وحال أقل رتبة من الأنبياء ، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء ؛ لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبي ولي ، وبعض الأنبياء ليسوا أولياء ؛ فالأنبياء خالون دائماً من الصفات الإنسانية والأولياء كذلك في بعض الأوقات . والحال عند الولي مقام عند النبي ، وما هو عند الأولياء مقام - هو عند الأنبياء حجاب ، هذه هي أصول أهل السنة والمتصوفة .

ويرى الحكيم الترمذي أن الولاية وهي القرية إلى الله تعالى تتم كل المؤمنين وهناك ولاية خاصة عبر عنها الرسول إذ قال : (إن فيكم محدثين وإن منهم عمر) ، وهم الذين اختصهم الله بالاسم الحق وجعل لهم التصرف في الخلق بالحق . وقد ينحصر الله ولياً من أوليائه بشيء ليس عند النبي . ونظام الأولياء هو الإنسان الكامل . وهو الآخر في الأولياء .

الترمذى ، فلو احتفل به لما أعلن انقراض التصوف السابق عليه حيث يقول : (اعلّموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم . حصلت الفترة في هذه الطريقة لا بل اندرست بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اعتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بها اقتداء) .

* * *

ولعل القشيري كتب ذلك قبل أن يذيع خبر أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧ - ٤٤٠) بنيسابور ، بل لعله كان يعلن ميلاد عصر جديد لطُرز فارسية مستحدثة في ممارسة التصوف حين قال : (عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية . ولو لم نره لقرأنا التصوف في الكتب) .

وآثار أبي سعيد في تاريخ التصوف خطيرة .

فلقد تلمذ للقفال العالم الشافعي الكبير ، ثم لبس خرقة التصوف على يد أبي عبد الرحمن السلمى (٤١٢) ، ثم اعتنق مبدأ وحدة الوجود واستكثر من البدع .

فأبو سعيد أول من استعمل اللسان المرموز الذى أكثر من استعماله الفرس ، ومنهم شعراء التصوف كالعطار وجلال الدين الرومى والسنانى .

وأبو سعيد مولع بالسماع والإنشاد ، مولع بالرقص ، يراه رياضة تساعد المريد على التخلص من شهوة الجسد ! وبالإنشاد والرقص اختصت فرقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومى والتي نخصها المستشرقون باسم « الدراويش الراقصين » .

وأبو سعيد أول من أقام عددا من التكايا أو الخانقاهات أو الزوايا ، لينقطع فيها رجال للذكر والعبادة والزهد على طريقته ، واستكثر منها في فارس وخراسان ، وكان يشرف عليها ويعلم المنقطعين إليها .

وأصبحت التكايا^(١) منذئذ ظاهرة اجتماعية في بلدان المسلمين .

(١) وليس نظام التكايا إلا نسخة طبق أصل مسيحي يملأ أقطار آسيا وأوروبا وأفريقية من قرون قبل الإسلام ، وبعده ، منذ قدمه أقباط مصر للعالم المسيحي في شكله التوحدي والديراني في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع : فالقديس أنطونيوس رائد الرهبة التوحيدية والقديس باخميوس رائد المجتمع الديراني ، ومن بعدهما ظهرت الرهبة التوحيدية في جبل أئوس بسالونيك ، واشتهرت الرهبة الديرانية في دير ستودبوس بالقسطنطينية .

والرهبة التوحيدية تصوف انفرادى كمن يعيش حياته على عمود أو داخل كهف أو تجويف شجرة !

والرهبة الديرانية تصوف جماعة لقراءة الأناجيل والعبادة .

يقول الدكتور رأفت عبد الحميد الأستاذ بجامعة عين شمس في تقديمه لكتاب العالم البيزنطى : (قام الرهبان بدور كبير في الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ، ولذلك فلا غرابة في أن يصبح الرهبان عمدة العالم البيزنطى الذين تعلقت بهم أفئدة الجمع ، =

وذاع عن أبي سعيد أنه يقول بسقوط التكليف عن بعض القوم ، بل إنه لا يلتزم فرائض الإسلام ؛ فهذه انحرافات كثيرة بدأت على يد رجل واحد في منتصف القرن الخامس بخراسان في الوقت الذي أعلن فيه القشيري انقراض التصوف السابق ، وأنه لم ير قبله تصوفاً .
وجرت الرسائل بين أبي سعيد وبين ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨) (١) .

وذاع أمره بين الفقهاء فندد به ابن حزم (٤٥٦) قال : (إن من الصوفية من يقول : إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى. وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلا يدعى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة . وهذا كفر محض) .

من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفي

غلاة الشيعة :

كان لأمر المؤمنين على وشيعته شأن كبير في فجر الإسلام . فهو بطل حروب الإسلام غير منازع . وصهر النبي الذي نشأ في بيته ، وله الأنصار في حياة النبي وفي عهد الخلفاء الراشدين قبله . ولما بويح له بعد مقتل عثمان خاض المسلمون معه الحروب مستبسلين في الجمل وصفين والنهروان ، فلما استشهد التفت شيعته حول بنيه ثم تفرقت فرقا ترى كثرتها إمامة أبناء علي من فاطمة الزهراء : أي بيت الحسن والحسين باعتبارهم (أهل البيت) ؛ والقلة رأيت إمامة محمد بن الحنفية بن علي من زوجته من بني حنيفة. ونقلت إمامته إلى ابنه أبي هاشم . واستغل بنو العباس تلك الفرقة ، واحتجوا

= وراحوا يطلبون إليهم قضاء حاجاتهم وتحقيق الآمال وهذا أحل الرهبان مكانة فريدة في الشرق الروماني) وينقل الأستاذ عن كتاب المؤرخ جيون (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) قوله :

(وقد سلم جبل منخث ذليل في ورع وتقوى بحياة الكسل التي يجيهاها الرهبان ، ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلي عن علم الدولة) .

(١) من ردود ابن سينا عليه مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ١ - عن الغرض من القياس وتبعية العلم له ٢ - تعلق النفس بالبدن ٣ - سبب إجابة الدعاء ٤ - الدخول في الكفر الحقيقي والخروج من الإسلام المجازي . ويطلق على الرسالة الأخيرة اسم الرسالة الإرشادية وهي رد من ابن سينا على كتاب لأبي سعيد في نفس الموضوع .

وكان أبو سعيد يعقد المجالس ويخطب على المنابر ويجادل الفقهاء مما عرض حياته أحياناً للخطر ولم يبرح بلدته (ميهنة) طوال نصف قرن إلا إلى طوس . أه بريد قصة خراسان أو إلى خرقان .

بما قيل : إنه وصية من أبي هاشم لواحد منهم ، وأرجعوا حقهم في الخلافة إلى أنهم أهل النبي أو أهل « بيت النبي »

وعلا شأن التشيع لعل في أهل خراسان كراهة منهم لبني أمية في الشام وإيثارهم العرب على الموالى ، وأملا في أن يتساوى الموالى والعرب . وزاد غضبهم تصالح الحسن بن علي مع معاوية ثم استشهاد الحسين وأهله في كربلاء سنة ٦٣ . وكان الحسين قد تزوج شاه زنان إحدى بنات يزدجرد عاهل الفرس ، فولدت زين العابدين فصار للشيعة رحم في الفرس . وفي أوائل القرن الثاني نجحت الدعوة للرضا من آل محمد ، وجاء جندها بيني العباس للحكم .

وفتك بنو العباس بأبناء علي فتكا لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد ! وسلم الإمام جعفر الصادق بإمامته العلمية المسلمة وانصرافه عن الإمامة السياسية كأبيه الباقر (١١٤) وجده زين العابدين (٩٤) .

وزين العابدين هو الوحيد من نسل الحسين الذي حيى بعد مذبحة كربلاء . وعلم الإمام جعفر المسلمين من كل مذهب فهو شيخ مالك وأبي حنيفة . وأثرهما ظاهر في جميع المذاهب . وهو شيخ جابر بن حيان أول كيميائى في التاريخ ، ومنه انتقل إلى العالم المعاصر منهج المسلمين في التجربة والاستخلاص .

لكن أثر جعفر الضخم كان في قيام شيعته بعد موته سنة ١٤٨ . بتشكيل مذهب متكامل في فقه العبادات والمعاملات ، وطريقة الحياة والسعى للرزق ، وفي نظام الحكم ، سمي الجعفرى - نسبة إليه - أو الإمامى أو « الاثنا عشرى » نسبة إلى قول أصحابه إن الأئمة اثنا عشرة أولهم على فالحسن فالحسين فزين العابدين فالباقر فجعفر فابنه موسى الكاظم فخمسة متسلسلون من حفدته . وهو مذهب في الفقه الإسلامى يتجارى هو ومذاهب أهل السنة ، تعمل به الآن دولة إيران وأقليات كبيرة في دول الإسلام أو غيرها^(١) .

وكذلك تعمل أقليات أخرى من الشيعة بمذهب عمه زيد بن علي زين العابدين ، وهو مذهب قاعدته السياسية أن يجاهد الإمام للمطالبة بحقه . وأما في الفقه فهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أبي حنيفة إمام أهل رأى من أهل السنة ، مما يشير إلى تأثير زيد في علم أبي حنيفة وانتفاع المذاهب كافة به عن هذه الطريق .

ومن الشيعة من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وإن أباه أخفاه في حياته خوفاً عليه من السلطة وإن محمد بن إسماعيل صار إماماً .

(١) راجع كتابنا : الإمام جعفر الصادق طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وبهذا نشأت الفرقة الإسماعيلية . ثم صارت أفرقا : منها الغلاة ، ومنها المعتدلون لكن ديدنها كلها الخفاء ، اتقاء (تقية) للخطر ، وهي مجمعة على أن الإمام معصوم يمتاز بمن عداه ، ومنهم من يؤولون القرآن والسنة لتجارى النصوص سياسة المذهب . ومن يزعمون قدرا إلهيا في الإمام ، وهي أفكار سبق بها مغالون آخرون ممن آلهوا أمير المؤمنين عليا في حياته فخذ الأخاديد وحرقتهم فيها بالنار .

ومنهم الكريية قالوا : إن محمد بن الحنفية لم يمت ! وقال آخرون - من القرن الأول - إنه سيرجع ؛ ومنهم حمزة بن عمار ادعى النبوة وكان يقول : (من عرف الإمامة فليصنع ما يشاء) ، ولهذا أحل المحارم لجميع العارفين .

ومنهم الذين أولوا الجنة والنار والصلاة والصوم وغيرها على أنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم أو موالاتهم ، كاتباع أبي منصور العجلي الذي زعم أنه خليفة الإمام الباقر ، وقد صلبه يوسف بن عمر الثقفي حوالى سنة ١٢٥ (١) .

ومنهم فرقة القرامطة التى استغلظ أمرها سنة ٢٧٨ . يقولون بوجود أئمة سبعة بعد النبي عليه الصلاة والسلام أولهم على ثم الخمسة الذى أسلفناهم والسابع محمد بن إسماعيل . وهو «القائم» و«المهدى المنتظر» وهو «غائب مستتر» وهو «خاتم النبيين» وأبعدوا في «التأويل» ليقيموا بنيانا خصوصيا لنحلته .

وفى حياة زعيمهم حمدان بن الأشعث (المسمى قرمط) - وقد مات سنة ٢٨٦ - قامت فتنة القرامطة انتفاضا على الدولة والأمة ، فاستولوا على «البحرين» ، وتوجهوا إلى مكة ، فترعوا الحجر الأسود من الكعبة واحتجزوه على مدى اثنين وعشرين عاما ثم أعادوه إلى الكوفة ومعه ورقة جاء فيها (نزعناه بأمر وأعدناه بأمر) .

* * *

أرسل القرامطة داعية لليمن يلقب (ابن حوشب) وأرسل داعى اليمن داعيا بالمغرب أظهر المذهب الإسماعيلي ، فاستولوا على بلاد المغرب وأنشئوا مدينة المهديّة فى أرض القيروان بتونس ، وأقاموا الدولة العبيدية سنة ٢٩٨ . ثم سموها «الفاطمية» نسبة إلى فاطمة الزهراء باعتبارهم

(١) وزعم التاورسية أن «جعفر الصادق» حى لا يموت حتى يظهر باعتباره «المهدى» المنتظر .

وزعم الخطايب - فى حياة جعفر - أنه نبى مرسل ، وأن النبوة نور فى الإمامة ، وأولوا الكتاب والسنة وأحلوا المحارم ، وتبرأ منهم الإمام جعفر ، وقتل بهم عيسى بن موسى والى أبى جعفر المنصور على الكوفة وقتل أبى الخطاب .

ثم انقسم الأحياء من أصحاب هذه النحلة فصاروا نحلا تعمل فى الخفاء منها البزيعية والمفضلية والمعمرية والعميرية قال بعضهم بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو حجر الأساس فى الفرقة الإسماعيلية .

حفدتها^(١)، وفتحت الدولة الفاطمية مصر في سنة ٣٥٨ ودُعيَ لها في بغداد سنة ٤٥٠ .
وفي مصر ازدادوا حضارة والتزاماً بتراث العالم الإسلامي كافة فطراً عليهم الاعتدال المذهبي ،
وقاوم المصريون تقديس المغالين منهم لأئمتهم . وفي سنة ٤٠٨ أخرجوا من غلّوا في الحاكم بأمر الله
إلى لبنان ، فنشأت فرقة الدروز ، ثم شاركت في قتل الحاكم أخته (ست الملك) ، وكانت أمها
جارية رومية نصرانية من سراري الخليفة العزيز بالله .

وتعاضم نفوذ النصاري واليهود في دولتهم : فخلا (ست الملك) يعينان بطريقين للإسكندرية ،
حيث الكنيسة القبطية ، وليت المقدس ، ويعقوب بن كلس ذمّي أسلم وهو الوزير الذي نظم
التدريس بالأزهر . ووكل الخليفة العزيز إدارة مصر إلى نصراني اسمه عيسى بن نسطورس . أما
إدارة الشام فعهد فيها ليهودي اسمه منشا .

وأصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائده الأرمني الأصل بدر الجمالي فولدت له بنت
بدر (المستعلي) ، فولاه بدر الخلافة وحبس أخاه نزارا صاحب الحق في الخلافة ، ثم قتل نزارا ،
فدعا لإمامته الحسن بن الصباح في إيران .

والفاطميون أجمع يخلعون على أئمتهم بعض صفات الله سبحانه :
يقول ابن هانئ للمعز لدين الله وهو خليفة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
ويقول المعز لدين الله إذ مات ابن هانئ سنة ٣٦٣ : (هذا رجل كنا نفاخر به شعراء
المشرق) .

ويقول آخر عن الخليفة :

بشر في العين إلا أنه عن طريق العقل نوراً وهدى
جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسداً

ويشير ثالث إلى الخليفة فيقول :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه العقل والتنزيلا
وإذا تمثل راكباً في مجلس عاينت تحت ركابه جبريلاً

ويمدح الأمير تميم بن معد أخاه الخليفة العزيز فيقول فيه :

مضى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمطر

(١) المؤرخون مختلفون في صحة نسب الفاطميين وفي سنة ٤٠٦ حرر صاحب الموصل - وكان تابعاً للخلافة العباسية -
محضراً ببطلان نسبهم وقع عليهم جماعة من أهل البيت يتصدرهم الشريفان الرضي والمرتضى وهما من نسل الإمام الكاظم ، وعظيمائهم
من علماء الإمامية وقاضي القضاة ابن الأَكفاني وفقهاء عظماء من جميع المذاهب فيهم الإسفراييني والقُدوري وأبو عبد الله البيضاوي .

دعا الحسن بن الصباح لنزار واستقل بفرقة عن الفاطميين بمصر ، وأقام مجتمعاً إسماعيلياً في شمالي إيران ، وفرقة إرهابية سرية أفزعت الخلفاء والأمراء ، وروعت العلماء ، فمن قتلها في القرن الخامس الوزير السلجوقي الكبير « نظام الملك » وعلماء المدرسة النظامية .
وفي القرن السادس ولّى بعضهم فراراً من السلاجقة إلى الشام ، وشادوا قلاعاً لهم في حماة وطرابلس . وحالفوا الصليبيين على المسلمين ، والمسلمين على الصليبيين . فقتلوا في سنة ٥١٩ أمير طرابلس الصليبي Raymond ، ودخلوا معسكر صلاح الدين وهو يعد للمعركة مع الصليبيين ، فطعنوه بخناجرهم .

وفي القرن السابع اكتسح هولاء معاقليهم في إيران فتشتوا .
والمؤرخون الفرنجة يطلقون عليهم لفظ الحشاشين Assassins من تعاطى الحشيش المخدر أو من لفظ القتل الذي تعنيه الكلمة باللغة الفرنسية .

أما أوصاف أهل السنة لهم فهي : الملحدة والمزدكية أو التعليمية أو الباطنية .
وفيهم يقول الغزالي (٥٠٥) في كتابه (فضائح الباطنية) :
(مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر لمدارك العلوم في الإمام المعصوم . وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات . . . هذا مبتدأ دعوتهم ، لم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع . والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها واستنكار الشرائع إلا أنهم أجمع ينكرون ذلك إذا نسب إليهم) .
ولو امتدت به العمر لرأى آثارهم في فكر المتصوفة الفلاسفة أبلغ كأضواء النهار .

فمن بعد موت الحسن بن الصباح استحدث واحد ممن خلفوه في القرن السادس (الحسن بن محمد بن بزرك) ما سماه « عيد القيامة »^(١) - وعيد القيامة من أعياد المسيحية - وغير أتباع الحسن الأصول الشرعية والعقائد الدينية . وقرروا تحليل المحارم ونفى الفرائض تأويلاً منهم للشرعة في خدمة الإمام (السلطان) :

فشهادة التوحيد - وهي أساس الدين - معناها - عندهم معرفة الله عن طريق الإمام !
أما الصلاة فعناها ألا يغفل المرء أبداً عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أي الإمام) . وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده في الظاهر والباطن لأمر الله الذي يمثله الإمام !
وأما الزكاة فهي أن يعطى المرء كل ما وهب الله له من مال لبيت مال الإمام ، أو يهبه - بأمر

(١) أقام الحسن في ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ قبلة مغيرة لقبلة المسلمين ، ونصب إليها أعلاماً أربعة لكل منها لون أيضاً أو أصفر أو أحمر أو أخضر ، وأعلن أن رسولا جاءه من عند الإمام المستر يخبره أن الإمام رفع عنهم إصر الشرعة ورسومها ، فصار اليوم عندهم يوم عيد سموه « عيد القيامة » وسكروا وتهتكوا وأعلنوه ممثلاً للإمام .

الإمام - لأخ مؤمن !

وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها !

وأما الحج عندهم فأن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية !

وأخيراً فالطهارة التي تسبق الصلاة هي التطهر من فعل أهل الظاهر : أى التجاوز عن قواعد

أهل السنة . والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام ؛ لأن الماء هو الحقيقة !

وعلى الجملة جعلوا الإمام هو الوسيلة بين الله والبشر وجعلوه لازمة من لوازم الوجود ، ووضعوا

أركان الدين كلها فى قبضته بالتأويل الرمزي .

وقد قتل الحسن سنة ٥٥٩ وخلفه ابنه محمد ، فتابع أباه حتى مات سنة ٦٠٧ .

ثم خلفه ابنه جلال الدين حسن ، فأعاد الناس إلى الجادة . وأبى جيرانه أهل قزوین أن

يعترفوا بإسلامه إلا أن يلعن صنيع أبيه وجده . فكتب ورقة جاء فيها : (ملاً الله قبورهم ناراً)

وأراد أن يصهر إلى أهل أذربيجان فأبوا إلا أن يشهد خليفة بغداد بإسلامه . فشهد ، واشتهر جلال

الدين فى قومه بأنه المسلم الجديد (نيو مسلمان) وخلفه ابنه علاء الدين سنة ٦١٨ ، وخلفه خلف من

أهله حتى دمر هولاكو دولتهم سنة ٦٥٤ .

التصوف الفلسفى :

فإذا انتقلنا من عالم الشيعة الغلاة إلى عالم التصوف الفلسفى فنحن لا نبعد ، فالولى عند هؤلاء

الصوفية يقابل الإمام عند الشيعة . وللولى العصمة ، ولكل ظاهر باطن . وبالباطن يستأثر الولى ،

بل قد يزداد الصوفية فى الغلواء ، فيرفعون الولى على الرسول فى الدرجة زاعمين أنه يتصل بالله بغير

وسيلة الملائكة أو حلول ذات الله فيه ، وقد يرفعون عنه التكليف وينسبون إليه علم الغيب !

ولا يقفون فى التأويل عند حدود .

يروى الشهرستانى عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة : (إن لكل ظاهر باطناً ولكل

شخص روحاً ولكل تنزيل (تأويلاً) ، ولكل مقال فى العالم حقيقة . والمتشر فى الآفاق من

الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ، ثم ابنه

محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السرى إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو

الإمام حقاً) .

ويقول ابن عربى : (٦٣٨) : إن النبى ليس أعلى من الولى إلا فى نظر أهل الظاهر - أهل

الشرعية - أما من اقترنت عنده حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة فيعلم أن الولاية هى (علو رتبة

باقية - وهى المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل التى ليست بمحل للشرع) فالرسول جاءنا بالشرع

أما علم الأولياء فيجيبهم من الله مباشرة بالتجلى والمشاهدة وما في النبي من ولاية يرجع فقط إلى قدر نصيبه من هذا العلم . والولاية تتعلق حكمها بالله تعالى ولها الدوام في الدنيا والآخرة ، والرسالة تتعلق حكمها بالخلق وينقطع بزوال التكليف .

والفناء هو إهلاك النفس ليصعد الفاني إلى الملأ الأعلى ويلحق بالعقول المجردة . وهذا هو طريق إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لم يذبح شاة ، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها ؛ فالأولياء - بتعبير ابن عربي - هم (المستغرقون في عين الهوية الأحدية بفناء الأنية) وهم (متصلون بالمبادئ الروحانية كالعقل وما يليه) وهم (الذين آمنوا بالإيمان البقيني ، وكانوا يتقون حجب صفات النفس ومواقع الكشف) .

وعندما يفنى الولي في الله (لا يكون تصرفه صادرًا عن عقل واع ؛ وإنما هي النفس الكلية المتحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى) .

والعارف إذا بلغ مقام الولاية فليس تصرفه إلا جبرًا واضطرارًا ، لأن الفناء في (هوية الأحدية) قد سلبه حرية الاختيار والتصرف .

وكانت كتب الحكيم الترمذي عن الولاية وخاتم الأولياء بين يدي ابن عربي وهو يكتب ما كتبه ، وإن كان قد تهادى فجمع لنفسه (كادر) الأولياء كله .

وهو القائل : إنه اجتمع هو (ورجل من المغرب فيه خاتم الولاية بمدينة فاس ، وإنه التقى هو والأبدال السبعة في مكان خلف حطيم الحنابلة بمكة ، وإنه شهد الأقطاب وعددهم ٢٥ قطباً في مشهد أقدس في حضرة برزخية بمدينة قرطبة) .

ثم تهادى فرأى نفسه خاتم الأولياء :

قال : (أما الولاية المحمدية وختمها فلرجل من العرب) وقال في (الفتوحات) المكية : (وهو في زماننا اليوم موجود ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق عن عيون عباده) ثم قال في عنقاء مغرب : (فإني أنا الختم . لا ولي بعدي . ولا حامل لعهدي . بفقدى تذهب الدول وتلتحق الأخريات بالأول) (١) .

(١) ولد محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ابن عربي) بمرسية سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق سنة ٥٩٨ واستقر بالشام ومكن له الأسباب اتصاله بالملوك . فلك قونية في الأناضول وهو مسلم يلقبه بالوالد . وملك الروم كيكاوس (٦٠٩) يكتب إليه يستنصحه . ويזור الملك فيقول الملك لجلسائه : هذا رجل تذل له الأسود ، وأمر له الملك بمائة ألف درهم ، فتركها ورحل عائداً إلى دمشق حيث مات ودفن .

وعندما غزا الأتراك الشام بنى له السلطان سليم قبة وقد همّ المصريون بقتله عندما زار مصر . ومن العلماء من يكفرونه كالسخاوي والسعد التفتازاني ومثلاً على القاري وابن دقيق العيد وأبي حيان وابن حجر العسقلاني

(٨٥٢) وابن تيمية (٧٢٨) وابن خلدون (٨٠٩) .

وأصحاب الطرق الصوفية بغير استثناء يضعون عليا رضى الله عنه في قمة النظام الصوفى وهم فى التعلق به أو التشيع سواء :

الحسن البصرى (١١٠) يسمى عليا (ربانى هذه الأمة) ومعروف الكرخى (٢٠٢) نصرانى أسلم على يد الإمام على الرضا إمام الشيعة . والحكيم الترمذى (٢٩٦) يكتب مائة وخمسة وخمسين مسألة تنبئ عن تشيعه : فالمسألة الخمسون هى (أهل بيتى أمان لأمتى) والواحدة والخمسون بعد المائة (آل محمد) ولما كبست أوراق الحلاج (٣٠٩) وجدت عنده صورة فيها اسم الله وفى داخل الكتابة تعويج مكتوب فيه (على عليه السلام) . والجلى (٥٦٠) صاحب الطريقة من نسل الإمام على والرفاعى^(١) (٥٧٠) علوى .

وابن عربى يقول عن تفسير قوله تعالى (عن النبأ العظيم) (إنه هو القيامة الكبرى) ، ولذلك قيل عن أمير المؤمنين على هو النبأ العظيم) . .

وأحمد البدوى (٦٣٨) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦) وإبراهيم الدسوقى (٦٧٦) كمثلهم فى التعلق ، والشعرانى (٩٧٣) كذلك ، وهو يروى عن (الولى على وفا) قوله : (إن على بن أبى طالب رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى) !

* * *

ولئن رأى المستشرقون تشابهاً بين غلواء الاتجاهات الشيعية والصوفية وبن بعض العقائد أو النظريات أو طريقة الحياة فى المجتمع الفارسى ، أو بين بعض ضروب التزهى أو التعبد الهندى - إن كثيرين يرون وشيجة جامعة بين استمداد العلم من الله مباشرة كما يزعم الشيعة للإمام والصوفية

= وكتب إبراهيم البقاعى كتابين ضده أحدهما (تنبيه الغنى على كفر ابن عربى) والآخر (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإلحاد) .

أما السيوطى فكتب دفاعاً عنه (تنبيه الغنى فى ثبوت ابن عربى) . وكتب عبد الوهاب الشعرانى كتاباً فى الدفاع عنه أسماه (الكبرى فى بيان علوم الشيخ الأكبر) و (كتاب البواقيت والجواهر فى بيان عقيدة الأكابر) دار أكبر اهتمامه فيه حول ابن عربى . أما الفخر الرازى والقاشانى وغيرهم كثيرون فلم يكفروه . وآخرون كالحصكفى من كبار الفقهاء يرون أنه كان يتعاطى الحشيش المخدر فأثر عليه .

وبعض يرى التجاوز عما يقوله لأنه يقوله وهو فى حالات غيبوبة عن الواقع . وهو نفسه يقول عن تأليفه (إن تأليفنا هذا وغيره لا يجرى مجرى التأليف ، ولا يجرى فيه مجرى المؤلفين ، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره . . . ونحن فى تأليفنا هذا لسنا كذلك . إنما هى قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية ، مراقبة لما يفتح لها الباب . فقيرة خالية من كل علم لوسلت فى ذلك المقام عن شىء ماسمعت لفقدائها إحساسها ، مهما برز لها من وراء ذلك الستر باحدث لامثالها وألفته على حسب ما حُدَّ لها فى الأمر) .

(١) إليه تنسب الطريقة الرفاعية . وهم قوم يذكرون الله لكن ليهم منحرفين يطعنون أنفسهم بالمذى ، ويأكلون النار والأفاعى . ليبرهنوا للناس على أن النفس بيد الله تصبح فى غيبة تفارق البدن فلا يحسها الألم .

للولى ، وبين مزج الإلهام الروحى بالنظر العقلى عند الإغريق . وهى الأفلاطونية المحدثه كما صاغها أفلوطين . وقد عرفها المسلمون من ترجمة قام بها عبد المسيح بن ناعمة الحمصى وسموا أصحابها مدرسة الإسكندرانيين . كما سمي الشهرستاني أفلوطين (الشيخ اليونانى) ، ونقلها المتصوفة حيث قالوا : إن الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر ولكن بالمشاهدة فى حالة الغيبة عن النفس وعن العالم الأرضى .

وما هى إلا كلمات (الشيخ اليونانى) :

(لنعزل العالم الخارجى ، ونتوجه إلى داخل أنفسنا ونجهل كل شئ حتى كوننا نحن الذين نتأمل ، فمن داخل النفس واتصالها بالملأ الأعلى تكتسب المعارف الحق) .

والمعرفة باليونانية Gnosis غنوص ، وهى كلمة تطلق منذ القدم على المعارف التى تكتشف بالحدس الناشئ عن اتصال العارف بالمعروف عن غير طريق البرهنة والاستدلال أى الطريق العلمى . والعرب يستعملون لفظ الغنوص ليعبروا عن المعنى اليونانى .

يقول ابن عربى : (إن للعلم الإلهى ثلاث طرق هى الذوق والكشف وهى طريق العلم الكامل ، ثم البحث والنظر ، ثم الإخبار الذى خص به الأنبياء) ثم يقول : (والإخبار أيضاً يقصر عن إدراك ما لا ينال إلا بالذوق) .

والسهروردى صاحب عوارف المعارف يعترف بأن بعض نظريات المتصوفة وهى الصفاء للوصول إلى الله مأخوذة من الفلسفة الإغريقية وبأن الوحدة والحلول لها جذور فى المجتمع الفارسى قبل ظهور الإسلام .

يقول : (خميرة الفياغوين وقعت إلى أخى أنخيم^(١)، ومنه نزلت إلى سيار تستر وشيعته . أما خميرة الخسروانيين فهى نازلة إلى سيار بسطام . ومن بعده إلى فتى بيضاء . ومن بعده إلى سيار آمل) . وأخر أنخيم هو ذوالنون المصرى ، وسيار بسطام هو أبو يزيد . وفتى بيضاء هو الحلاج . وسيار آمل هو أبو الحسن الخرقانى (٤٢٩) .

(١) كانت فى دير أنخيم من صعيد مصر (محافظة سوهاج الآن) مدرسة عظيمة نبه فيها أفلوطين وزوسيموس والأخير قد ذكره الرازى الطبيب فى القرنين الرابع والخامس الهجريين مما يشير إلى انتفاع العلماء الإسلاميين بكتب هذه المدرسة التى تحويها الأديرة المصرية وتبارها يصب فى مدرسة الإسكندرية . وذوالنون من أوائل الذين فلسفوا الصوفية ، وله نظريتان فى المعرفة والمحبة تضاهيان نظريات الأفلاطونيين ، فالمعرفة عنده معرفة عامة المؤمنين أو معرفة الخاصة من المتكلمين والحكماء ، ثم معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم ، وهى أرقاها وأوفرها حظاً من اليقين .

ولما سئل عن كيفية معرفته بربه قال : (عرفت ربي برى ولولا ربي ما عرفت ربي) والمحبة عنده تيار متبادل بين العبد وربّه يشعر فيه العبد باستغراق ذاته فى ذات الله . وهذا هو الحب الإلهى الذى يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه .

وأثر النظريتين ظاهر فى التسترى والنخشبى وأبى عبد الله الجلاء وأبى سعيد الخراز (٢٧٧) وآخرين .

والباطنية من الشيعة يوسعون مدى الغنوصية لتشمل الأئمة وكبار الدعاة .
 والمتصوفة أمثالهم يجعلون الأولياء جعل الأئمة ويرتبونهم رتباً وأنساقاً ، من أدنى لأعلى :
 « فالصالحون » كثيرون ليخالطوا العوام . و« النجباء » قليل ثم « الأبدال » أقل .
 وكل من الأبدال منفرد بقطر من الأقطار وقد يوجد اثنان في قطر .
 وأما « الأوتاد » فواحد في اليمن واثان في الشام وثالث في المشرق والرابع في المغرب .
 وأما « القطب » فواحد يديره الله دوران الفلك في السماء وهو « الغوث » : « يرى عالماً كجاهل ،
 أبله كفطن ، تاركاً آخذاً ، قريباً بعيداً ، سهلاً عسراً ، آمناً حذراً ! » .
 وما دام الغوث عالماً كجاهل ، أبله كفطن - فلا بدع أن يكون لسائر الصوفية شطحات
 أوههمات ، وأن يعيرها أتباعهم أسماهم . يستقصون في كل هينة معنى ، وفي كل هممة
 مضموناً ؛ فلعل ثمة العلم اللدني !
 وفي القرن الرابع يحدد الكتاني (٣٢٢) العدد فيستكثر ، ويستحدث درجات أخر . ويعين
 مقام العمل ويعين العمل : (فالغوث واحد ، والعمد أربعة ، والأخبار سبعة ، والأبدال أربعون ،
 والنجباء سبعون ، والنقباء ثلثمائة ، والنقباء بالمغرب ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام ، والأخبار
 سيّاحون في الأرض . والعمد في زوايا الأرض . والغوث بمكة . فلا يتم الغوث الدعاء حتى تجاب
 الدعوة) .

* * *

ولئن نجح غلاة الشيعة هنا أو هناك زماناً ، أو أفلح المعتدلون منهم في نشر المذاهب العلمية
 وإقامة دول حملت رايات الإسلام في أرجاء العالم ، إن أثر الغلو الصوفي في سلوك الجماعات كان
 مثبطاً ، بما فيه من تخطيط يؤثر السلبية على الإيجابية ، أي العمل ؛ والمجهول على المعلوم ، والباطن
 على الظاهر ، والإدهان للحكام على النصيح لهم ، أو تحمل تبعات الإصلاح بالأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر .

وإذا كان من صلحاء الصوفية من عرفهم سهل بن عبد الله التستري (الصوفي من صفا من
 ضغائن الكدر وخلا من الفكر ، وانقطع عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر) فيجعلون
 الاعتزال والانقطاع عن العمل منتهى همهم ، إن العامة عظم الأمة لا تقدر على أن تنقطع عن
 العمل أو يستوى عندها الذهب والجص . أما الخاصة فأعجل إلى الدنيا من العامة ، ومن نصحاء
 المتصوفة ومن واجب الجميع عمارة الدنيا .

هكذا تخلف من التراث الصوفي طقوس عزلة وانقطاع وتسلب ، ومقولات أغرقت الأتباع في
 بحار غريبة الأغوار من عليم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وسال مداد كثير من الكلام عن

علم القلوب في مقابل علم الفقه ، والباطن في مقابل الظاهر ، أو الحقيقة في مقابل الشريعة ، فجعلوا القلوب والبواطن والحقائق خصيصة لهم ، أما علم الفقه الذي يتداول أحكام الشريعة فهو علم أهل الظاهر .

الأولياء :

وبعد : فمن هم « الأولياء » الذين ورد فيهم قول الله جل ثناؤه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) ؟
لقد ورد لفظ الولي في تسعين موضعاً بالقرآن ومنها أولياء الله وأولياء الشيطان . وكذلك ورد اللفظ في السنة . وما دام قد ورد النص في الكتاب والسنة فيتعين البحث عن معناه فيهما ، والحق أن المنقول والمعقول قد وضحا المعنى كل توضيح .
أما المنقول :

فالإمام الطبري (٣١٠) - كبير المفسرين بالمأثور - يفسر الأولياء بأنهم أنصار الله الذين وصفهم بقوله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .
والفخر الرازي (٦٠٦) - كبير المتكلمين - يرى أن القرآن والسنة والآثار قد حددت التعريف بهم . ففي القرآن أنهم هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، وفي السنة رواية عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : (إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فإننا نحبهم لذلك ؛ قال : هم قوم تحابوا في الله بروح الله ، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .
وأما المعقول :

فالولي معناه القريب بالاستغراق في معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته .
وليس القرب قرب مكان ؛ فهذا نجس .
وهو يحصل من الجانبين . والله يقول : (الله ولي الذين آمنوا) .
والمتكلمون يقولون : إن « ولي الله من أتى بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ، بالعمل الصحيح ، الموافق للشريعة .
فهذه كل طرائق العلم مجمعة على أن الأولياء كما قال تعالى هم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .
لكن الصوفية يعلقون كثيراً على حديث الولي :
في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال من عادى لي ولياً

فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعبدنه . والمتفلسون منهم يرتبون على الحديث اتحاد ذات الله تبارك وتعالى مع ذات الولي . والحشويون يتصورون ذات الله كذوات الناس لها عين وأذن ويد ورجل : والحشويون يعيشون بين الجماهير ، والمتفلسون يسقون الناس شراب الكفر في آنية الأنبياء كما يقول ابن تيمية .

ولو استعمل الفريقان في التفسير منهج السلف لفهموا المقصود كما فهمه رسول الله وصحبه وتابعوهم بإحسان . وهي الأجيال الثلاثة التي فضلها رسول الله واختارها الله تعالى ليبدّر بها وتنمو فيها بذرة التوحيد في الوجود .

ولو استعملوا منهج الآخرين لأيقنوا أن المقصود رحمة الله وتأنيده . ولو استعملوا فقه المسلمين في الإيمان لرأوا أن أداء الفريضة هو المؤهل للقرب ، وأن إضافة النوافل درجة فضل .

فالحديث بنصه وفحواه يهدم كل تفسير باطني يغير المعنى الجلي للسان العربي الذي ورد به النص .

الكرامات :

يقول القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥) : إنه ما دامت الولاية مرتبطة بفضل الله وتوفيقه فالأصل أن الولاية لله (يورد الأرواح مورد المكاشفة بأنوار المشاهدة فيفنون عن الإحساس بالنفس ، ويورد الأسرار ساحات التوحيد ، وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب ولا أنس بل استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية) .

ويرى القشيري جواز أن تكون للولي كرامات . وهو القائل «قبر معروف (الكرخي) ترياق مجرب» .

وابن حزم إمام أهل الظاهر (٣٨٤ - ٤٥٦) باقعة عصره في الفقه والأدب ولغة العرب ، معاصر للقشيري ، ينكر أن تكون للأولياء كرامات بمعنى الخوارق وكمثله الإسفراييني (٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م) معلم القشيري في الفقه^(١) يقول :

(المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد لغير نبي ، وللأولياء كرامات شبه

(١) الإسفراييني هو أحد الدين بنى لهم الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التي تعلم فيها القشيري والغزالي وإمام الحرمين وغيرهم من عظماء العلماء .

إجابة الدعاء ، أما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا) .
 وابن فورك أستاذ آخر للقشيري يقول : (المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها ، أما الكرامات
 فالأنبياء مأمورون بسترها وإخفائها) .
 وجملة الأمر عند أهل السنة أن (كل خارقة تحدث يتعير، عرضها على الشريعة : فإن ساغت
 قبلت) .

فالكرامة الحقيقية للولي ليست في الفناء في ذات الله وحلول الله في الولي ؛ فهذا يناقض أصل
 الإسلام وهو التوحيد الخالص ؛ وإنما الكرامة هي الكرامة المعنوية وحدها ، وقد لا يدركها من
 وقعت له وإنما (تظهر في رقيه الروحي في مدارج السلوك إلى الله) .

وإبراهيم بن أدهم (١٦١) يقول : (الأخيار الأبرار يغضب الله لغضبهم ويرضى لرضائهم) .
 وسهل التستري (٢٨٣) يقول : (أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك) .
 ولما قال له قائل صوفي : ربما أتوضأ فيسيل الماء بين يديّ قضبان ذهب وفضة أجاب سهل :
 (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة لينشغلوا بها ؟) .

وقيل لأبي محمد عبد الله المرتعش (٣٢٨) : إن فلاناً يمشي في الهواء فأجاب : (عندي : إن
 مكنه الله تعالى من مخالفة هواه أعظم من المشي في الهواء) .

الإسلام إيجابي :

والولي في نصوص القرآن والحديث شخصية إيجابية كما يتجلى من أحاديث عمر والنعمان بن بشير
 وغيرهما . ولا مراء في أن من كبار الأولياء صحابة النبي . ومنهم الذين هاجروا والذين نصرروا والذين
 جاهدوا والذين بشرهم الله ورسوله بأن لهم الجنة . لم يتماوت واحد منهم تماوت المتصوفين
 أو الحشويين ولم « يفن » واحد منهم عن نفسه فناء المتفلسفين أو يدع الغيب أو يزعمه له المرجفون .
 أو يلبس خرقة المتصوفة أو يرتفع له صوت عند الذكر بالغناء أو « بالتغبير » أو اصطناع الهيئات
 أو الانطواء في تكية .

شتان ما حال الصحابة ومقامهم وأحوال غلاة الصوفية !
 الأولون في جهاد واجتهاد والآخرون مبدعون أو متقعدون أو مغربون . ومنهم من يصف أمرهم
 صوفياً سئل عن مشايخه كيف كان يجدهم وقت السماع ؟ فأجاب : (مثل قطع الغنم إذا وقع في
 وسطه الدثاب !) .

وشتان بين ما جوع النبي وصحبه إذا لم يجدوا طعامهم ، والتجويع والتعرية اللذين يقول عنهما
 أبو يزيد البسطامي (٢٦١) : إنه وجد المعرفة (بيطن جائع وبدن عريان) ، ويقول آخر : (أكل

درهم من اللحم يقسّى القلب أربعين صباحاً) .

ورسول الله ﷺ يقول : (من أصابه جهد في رمضان فلم يفطرمات دخل النار) ويقول : (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه) وكان عليه الصلاة والسلام يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة . وهو القائل : (نفسك راحلتك فارقك بها حتى تبلغ الثرى) . والقائل : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) . وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحماً .

ويضيف ابن الجوزي حكم الفقه إذ يعوّق التجويع العبادة فيتساءل : (أى قربة في هذا الجوع المعطل للعبادة ؟ فالمرء إذا كان يتقوى على الصلاة بالطعام يلحق الطعام بالعبادة لأنه يعين عليها) . يروى السهروردي (٦٣٨) أن الترويج عند الصوفية انحطاط من العزيمة إلى الرخصة . وأبوسليمان الداراني يقول : (ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته) ، والشعراني يروى قولاً لرباح بن عمرو القيسي (لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم أيتام ، ويأوى إلى منازل الكلاب) .

شتان ما هذه الأقوال وقول رسول الله ﷺ : (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني) . والزواج يحتمل الأحكام الخمسة ^(١) . والرهينة من طقوس المسيحية ، وتعطيل للمسلمين ، وتقليل للصالحين ، ومنع للإحصان ، وتعذيب للفطرة ، وإضعاف عن العمل في الدنيا والآخرة . وابن عطاء السكندري (٧٠٧) صاحب الحكم يرى الخلوة من المجاهدات التي تهبط النفس (لأحوال الوجد والفناء والمعرفة) ، وذو النون يقول : (لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من العزلة) ، والقشيري يقول : (لا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق) . وفي هؤلاء يقول ابن الجوزي (٥٩٧) : إن ذلك المعتزل (لا يتعدى نفعه عتبة بابه والعالم نفعه متعدد . وكم قد رد إلى الصواب من متعبد) .

شتان ما يدعو هؤلاء له الأمة وما يدعوله رسول الله ﷺ . قال أبوأمامة (خرجنا مع رسول الله ﷺ فر رجل بغار فيه شيء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا ، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال

(١) الزواج لرض إذا قدر الرجل على للمهر والنفقة وواجبات الزوجة عليه وتيقن أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو واجب إذا قدر على كل ذلك وخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مندوب إذا قدر على كل ذلك وكان في حالة اعتدال لا يخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مكروه تحريماً إذا خاف ولم يتيقن أنه يظلم زوجته إذا تزوج ، وهو محرم إذا تيقن أنه إذا تزوج يظلم زوجته ولا يقوم بواجبات الزوجية .

له : (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ، والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها. ولقاهم أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة) .

والاعتزال وعدم العمل وعيش المرء من كسب غيره وانتظار رزق لا يسعى المرء له - كفر لنعمة العافية ولخلافة الإنسان في أرض الله .
وشتان ما هؤلاء الذين يتراصفون في التكايا نياماً وقعوداً والذين يتراصون في الصفوف للزحوف .

* * *

وابن خلدون (٨٠٨) قاض يقدر على الفصل في النزاع . ومؤرخ يدرك روح التاريخ ، فيعلن حاجة القرن التاسع الذي عاش فيه ، بل حاجة كل القرون ، إلى العودة إلى الأمر الأول بمزيد من الدراسة للرسالة والسيرة والسنة . ويكرر وصية أشياخه له لتكون وصية للأمة منه بالترياق الحقيقي الذي يفلح به كل مصلح . وهو فهم سنة الرسول والعمل بها . فيقول :

(ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون : « شرح كتاب البخاري دين على الأمة » يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار) ^(١) .

ويقول عن علم الحقائق : (إن هذا العلم - كما رأيته - غير واف بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها) . ثم يقول عن الصوفية الفلسفية : (أما علومها الطبيعية وما يستعمله أصحابها من البراهين فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبنّ أحد عليها وهو خال من علوم الله) .

أما آراء المحدثين والفقهاء فقد سبق بها ابن الصلاح (٥٧٧ - ٦٤٣ هـ) - (١١٨٩ - ١٢٤٥ م) حيث قال : (الفلسفة أساس السفه والانحلال) .
ولم ترع الجماهير سمعها في حياة ابن الصلاح لمن أنبهوها على الانحلال ، بل أتاحت للمتفلسفين المتصوفين البحبحة والتمكن بذيوع مقولات ابن عربي (٦٣٨) وعبد الحق بن سبعين (٦٦٧) وعمر بن الفارض (٦٣٢) وكان به سكر من الحب الإلهي . وشتان ما شعره وشعر رابعة العدوية ؛ فهذا شعر القرن الثاني للهجرة وذلك شعر عصر ابن عربي :

(١) إذا عرفنا أن للبخاري اثنين وتمانين شرحاً ولمسلم خمسة عشر (وهذان هما الصحيحان) بخلاف سائر شروح كتب السنن الكثيرة أمكننا أن نقرر أن المطلوب مزيد من الشروح في كل عصر ، ليفهم الناس خلود الشريعة وممونها وليدركوا مبلغ ما تسعفهم في دنياهم في كل عصر ومصر .

وعصر ابن عرى هو الذى نزل فيه الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ وردهم المصريون سنة ٦١٨ ، فكروا كرة أخرى فى سنة ٦٤٧ فأسير الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) ثم أفرج عنه بفدية .

وعصر ابن عرى هو الذى دخل فيه هولاءكو بغداد فى صفر سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) واحتل الشام بعدها بأشهر . ولم يرد جيوشه عن سائر بلاد الإسلام إلا هزيمته فى عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٨ = سبتمبر سنة ١٢٦٠ .

* * *

فى عصور التخلف هذه يقتصر الفقهاء على التقليد ، وينقل تقليدهم إلى العامة فيصير إيماناً بهم ، وطاعةً كلها العبادة لهم . وينحضع الجهلاء لأضاليل المتفلسفين فى أى فن فيعبدون أشخاصهم وأفكارهم .

ويوم يعبد الناس غيرهم يكونون عباد أصنام ، وعبداء الأصنام أدنى من معبوداتهم . والناس أعجل فى الخضوع فى أيام المقاحط والحن العامة والخاصة ، كمثلى تعلق المرضى بوجه والغرقى بقشة . والغرقى بسراب .

وكلما طالت عصور التخلف والضعف استحكت البدع ونفقت سوق الدجاجلة بدعوى العلم اللدنى لديهم أولدى غيرهم ، يحشدون لها الأدوات من الأشخاص والأشياء لتصديقهم . وكثيراً ما استرعت عبادة بعض الناس أنظار العامة فنسبت إليهم ما لا يدعونه . ومن فلاسفة التصوف أنضاء عبادة نسب إليهم الناس أكثر مما تصوره : أو تجاوزوا عن غلوائهم من أجل تقواهم .

والناس من شهواتهم الدنية أو حاجاتهم الدنيوية أوحالاتهم المرضية يستبدلون الأمانى بالحقائق والأخيلة بالواقع . فيكفرون وفق شهواتهم .

وليس عجيباً أن ينعكس سلوك الرعية على أفهام أولى الأمر ، علماء وحكاماً ، إذ تصبح البدع تقاليد للجماعة يعز الخروج عليها إلا من المقتدر . والحكام أحوج إلى الجماهير وبجاراتها إذا لم يكونوا منها ، ليسر عليهم أن يستسخروها ، أو يسخروا منها .

* * *

هكذا تسمى الجماعة صورة مهزوزة أو خيال ظل شائه الأصل ، تكتنفه الأوهام من كل جانب ، فتمشنى مشى المسحور فى برزخ لا هو الخيال ولا هو الحقيقة . وترداد الفرجة بين عقيدة الأمة وسلوكها ، فلا يكاد يصلها بالعقيدة إلا الاسم ، أو يبقى من العمل بالدين إلا التزام الطقوس . ومن السعى الواجب للحياة الكريمة إلا القناعة بأدنى الجهد . ثم لا تجد الجماعة فى علمائها غنية ، أن

لم يبق فيهم قدوة ، فتؤثر الحياة المتاحة لها من الحرام أو الحلال . وتنكب على وجهها في تراث الوثنية ، تدليها الغرائز ، وحاجات العيش من يوم ليوم ، وتتعاورها الرذائل ، وتسرى المعاصي سريان النار في أمتعة بالية .

والمعصية شجرة تنبت حولها أمثالها ، ومن عقوبة السيئة ما تنبت من سيئة مثلها . فتشيع الفاحشة . ولا تقتصر الفتنة على الذين ظلموا خاصة .

وهذه حال نبه عليها رسول الله ﷺ :

قالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس ، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء . فما تكلم حتى توضأ وخرج ، فلصقت بالحجرة . وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبَكُمْ وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصِرَكُمْ وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيَكُمْ) .

ولم يشارف جيل الصحابة ختامه حتى سمعنا أنس بن مالك يقول للتابعين : «إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر ، وإن كنا نعدّها في عهد رسول الله من الموبقات» . وسمعنا الحسن البصري (١١٠) يقول عن الرافهين المتجبرين : (إنهم - وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين - إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أباي الله إلا أن يذل من عصاه) . وفي عصر الحسن كان الناس يستمعون للنصحاء ويتذكرون الواجب . حتى حكام بني أمية روى عنهم الإمام أحمد في المسند «وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها : (هذا كان ينبت في زمن العدل)» .

ثم تلاحت أجيال من البدع تلاحق أجيال الناس في نسيان الله . وهو القائل لهم سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) . وأول عقوبة للعصاة فساد أنفسهم وزوال نعم الله عليهم : يقول علي بن أبي طالب : (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة) .

وفي المسند من حديث ثوبان قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) . ومن ثم يجوع الناس بذنوبهم ويأخذ الفساد في الازدياد على حسب ما يُبعد الزمان من القرون الأولى :

لقد لعن الرسول الواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة . ولعن الخمر وشاربها وساقيا والمختثين من الرجال والمسترجلات من النساء

واللابسات لبسة الرجال ، والسحرة - والولاة الظلمة وآكل الربا والراشئ والمرتشئ والرائش^(١) والمحلل والمحلل له وزوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .
وأصبحت اللعنة عامة منذ أصبحت الجماعة تقبل ذلك كله ، ويعمل بعضها كثيراً منه ، دون إنكار عليه وربما مع الرضا عنه .
بل أصبح من الناس من يسجدون لغير الله سبحانه . ويطوفون بغير بيته المبارك . ويقبلون أحجاراً وقبوراً . ويستلمون أركانها ويحلفون بغير خالقهم ويمجدون صفاته . وغيروا البدع - مكفرات أو مصللات - وجه المجتمع فوجد فيه من يدعى ولاية الله ورفع التكليف عنه ومن تنسب إليه الكرامات وتطلب منه الشفاعات .
على هذا التيه الكريه من المعاصي ثار ابن تيمية . وقضى عليه الجهلاء - في ثياب علماء - بالسجن مرة بعد أخرى ، من أجل إيمانه الصحيح ، لأنهم كانوا في موضع الخصم والحكم .

(١) الرائش : السفير بين الراشئ والمرتشئ .

الفصل الثالث

العودة إلى المنهج السلفي

(المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح) .

ابن تيمية

ابن تيمية

في تاريخ العطاء وحدة تتجلى في الأشباه والنظائر من آثار العمل العظيم كلما تكرر . ومن هنا تشاكل ابن حنبل وابن تيمية وتشابه ابن تيمية وابن عبد الوهاب .
ومن الوحدة كانت كل كلمة تقال في واحد من الثلاثة مقولة صالحة في الآخرين . ولئن امتاز ابن عبد الوهاب بأنه أعاد الناس إلى « التوحيد » بالحرب . . إن ابن تيمية كان نخبه مدرسة ابن حنبل ، والقُدوة لابن عبد الوهاب في كل ما عمله أو علمه . جاء مجيء همسة من السماء في أسماع أمة قال عنها شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق في كتابه (فيلسوف العرب أو المعلم الثاني) :
(كانت الدولة الإسلامية في هم مما أصابها من أثر الخراب المغولي ، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب إلى إصلاح إسلامي بالرجوع إلى السنة التي كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله) .
ولد أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين عبد الحلیم بحران وهاجر به أبوه أمام زخوف التتار إلى دمشق حيث صار أبوه شيخ المدرسة السكرية في الحديث ، وبها كان سكنه حتى مات سنة ٦٨٢ ، وفي المدرسة تربى أحمد وأصبحت دمشق موطنه . فعاش فيها حتى مات سجيناً في قلعتها سنة ٧٢٨ من أجل آرائه .

أما جده فالشيخ مجد الدين أبو البركات (٦٥٢) صاحب المؤلفات في المذهب . ومنها كتاب « مسودة الأصول » التي زاد فيها ابنه ثم جفیده . فهي أول مؤلف جماعي في الفقه الإسلامي لأسرة ألف فيها الجد والأب والحفيد - وهي - بعد - مدرسة زهد .

والورع معلم من معالم مذهب ابن حنبل . يقول ابن عقيل : (. . . فأما أصحاب أحمد فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا يخرج به ذلك إلى التعبد والتزاهة لغلبة الخير على القوم) .

وكان في دمشق مدارس أخرى للحنابلة منها المدرسة العمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة الأخ الأكبر لموفق الدين (صاحب المغنى والمقنع) وقد لازم عمر صلاح الدين في حروبه . ولموفق الدين أثر كبير في فقه ابن تيمية .

وكان العصر عصر غارات التتار والصليبيين - والمسلمون بحاجة إلى شجاعة النفس بالجهاد ، وإعمال الفكر بالاجتهاد .

أما شجاعة النفس ففيها يقول أمير من أمراء دمشق :

قال لي الشيخ ابن تيمية يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان : يا فلان ، أوقفني موقف الموت ! قال فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ، ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت وهذا هو العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة فدونك وما تريده . فرفع طرفه وشخص ببصره إلى السماء وحرك شفتيه طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، ثم طال القتال والالتحام بيننا وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا أنفسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار - فإذا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوت تحريضاً على القتال وتخويفاً للناس من الفرار ، فقلت يا سيدى قد فتح الله ونصروهاهم أولاء التتار محصورون بهذا السفح ، وفي الغداة إن شاء الله يؤخذون عن آخرهم ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وحاربهم كذلك بالجبل حتى جلوا عنه وتم الفتح المبين .

وأما عن الفكر والاجتهاد فرمما أحسن إجمال أمره قوله عن نفسه :

(ربما طالعت في الآية نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم) . فبين هاتين النهايتين من البطولة والورع تمت واكتملت عقلية «مجاهد» . في كل ميدان للإسلام فيه شأن ، وطريقة عالم يعمل قدر ما يعلم ، وما كان أعظم ما علم وأجل ما عمل .

* * *

يقول ابن دقيق العيد : إنه كان (رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ بما شاء منها ويترك ما شاء) ويقول ابن سيد الناس : (لم ترعين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه) يخرج عن مذهبه الحنبلى ، ويخرج عند لزوم على جميع المذاهب مادام يؤيده القرآن والسنة ، فإذا الأمة الإسلامية التي قاومه جهالها في حياته من أجل بعض فتاواه - تهرع في القرن الرابع عشر إلى هذه الفتاوى ذاتها لإصلاح حالها . فهو قد سبقها إلى العلم الصحيح والمصلحة الشرعية بقرون سبعة .

أما جهاده للنهي عن المنكر فكان مثلاً فريداً في البأس ، يضربه عالم يسير إلى السجن باختياره مثني وثلاث .

وأما عن العقيدة والفقه فقد أعاد إلى المذهب السلفى صولجانه . وأمست مؤلفاته - وهي نحو

خمسة - منها للمجددين في الفقه والإصلاح الديني والاجتماعي في كل عصر جاء بعده .
 وكان كثير من فساد العقائد ناجماً عن الأعياب أدعياء التصوف في عصره وأضاليل الباطنية
 وعباد الأصنام و «هيئة المتفيعين» بها ، ممن يمدون بالأسباب إلى السلطان .
 وهو عالم سلفي لا يرضى الدنية في دينه . وعلى هذا طالت حربه لأصحاب البدع طول حياته .
 وشجع شجاعة العالم الذي ترتجيه أمته في محتها .

شكا إليه رجل من ظلم الأمير له فنهد إلى الأمير مع المظلوم يطلب حقه .
 قال الأمير متهاكماً : كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عابد زاهد .

قال ابن تيمية : (موسى كان خيراً مني وفرعون كان خيراً منك ، وكان موسى يجيء كل يوم إلى
 باب فرعون ثلاث مرات يعرض عليه الإيمان) .

وفي سنة ٦٩٩ والتار يحيطون بدمشق دار على الخمارات مع أصحابه يغلغونها ويريقون محتوياتها
 ويعزرون أصحابها ، ويذكرون الناس أنهم في حرب .

وفي سنة ٧٠٠ خف إلى مصر يستحث السلطان لإنقاذ الشام ، وخرج من دمشق إلى الجبال
 يحارب أعوان التار على أبناء جنسهم .

وفي سنة ٧٠٢ كان فارس الحرب في موقعة شقحب . وفي سنة ٧٠٤ خرج مع صحبه فأزالوا
 صخرة كان الناس يقدمون لها النذور ، وفي سنة ٧٠٥ خرج مع السلطان يبددون الفرق الإسلامية
 التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر ، وحارب أكلة الثعابين ومقتحمي النيران من أصحاب
 الطرق . وراسل القساوسة يهدى للإسلام .

وفي سنة ٦٩٨ أصدر فتواه لأهل حماه في الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه : إن علينا أن
 نؤمن بها كما نزلت بها عبارات القرآن والسنة دون تأويلها ، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .
 والله تعالى يقول (ليس كمثل شيء) فإذا قال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) - فعناها هو
 الذي أراده الله من صريح النص دون تجسيد لذاته . ولا تشبيه لها بخلق . ولا للخلق بها ؛ ولهذا لم
 تحتج الصحابة إلى تأويل النص ؛ لأنهم فهموه مع رسول الله ﷺ كما يفهم القرآن . وفي ذلك قول
 مالك في معنى (الرحمن على العرش استوى) «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة»
 وأمر من سأل من أحاديث الصفات بقوله :

(أمض الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار) .

وطالبه القضاة بالدفاع عن فتواه فحضر ودافع .

ثم أعادوا الكرة في سنة ٧٠٥ فاتهموه بأنه يقول : إن الله يجلس على العرش ويشار إليه
 بالإشارات الحسية : يقصدون أن الله يجلس كما يجلس الناس ، وأنه يتكلم بحرف وصوت .

وطلبه السلطان من دمشق إلى القاهرة فحضر ، ولم يأذن له القضاة بالدفاع . وسجنوه عاماً
وبعض العام .

فلما خرج رفض العودة إلى دمشق ، وبقي في القاهرة يعلم الناس ، ويكذب الحشوية المشبهين
والمجسدين ، ويفند أكاذيب الكاذبين من أتباع بعض الطرق كمن يأكلون الثعابين ويدعون أن سمها
لا يصيبهم ، أو يدخلون ناراً ويخرجون منها بسلام . واشتد على المتصوفة المتفلسفين كابن عربي
وأقوالهم في الوحدة مع الله وحلوله فيهم وفنائهم فيه ! وله في ذلك رسالة مشهورة إلى النصر
المنبجى - كما أفتى بتحريم زيارة القبور والتوجه للأولياء بالدعاء والتوسل .

واسودت الدنيا في وجوه المتنفعين بهذه الأعمال . فشكوه إلى السلطان ، فخيره بين أن يقيم
بمصر أو بالإسكندرية بشرط (السكوت) وبين الحبس فاختر الحبس على الحرية المشروطة ،
فحبس بالإسكندرية عامين حتى سنة ٧٠٩ .

ثم أطلق سراحه سلطان جديد . وحكمه فيمن حكموا عليه ، فأعلن عفوهم عنهم وفيهم قاضى
القضاة . فكان إصلاحاً من عالم لجاهل ومن مظلوم لظالم .

وفي سنة ٧١٢ برح مصر إلى دمشق يعلم الناس ويفتيهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

* * *

كشفت فضائح العصر للفقير الفحل عن « مهمة حياته » فلم يذهب بددا تناوش الحشويين
والباطنيين معه ، وانطلق يعلن في كل مقام أنه ليس بين الله وبين عباده وسائط إلا الرسل ، ومن
قال بغير ذلك مشرك كافر يستتاب وإلا قتل ، لأنه يجعل لله ندا ، ونصوص القرآن تكفر من يتخذ
الملائكة والنبين أرباباً فكيف بغيرهم ؟ وإذا كان لرجل أن يقول لآخر : ادع لى - فهذا مشروع ،
أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول : ادع لنا أو اسأل لنا ربك .

ولا تشد الرحال إلى الموالد أو زيارة الأضرحة أو تقام القباب الضخمة على رفات الموتى وتتخذ
مساجد ، ومن جهل ما أمره الله به لم يكن من أوليائه وإن كان صاحب عبادة كالرهبان وغيرهم .

وكذلك من علم ولم يعمل بعلمه . بل هو قد يكون فاسقاً أو فاجراً ، ومن تعبد بالصمت
الطويل الذى يترك الواجب أو بالقيام فى الشمس أو العرى أو الجوع والعطش فهو ضال مبتدع .

وعرف بالأولياء تعريف المفسرين بأنهم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وقال : إن (أهل المكاشفات والمحاطبات يصيبون تارة ويخطئون تارة أخرى كأهل النظر
والاستدلال فى مدار الاجتهاد . ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب
والسنة لكان مستغنياً عن الرسول فى بعض دينه وهذا من أقوال المارقين) .

أما ادعاء العصمة للأولياء فأصديق قول فيه قوله (ذلك الخليط من الحكمة الذي يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل) .
وأما إظهار الصوفية أنفسهم في لباس خاص (فجارية لمسوح الرهبان) .
(وهدي نبينا أحب إلينا . وكان ﷺ يلبس القطن وغيره) .
وتظهر زراية ابن تيمية على الإفراط في الحساسية التي تعتري بعضاً عند سماع القرآن في قوله :
لم يكن في الصحابة من هذا حاله وليس بيننا وبين هؤلاء الذين يصفقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأ على أحدهم وهو على حائط . فإن خر فهو ساقط .
أما عن الأبدال والنجباء والنقباء أو « الكادر » الذي يصطنعه المتصوفة فقال : (هذه الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من العامة والنساك مثل الغوث الذي بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة - فهي ليست في كتاب الله ولا هي مأثورة عن النبي ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف يحتمل إلا لفظ الأبدال فقد روى فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي كرم الله وجهه . . .) .

* * *

أما فقهه ففيه يقول الحافظ الذهبي : (فاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم مذهباً بل ما يقوم دليله عنده) .
والمذهب عند ابن تيمية أن (قول القائل - لا أتقيد بواحد بعينه دون الباقي - أحسن ، بل هو الصواب من القولين . وإن أراد أني لا أتقيد بها كلها بل أخالفها فهو مخطئ في الغالب قطعاً ، ولكن تنازع الناس : هل يخرج عنها في بعض المسائل ؟ على قولين . .) .
لهذا ينفرد ابن تيمية بآراء فيها رحمة بالناس . . . مثل قوله : إن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال في البيت أو شق عليها التزول إلى الحمام وتكرره - لها أن تتيمم وتصلي .
وقوله : إن من أكل في رمضان معتقداً أنه في ليل فبان أنه في نهار فلا قضاء عليه .
وقوله : إن تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه ، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله له : أي القيام بالتوبة الصحيحة .

وقوله : إن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق ، وإنما تجب به كفارة يمين .
وقوله : إن الطلاق الثلاث بفم واحد يقع طلقة واحدة رجعية ، فصدر مرسوم في سنة ٧١٨ بمنعه من الإفتاء فقال : لا يسعني كتمان العلم ، فحبس في القلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وعاد يفتي ، وأعيد استجوابه وحبس في القلعة فظل على رأيه .
وهذان القولان الأخيران إصلاحان تاريخيان أصلحت بهما مصر قوانينها في النصف الأول من

القرن الحالى .

وهو يفرع على أن شروط الزواج أحق الشروط بالوفاء : أن للزوجة أن تشتط على زوجها فى عقد الزواج شروطها . وينفسخ الزواج إذا أخل بشروطها . وأن الوفاء لها بشروطها أولى من الوفاء بشروطه ؛ لأنه يملك أن يحل عقد الزواج بالطلاق .

وهذا الرأى الأخير صيحة من صيحات إصلاح جديد تتردد الآن .

ويفرع على أن المسلمين عند شروطهم إلا ما أحل حراماً أو حرم حلالاً ، حرية الشروط ؛ لأن (مقاصد العقلاء إذا دخلت فى العقد وكانت من الإصلاح الذى هو المقصود لم تذهب عفواً ولم تهدر رأساً) وأنه (قد تفيد الشروط مالا يفيد الإطلاق بل ما يخالف الإطلاق) .

وكل مشتغل بتقنين الفقه الإسلامى فى العصر الحالى يجد كفايته فى النصوص ، مفردة أو مجمعة ، وفى المعانى الكلية المستنبطة من مجموع النصوص ، ويعتمد على أن «المسلمين عند شروطهم» .

أو كما قال ابن تيمية : (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساد مغموراً بالمصلحة لا يحظره أبداً) .

ويضع ابن تيمية الأساس للأخذ بالنصوص وهو :

- ١ - أن المعقول الصريح لا يناقض المنقول الصحيح ، فالنقل والعقل لا يتعارضان بحال ؛ وإنما العيب عيب الذين يقل إمامهم بالمنقول أو يخطئون فى المعقول .
- ٢ - عند مظنة التعارض يهتم العقل بالتقصير ؛ لأن العقل ليس معصوماً ؛ وإنما الشارع معصوم .

يقول : (إن من كان متبحراً فى الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص والأقيسة) .

ويقول : (وبالجملة فما عرفت حديثاً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ، بل متى رأيت قياساً يخالف أثراً فلا بد من ضعف أحدهما ، لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يخفى الكثير منه على أفاضل العلماء فضلاً على من هو دونهم) (١) .

(١) يقول الشافعى فى الرسالة : (. . . لم نجد عنه « صلى الله عليه وسلم شيئاً مختلفاً » فكشفناه إلا وجدنا له وجهاً يحتمل أن يكون مختلفاً وأن يكون داخلاً فى الوجوه التى وصفت لك أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بثبوت الحديث ، فلا يكون الحديثان اللذان نسبنا إلى الخلاف متكافئين فنصير إلى الأثبت من الحديثين أو يكون على الأثبت منها دلالة من كتاب الله وسنة نبيه . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولها مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت . . .)

ويقول : (وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمة وأعلمها وقد بينت فيما كتبت أن المنقول فيها عن الصحابة - هو أصح الأقوال قضاءً وقياساً وعليه يدل الكتاب والسنة ، وعليه يدل القياس الجلي . وكل قول سوى ذلك تناقض في القياس مخالف للنصوص ، وما شاء الله من المسائل لم أجد أجود الأقوال فيها إلا الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . وإلى ساعتي هذه ما علمت قولاً قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه . لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم ؛ وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده .

وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن يفوق التعداد . . .)
ذلك تفسير قول الشافعي في رسالة الأصول (وأما أن نخالف حديثاً عن رسول الله ثابتاً عنه فأرجو ألا يؤخذ علينا ذلك إن شاء الله . وليس ذلك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ في التأويل) .

* * *

اشتهر عند المستشرقين كتاب ابن تيمية « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية »^(١) لمعالجة هذا الكتاب لأنظمة الإدارة والحكم وندرة التأليف فيها .

والكتاب من أصغر الكتب حجماً وأكبرها وفاءً بأكبر الموضوعات في أوضح عبارة أو إشارة . يقول في أول فصل من الكتاب :

(دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال : السلام عليك أيها الأمير . فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأمير . . . قال معاوية دعوا أبا مسلم ؛ فإنه أعلم بما يقول . قال أبو مسلم : « إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . . . »)

ويختم بفصلين في المشورة ووجوب اتخاذ الإمارة .

يقول عن المشورة : قال الله تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) وقد أثني على المؤمنين بذلك في قوله : (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) .

(١) وفي هذا الكتاب حقّه وبين قيمته في الإصلاح السياسي والاجتماعي الإسلامي المستشرق المعاصر لا وست في كتابه رسالة في النظريات الاجتماعية والسياسية لتقي الدين بن تيمية طبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٥ .

ويقول ابن تيمية . في الإمارة (وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء ، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس) .

وفي وجوب اتخاذها يقول : (روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم . ويقال : (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) والتجربة تبين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : (الدين النصيحة . . . الدين النصيحة . . . الدين النصيحة ، قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . . .

ويختتم بقوله : (فعلى كل واحد الاجتهاد في إثارة القرآن والحديث . . . مستعيناً بالله في ذلك ثم الدنيا تجدم الدين كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه (يا ابن آدم ، أنت محتاج لنصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة فرب نصيبك من الدنيا فانتظمتها انتظاماً ، وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فأتك نصيبك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر) . ودليل ذلك ما رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : (من أصبح والآخره أكبر همه جمع له شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت به من الدنيا إلا ما كتب له . . .) .

ابن قيم الجوزية (٧٥١)

تحمل المدرسة الجوزية لقب أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧) . بناها ابنه محيي الدين لتدريس مذهب الإمام أحمد ، فخلدت المذهب وصاحبه ومنشئها ومن تحمل اسمه . وخلد الجميع (ابن القيم) ؛ إذ كان أبوه (قيم المدرسة الجوزية) فلقبه المسلمون « ابن قيم الجوزية » أو « ابن القيم » وكانت عبادته وزهادته جواز المرور لمتابعة منهج أستاذه ابن تيمية .

وكما يقول الحافظ بن حجر (٨٥٢) : (هو الذى هذب كتبه (كتب ابن تيمية) ، ونشر علمه ، وكان يتتصر له فى أغلب أقواله) .

يقول عنه ابن رجب : (واقن فى علوم الإسلام ، فكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط لا يلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله والعربية وله فيها اليد الطولى ، ويعلم الكلام ونظير ذلك ، وعالمًا يعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم له فى كل هذه الفنون اليد الطولى) .

بهذه القدم الراسخة فى العلم والورع يتصدى ابن القيم لشرح المنهج السلفى فى العقيدة فهو : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وكل ما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون شيئاً من ذلك . وإن الساعة آتية لا ريب فيها . وإن الله يبعث من فى القبور . وإن الجنة والنار موجودتان الآن . وباقيتان لا تغنيان . وإن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وإن له يدين بلا كيف كما قال (لما خلقت بيدي) وقال (يداه مبسوطتان) وإن له عينين بلا كيف . كما قال (تجرى بأعيننا) وإن له وجهاً كما قال (وجه ربك) إلى غير ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة . كما أثبت السلف لله العلم والسمع والبصر والإرادة والقوة وغيرها كما قال تعالى : (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وأن الخير والشر لا يكونان إلا بمشيئة الله تعالى ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ومن زعم أن الله شاء لعباده الدين عصوه الخير والطاعة ، وأنهم شاءوا الشر والمعصية ، وعملوا على مشيئتهم - فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئته تعالى .

ولا يشهد السلف على أهل القبلة أن أحداً فى النار لذنب عمله إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يقرون لأحد أنه فى الجنة إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يكفرون أحداً بذنب ولا يخرجونه من الإسلام إلا أن يكون فى ذلك حديث . ويفهمون صفات الله تعالى من غير تأويل أو صرف لها عن ظاهرها ولو لم يفهموا معناها لسألوا الرسول عنها كما كانوا يسألونه) .

ويقول : (والعصمة النافعة فى هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير كيف ولا تمثيل . بل تثبت له الأسماء والصفات وتنفى عنه مشابهة المخلوق ، فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل ، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو تعطيل ، ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو تمثيل) .

فإن الله تعالى يقول : (ليس كمثله شئ) ، ويقول : (هل تعلم له سمياً) وابن عباس يفسر السمى بأنه المثل فهاتان آيتان مخكمتان تقطعان فى عدم المماثلة والتشبيه والتجسيم وتغنيان العقل عن أى تأويل .

ويقول في أعلام الموقعين : (وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل ، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل)^(١) . ويرى ابن القيم أن أسماء الله هي صفاته ؛ لأنها تدل على معنى زائد على الذات . فهو تعالى عليم سميع بصير قادر : أى له هذه الصفات . ويذكرنا (أن الناس تنازعوا في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفق الصحابة على كثرتهم والتابعون على ضخامة عداد علمائهم على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها . وإثبات حقائقها . وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية بها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد) . وكتب ابن القيم الكثير في الزهد والتوكل وإخلاص العبادة لله ليقدم للناس مسلكاً يسيراً مسلك السلف ، ويواجه مقولات المتصوفين . ودافع عن الاجتهاد والقياس وحمل على التقليد وابتكر الكثير . وما تزال كتبه مراجع أساسية لكل مجتهد عصرى يفكر على أساس الكتاب والسنة .

* * *

ثم حمل أبو القاسم الشاطبي (٧٩٠) مصابيح الفقه الإسلامى في النصف الأخير من القرن . والفقيه رقيب العصر وطيبه . فكان لزاماً أن يلتقى الأضواء على آفاته ، فذم البدع التى أفسدت العقائد وخص منها إقامة الزوايا والأربطة للمتصوفة .

فالسلف لم يقيموا رباطاً إلا لمحاربة العدو ، ولم يتعبدوا في الزوايا ، بل عبدوا الله في كل مكان . ولم ينقطعوا عن العمل في الدنيا والآخرة ، ولم يؤثر عن زعماء المتصوفة شيء من ذلك لا الفضيل بن عياض ولا إبراهيم بن أدهم ولا الجنيد أو الخواص أو الحارث المحاسبى أو الشبلى ، وليست الأفكار والأدعية الماثورة التى « يجتمع عليها » البعض بعد الصلاة ، وصارت كالشعائر الدينية ، إلا بدع .

ولم تنقطع البدع بل كانت تتفاقم . واستحب البعض الإخلاء إليها ككل طقس يتجسد فيه معنى فيستغنى عنه بشكله . وتنشأ الشحناء بين المصدقين والمكذبين والجاهلين والمتعلمين . ثم يألف الناس الشذوذ . وللشذوذ عدوى كعدوى المرض .

وعندما يمسى الشذوذ كثرة يفرض الشذوذ نفسه ، وينصب اللوم شراكه ، ويهتبل النهارون والمنافقون فرص الجهالة والسذاجة والشهوة ، والتعصب والفهم الضيق واستعلاء الطواغيت على جماعة تعمى عن حقائق الدين ، وتنصرف عن الجد والدأب إلى الرضا بالنصيب الأدنى والانحناء أمام

(١) والفخر الرازى . . من زعماء المفسرين بالتأويل - غير الرمزي والباطنى - يقول في خواتيم حياته في كتاب أقسام اللذات : (اعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق والتعمق في الكشف عن أسرار هذه الحقائق رأيت أن الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن الكريم والفرقان العظيم وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام السموات والأرض على وجود رب العالمين ثم المبالغة في التعظيم من غير مبالغة في التفاصيل) .

الأقوياء . وبذر قرن الشيطان بين العلماء ، فيصيب عملهم أو خلائقهم أو طرائقهم فيشاكلون الدهماء . . . ومن ذلك شك الحشويون شيخ الإسلام الغز بن عبد السلام (٦٦٠) في القرن السابع وشكوا التاج السبكي (٧٧٠) في القرن الثامن وشكا ابن عطاء ابن تيمية .

ودارت كل الشكاوى على مدار هذه القرون البئسة حول صحة العقيدة أو زيفها حتى كان الشيخ علاء الدين العطار من علماء الأزهر وتلميذ محيي الدين النووي (٦٧٦) يسير متأبطاً وثيقة صادرة من القاضي تعلن صحة إيمانه مخافة أن يغتاله الخراصون بتهمة ! وعندما يكفر الجاهلون رجلاً صالحاً ففي مقابله آلاف أو ملايين من الضلال يعتبرونهم صالحين !

وذاث يوم في القرن التاسع وقع شخص في عبارة موهمة وأفتى العلماء بتكفيره لولا أن السلطان طلب إجماعهم لتوقيع العقوبة . فتفتتوا إلى جلال الدين المحلي فجاءوا بالرجل في الحديد وسأل الجلال : ما مستند التكفير؟ قال صالح البلقيني : قد أفتى أبي شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني (٨٠٥) في مثل هذا بالتكفير . قال الجلال - شارح المنهاج - تريد أن نقتل رجلاً مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك ! حلوا عنه الحديد .

وأخذ الرجل ومضى به إلى العافية !

أما السيوطي (٩١١) فعين قيماً لتكية سعيد السعداء ، فرأى فيها رجالاً فاكهين رافهين لا قضاة عجاذا زاهدين ، فهم بتطبيق شرط الواقف عليهم ، وهو الفقيه الحافظ الذي يزهو به القرن العاشر ، فألقوا به - وهو في كامل ثيابه - في الميضاة .

وكان طبيعياً أن يغزو الصليبيون أرض المسلمين في هذه القرون^(١) وأن تنداح موجات التتار في

(١) في سنة ٤٥٣ انتهر روجار النورماندى فرصة ضعف الفاطميين فاستولى على صقلية ، وفي سنة ٤٨٥ هـ - (١٠٩٢ م) دعا بطرس الناسك أهل أوربة جميعاً لاقتحام أرض الإسلام ، وانعقدت المجمع الكنسية (١١/١٨ / ١٠٩٥) وقامت الحرب الصليبية سنة ١٠٩٧ ولما دخلوا بيت المقدس قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين . ولما استردها صلاح الدين بانتصار حطين (٥٨٣) أعطى أهلها الأمان الذى أعطاه عمر أهلها عند فتحها سنة ١٥ ونصه يرفع العدالة العالمية في الإسلام موضع التطبيق :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من حلهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فن شاء منهم قعد . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥) .

أرض المسلمين إلى بغداد فدمشق^(١) وأن يبعث سلطانهم إلى القاهرة يقول لأهلها :
(فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم فإنها لا تحميكم فما لكم من سيوفنا
خلاص) .

ورد المصريون التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨ فحموا الغرب من الشرق كما ردوا الصليبيين في
المنصورة فحموا الشرق من الغرب . وفي سنة ٦٩٠ أجلت جيوشهم الصليبيين من أرض العرب إلى
الأبد ، وانقضى قرن ليغير تيمور لنك في إحدى صواعقه على بغداد سنة ٧٩٥ ، ثم يتغلب عليها
التركان ، ثم تحل محلهم الدولة الصفوية في بغداد سنة ٩٠٥ ، وفي سنة ٩٢٣ (١٥١٧) دخل
الأتراك العثمانيون مصر وأرخبى الظلام التركي سدوله على أرض العرب .

* * *

في هذا القرن العاشر وفيما بعده بلغت دعاوى الأولياء وكراماتهم منتهاها . وظهرت في مؤلفات
متعددة للشيخ عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣) - وكان عالماً يدرس الفقه الشافعي بالأزهر -
روايات يرفضها العلم ، ويستخرج منها السذج دلالات على الكرامات تمهد الذهن لرفع التكليف
عن بعض البشر واقتدارهم على الإتيان بالخوارق لفنائهم عن أنفسهم واتحادهم بالذات الإلهية أو
حلولها فيهم .

وعندما يعلم العلماء مالا يسيغه العقل أو يشكك في العقيدة يتزلون بعقول المتعلمين وغير المتعلمين
إلى ضروب شرك لا تحصر :

فعلى مقربة من الجامع الأزهر أطلق العامة اسم « شجرة الحنفي » على شجرة في فناء مسجد
الحنفي يطوف بها الناس لينالوا حظوظهم من الدنيا .

ومن التكايا واحدة فيها نعل قديمة يتداوى بشرب مائها العشاق ليظفروا بهوهم .
أما دراويشها فكثروا . تطول قلائسهم أو تقصر قدر ما يتصدرون أو يتأخرون في درجات

التكية |

(١) يتحدث ابن الأثير في تاريخه عن مفك التار وفتكهم فيقول :

(ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتنفى الدنيا ، إلا بأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى على من
اتبعه ويهلك من خالفه . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ! فإن قوما
خرجوا من أطراف الصين إلى حدود العراق في أقل من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله . ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة
وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء أو أشد . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه
وأكثره عمارة وأهلاً ، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة . ولم يبت أحد من البلاد التي يطرقونها إلا وهو خائف يتوقعهم
ويترقب وصولهم .

أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يجرمون شيئاً . فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها
لا يعرفون نكاحاً . بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد فإنه لا يعرف أباه) .

ومن بوابات القاهرة بوابة المتولى مدقت بها مسامير يعلق عليها أصحاب الأمانى شعرات أو خيوطاً تصل أمانيتهم وحاجاتهم بعالم الغيب .

وفى طنطا ودسوق وقنا ، وغيرها من أقاليم مصر - كما فى غير مصر - أضرحة توقد عليها السرج . وتشد إليها الرحال . وتقدم إليها النذور ، وتنحر الذبائح ، وتولم الولائم ، وتقام الحفلات للمغنين والمغنيات ، والمنشدين والمنشدات . ويسمى السامر « مولدا » للولى الميت يعيد فيه التاريخ فساد الموالد حول أضرحة القديسين من قبل الإسلام ، لكنه لا يعيد نهى العلماء والصلحاء عن ذلك الفساد ! (١) .

ومن الناس من يمسّه ميسس من الشيطان أو تكون به جنة ، فينسب إليه بعض العلم الحقى أو يكون خفيف الهامة فينسب إلى هممته أو هيئته مالا يعنيه !

ومن الناس من يخرجون الأرواح الشريرة بمؤاخاة أرواح أمثالها فى العالم الآخر أو العالم السفلى . ومن الناس سحرة يكيدون للآخرين ، ومنهم من يبطلون سحر الساحر وكيد الكائد ، ويمكنون من الإنجاب أو الإخصاب ، أو دفع الشر أو إيقاعه بغيرهم .

ومن الناس من نلتمس لديهم الشفاعة أحياء كانوا أم أمواتاً .

ومن الناس من يجيئون بالغائب إلى حضرة الطالب .

ومن الناس باعة الأحجار والأوراق والخرز والخرق البالية للرق والتخائم والأحجبة - والوصفات الكاذبة .

ومن الناس من لا تحرقهم النار فيحترقوها ولا تلدغهم الثعابين فيأكلوها - وكثر من يدعى رفع التكليف أو يظلمه غيره فيدعى ذلك له فإذا ارتكب فاحشة فلا بأس عليه ! أما الأذكار فأفانين : فيها الراقصون والصائمون والمنشدون والدفوف والمرتقة من الضلال أو الجهال .

- ومن الناس من يرزقون بغير سعى ، بل إن من الناس من يرزقون بغيرهم .

* * *

وعم الأمر الجلل وطم ، فتزل العلماء ونزلوا حتى أصبحوا عامة . تنفق فيهم هذه الدعاوى ويندر فيهم من يدركون أن الكرامة درجة فضل فى العبادة والسلوك وما عدا ذلك غير إسلامى . وعندما يفسد العلم والمعلمون تصبح المفسدة هى القاعدة ، ويتسع الخرق على الراقع اتساع الفرجة بين الحق والضللال ، وتنبت النابتة فى أرض سبخة لا تتغيا غير أن ترتزق ، فتفوق فى ميلها إلى الدنيا عن الدين ما قاله ابن الجوزى من قرون :

(إن المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون عن أموالهم زهداً فيها فيقصدون الخير وإن غلطوا فى

الفعل ، أما المتأخرون منهم فقد مالوا إلى الدنيا . وقد دخل أحد الصوفية على أمير فوعظه فوصله بصلة قبلها فقال الأمير : كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف) .

وازدادت الأجيال دحرجة نحو الحضيض وأصبح الأدعياء أولياء ، والمرتزة علماء يستعين السلطان بهم فيمكن لهم ليكنوا له ! ولكل أمة الحكومة التي تستحقها ، ووسائل العيش التي تستطعمها ، فلا عجب إذا قرأنا من الكلام عن ذلك العصر .

(كان التصوف حالاً فصار كاراً (حرفة) ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان اتباعاً للسلف فصار ابتغاءاً للعلف . وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعبداً فصار تكلفاً ، وكان تخلقاً فصار تملقاً ، وكان سقماً فصار لقماً ، وكان قناعة فصار فجاعة ، وكان تجريداً فصار ثريداً) .

قبس من النور

وفي القرن الثاني عشر أضاء التفكير العلمي بقبس فيه هدى ، فعاجله الجهال بالإطفاء : قص الجبرتي في عجائب الآثار في التراجم والأخبار قصصاً يوضح حقائق العصر في مصر من حوادث رمضان سنة ١١٢٣ = ١٧٤٤ : (أن واعظاً تركيا وفد من بلاد الروم (تركيا) إلى مصر جلس يعظ في جامع المؤيد (بالقرب من الأزهر) وكثر عليه الناس . فذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقييل أعتابهم ، وأن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه . وقد ذكر قول الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى) أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فقال : إنه لا يجوز ذلك ولا تطلع عليه الأنبياء فضلاً على الأولياء . وكان فيما قال : إنه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء كما لا يجوز بناء التكايا ويجب هدم ذلك جميعه) .

وألقت إليه الجماهير صغوها وتدخلت الدولة وطرده الوالى بعد أن أفتى بجزره اثنان من العلماء (١) .

(١) وتفصيل ذلك فيما رواه الجبرتي : (فقامت لهذا قيامة العلماء وأدعياء العلم قدسوا عليه من يشوش ويخفت صوته ، ولكن الواعظ مضى في طريقه وانتقل هو وأتباعه من القول إلى العمل ، وبدأ الصدام بأن خرج الواعظ وأتباعه بعد صلاة التراويح ، ووقفوا بالنبايت والأسلحة على (باب زويلة) فهرب الذين يقفون به . ثم قطعوا معلق من جوخ وأكروهم يقولون أين الأولياء ؟ وهنا أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم في قول هذا الواعظ . فكتب شيخان من شيوخ الأزهر هما الشيخ أحمد النفراوي والشيخ أحمد الخليلي ينقضان قول هذا الواعظ ويطلبان من الحاكم زجره . وأخذ بعض الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ في =

ويبده القارئ من هذا النبأ أمور :

الأول : أن الجماهير كانت أبصر بحقيقة التوحيد من الشيخين اللذين تفانى المسلمون إليهما فأفتيا بزجر مسلم يدافع عن التوحيد وهو أصل الإسلام . وأين من خطيئتهما ما أؤخذ عليه ابن البلقيني من نحو قرنين ! ليدلنا الجمع بين الخطأين على مقدار تتابع الانحدار .

الثاني : أن الوالى التركى كان حريصاً على مرضاة المفتين الجاهلين لجهالته أو فساد نيته ليسر للأتراك أمر السيطرة على الأمة .

الثالث : أن ذلك الوالى أنجى الواعظ الوافد من أرض الروم من عالمين رسميين مع أن هواه معها ضد الواعظ ؛ لأن الوالى كان تركياً مثله .

لكن السماء لا تترك الدين لولاة أميين أو علماء معممين . لقد قدرت للإسلام أن ينتصر وأن تتراءى بشائر النصر فى جزيرة العرب ، ليستهل عصر جديد بدعوة جديدة ، فى القرن ذاته ، على يد محمد بن عبد الوهاب .

* * *

وحقيق علينا فى ختام هذا الباب أن نستصحب بعض مسلمات هى :

١ - إن إسلام الوجه لله لا يكون إلا له وحده ؛ ولذلك كان النطق بالشهادة مدخله ، وكان شعار المسلم بعد الشهادة : « الله أكبر » لما فى الشهادة من إثبات العباداة لله ونفيها عن غيره ، وما فى الشعار من اعتزاز المسلم بقوة الخالق الكبرى لا الحكام ولا الأموال ولا الأقوياء ، ولا صوارف الحوادث ، ولا شياطين الوهم أو العجز أو سواها ، لتصيب المسلم بما لا يريد الله . ولأن الناس كلهم تحت سلطانه نظراء ، وأن الفضل للتقوى والعمل الصالح .

= مجلس وعظه فقال :) . . . أنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى ، واجتمع عليه من الناس قريب من ألف لسان بهم وسط القاهرة إلى أن دخل بهم بيت القاضى . قال القاضى : اصرفوا هذه الجموع ثم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتهما معها ، ولكن أحدا من الجموع لم ينصرف وقالوا له : ماتقول أنت فى هذه الفتوى ؟ فقال : هى باطلة . فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك فقال : إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى الغد فلما سمع الناس من ترجان القاضى هذا الكلام ضربوه واختفى القاضى ومعه حريمه . ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضى حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ وخطأ رأى الشيخين . . . وقصد الناس بعد ذلك يوماً مسجد المؤيد لسماع واعظهم ، فلم يجدوه ثم قال قائل منهم : إن القاضى منعه من الوعظ فقام رجل منهم فتبعه الجمع الفقير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى وقالوا له : أين شيخنا ؟ فقال لأحدى : فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان لتكلم الباشا فى هذا الأمر وتسأله أن يحضر أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا وتباحث معا : فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم ، فركب القاضى معهم مكرها ، فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفراوى والخلينى لمجادلة الواعظ ، ولكن أمر الباشا كان لتسكين الفتنة وصرف الناس ، فإنه بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا ما يريدون من أمر أصدر الباشا أمراً بإخراج الواعظ من مصر وإسكات هذه الفتنة .

ومن ثمة قوة المسلم وشجاعته وازدهار جماعته إذا أدركت معنى التوحيد ورفعت شعاره .
 ٢ - إن الإسلام دين علمي ، كتابه ثابت ونصوص سنته مسندة لا خرص فيها ولا تخمين :
 فإذا أصبح المسلمون ضحايا الباطنيات والخرافات خرجوا على قانونهم وحق العقاب عليهم .
 ٣ - إن المجتمع الإسلامي لم يتدهور إلى منحدر الخرافات إلا بعد قرنين أو نحوهما من إقفال باب الاجتهاد . والقرآن والسنة ينيان عن التقليد واتباع رأى إلا بدليله . وينفيان قداسة الأشياء والآراء والأشخاص (١) . وإذا جاز تقليد جاهل لعالم في أى تعامل لم يجز ذلك في أمور العقيدة فإنما يجب الإيمان بالتوحيد والرسالة عن فهم لا مجرد تقليد (لغير) فيها .

٤ - إن القرون الخمسة من الخامس الهجري حتى العاشر شهدت تقهقر المجتمع الإسلامي وازدهار الفكر الباطني وخرافات ليس لها ضابط ، في حين شهدت أوربة عصر الإحياء والإعداد للنهضة العلمية والصناعية وكشف العالم الجديد .

٥ - إن أمم الغرب في هذه الحقبة لم تأخذ من العالم الإسلامي إلا العلوم ، ولم تلتفت إلى أساطير المتصوفة .

ومن العلوم أخذت المنهج الإسلامي في التجربة والاستخلاص ، فخرجت على منهج الكنيسة الذي يُخضع الكشوف الفكرية والحرية العلمية لمقررات الكنيسة ونظرياتها ، فكان ما اطرحته أمم الغرب من أفكار باطنية للصوفية معادلاً لما اطرحته من أوامر كنسية فيها تعطيل للفكر والعلم .
 ٦ - إن المستشرقين مبشرون في ثياب علماء ، ومن ذلك دأبُ المحدثين منهم على الإذاعة بفرق المتصوفة الفلاسفة وإدبارهم عن الإذاعة بالفقه وأصوله . والفقه أعظم ممثل للإسلام وحضارته ، ففي حين أكثروا الكلام عن الجماعة التي يمثلها « ابن عربي » - لم يكن لأئمة الفقه وعظماء الفقهاء كبير أهمية لديهم ، مع أن الحضارة الغربية حضارة تسود القانون ، وأن هؤلاء الفقهاء في سماء ما طاولتها سماء .

إنما أراد هؤلاء المستشرقون أن يعرضوا وجه التصوف الفلسفي ، بما فيه من محاربة للعقل الإنساني ؛ ليعرضوا صورة مرفوضة مكذوبة على أنها صورة عظماء المفكرين في الإسلام ، وليطمسوا

(١) وتقديس الأشياء والأشخاص تراث كنسي : فالبابوات منذ القرن الثامن الميلادي في بيزنطة يعلنون أن (الأيقونة إنجيل العامي يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس) وفي آخر المجامع للسكونية (نيقية ٧٨٧) أعلنت الإمبراطورة إيرين تقديس الأيقونات .

ومن قبلها اعتبر (يوساب القيساري) قسطنطين منشئ القسطنطينية هو الحواري الثالث عشر .
 والفرس أسوأ : لقد كتب كسرى إلى هرقل لما غلب الروم (من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى عبده الفاجر عديم الإحساس . . . إنك تقول : إنك تثق في إهلك فلماذا إذن لم تخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية) .
 ووعد القرآن بنصر الروم فانتصروا في بضع سنين على «سيد الآلهة» .

أويبحسوا شأن الحقيقة التي أجمع عليها المعاصرون من علماء الجامعات والتي يعلنها برنارد لويس -
بين عشرات - حيث يقول عن المنهج العلمي المعاصر في العالم العلمي :
(إن أوربة في القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجاً لمعاصريها العرب ، فهم الوسيلة التي انتقل
بها إلى أوربة هذا التراث الثمين ، كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل
فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة . وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في
القضاء على العصور الوسطى والإيدان بعصر النهضة) .

الباب الثاني

الدعوة إلى التوحيد

(طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يترك ،
ويعملون بالسنة حين تطفأ) .

حديث شريف

إذا كانت الأرض الطيبة تنتج حاجة أهلها من الغذاء ، ويمتد عطاء الله فيها إلى أبعد من حدودها - فكذلك الأمة العظيمة تنتج حاجاتها من العظماء مصلحين أو ولاة أو علماء . ولما أحوج الفساد المسلمين إلى دليل يأخذ بيدهم في التيه الذي أركسوا فيه - كان محمد بن عبد الوهاب جواب السماء لتعيد الجزيرة العربية إلى سيرتها الأولى مصدراً للنور حيث ارتفعت قواعد البيت العتيق ، ونزلت آخرة الرسالات بلسان عربي على نبي عربي .

وما كان أعجب أرض نجد في جدوبتها ، وقبائل بني حنيفة وبني تميم في خشونتها ، منذ ظهر الإسلام ودارت فيها حروب الردة الضروس حتى استهلّت دعوة ابن عبد الوهاب ، لتبدد فيها مرة أخرى ظلمات شرك ران على القلوب ، وزلزل قواعد الجماعة ، ورحض مواهب العلماء ، وأثّس دعاة الإصلاح !

وفي اختيار السماء أرض نجد بذاتها منطلقاً للدعوة الإسلامية من جديد آية من الآيات ، كثيرة العبر والعظات :

ومن أهمها في هذا المقام ثبوت اقتدار الحنيفية السمحة على أن تقود أقدام السائرين على المحجة الواضحة ، وأن تحتشد في الصدع بالدعوة أجيال متلاحقة تصنع بها السماء انتصاره في حياته ، وتصقل سيوف الشجعان في سواعد صُدُقٍ في اللقاء صُبُرٍ في الشدائد ؛ لتردهر الشجرة ، وتنبت الحبة الواحدة مائة حبة في غير من واد من وديان النماء والارتقاء ، وأن يعيد التاريخ نفسه فيفتح « للمنهج السلفي » أن يهدي الناس للحق ويفتح أرض الله لعباده : بالفهم الصحيح للدين والجهاد الصادق في سبيله .

وظهور ابن عبد الوهاب وازدهار فكره في مجالسه وانتشاره فيما عداها ، وديمومة تطبيقه في

حياته نصف قرن أويزيد شيئاً من حريماً إلى العينة إلى الدرعية فأصقاع نجد ، ومنها إلى الأقطار المتنازحة الديار في جزيرة العرب - هي مواضع الفصل الأول من هذا الباب .
والفصل الثاني فصل في الأصول التي قامت عليها الدعوة وتبادر إلى العمل بفحواها أتباعها واستحبوا الموت في سبيلها ؛ لتكتب لأمتهم الحياة بإخلاص التوحيد من شوائب شرك عنيد زعزع العقيدة ، فصير الرجال أمساخاً يعبدون مالا يملك لهم النفع أو الضرر . فلما تحررت نفوسهم من الخرافات والانحرافات كانوا حقاً مسلمين ، فقدروا على أن يحملوا تبعاتهم وأن يحدثوا الإصلاح الذي تتنادى به الأمة في كل مكان .

وإذ كان الإمام إمام فقه في المقام الأول ، والفقه قوام الشريعة - فقد أوردنا في الفصل الثالث فرعين : أولهما عن (الاجتهاد) وهو أساس الدعوة وعرضنا نماذج من فقه الإمام في العبادات والمعاملات تتجلى فيها طريقة الإمام في بسط آرائه والدفاع عن الحرية القانونية في إنشاء العقود وأنواع الشروط ليكون الإنسان جديراً بالخلافة عن الخالق جل ثناؤه في الدنيا التي سخرها له ، ولتتضافر حرية السعي في الحياة مع عبادة الله وحده في فتح الأبواب للمسلم ، ليتخذ الدنيا طريقاً للآخرة ، فيعمر العالم بالعمل الصالح .

أما الفرع الآخر فخاص بالتأويل «الباطني» أو «الرمزي» المعطل للنصوص القطعية الورود والدلالة في العبادات والمعاملات ، وهي قوام الدين ، من يخرج عليها يتجاوز الإسلام إلى عالم الخيال ، ويعمل بتشريع من صنع الناس .

والباطنية هي العدو التقليدي للمنهج السلفي الذي رفع أعلامه عالية محمد بن عبد الوهاب .

الفصل الأول

الداعى إلى الله

(كل عبادة لا يتبعها أصحاب محمد فلا تعبدوها
فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً واتقوا الله يا معشر القراء
وتخذوا طريق من قبلكم) . حذيفة

نحن الآن فى نجد حيث انتشر المذهب الحنبلى بعد موت الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى فى سنة ٢٤١ . وبنو شيان منتشرون فى كل مكان بالخليج العربى من اليمامة (نجد) حتى البحرين . وفى النصف الأخير من القرن الثالث مكن للمذهب بالعراق تلاميذ الإمام وتلاميذهم ، وتقبلوا به فى بقاع الإسلام ، حتى بلغ الأندلس على يد بقى بن مخلد (٢٧٦) . وفى القرن الرابع مكن له أبو بكر الخلال (٣١١) بالعراق وأبو القاسم الخرقى (٣٣٤) بالشام . ودرج الأتباع على المنهج السلفى للإمام كأسلوب فكر وطريقة حياة . يقول فى منهجهم الذاتى والعلمى واحد من أعيانهم^(١) :

(هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجدد ، وقل عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تخرجاً من التأويل . غلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يوفقوا فى العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ، ولم أحفظ عليهم تشبيها ، والله أعلم أنى لا أعلم فى الإسلام طائفة محقة خالية من البدع سوى من سلك هذا الطريق) .

وفى القرن الخامس برز من حنابلة نجد عالمان من «بنى تميم» هما :
عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى (٤١٠) وعبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى (٤٨٨) .
وفى القرن العاشر تعاقب حنابلة مشهورون فى نجد . منهم أحمد بن يحيى بن عطوة التميمى (٩٤٨) = (١٤٤١) فى بلدة الجبيلة الخالدة بذكرى شهداء حروب الردة وتلمذ له شهاب الدين أحمد بن عبد الله .

(١) أبو الوفاء بن عقيل (٤٣٠ - ٥١٣)

كما ظهر فيهم شرف الدين أبو النجاء موسى ، وأحمد بن موسى ، وأحمد بن محمد بن مشرف ثم مرعى بن يوسف الحنبلي النجدي (١٠٣٣ - ١٦٢٣) (١) وعبد الله آل عبد الوهاب (١٠١٠ - ١٦٤٦) وقد ولي قضاء العيينة . فابنه عبد الوهاب (١٧١٢) .

وعاصر عبد الوهاب فقيه كبير من «آل مشرف» هو صديقه سليمان بن علي بن مشرف وقد صار أشهر الحنابلة في عصره حتى مات سنة ١٦٦٨ م عن مؤلفات معروفة منها كتاب (فقه الناسك في أحكام الناسك) .

وولي سليمان قضاء حريملا ثم العيينة ، وولد له ابن أسماه عبد الوهاب . وضرب عبد الوهاب بن سليمان في العلم بسهم ؛ وولي قضاء حريملا . وفي سنة ١١١٥ للهجرة ، ١٧٠٣ للميلاد ، ولد له ابن أسماه «محمد» . وآل مشرف بطن من بطون حنظلة بن مالك بن زيد مناة تميم . وتميم من أكبر القبائل العربية عدداً ، وأوسعها انتشاراً في إقليم نجد . وبهم تمتزج القبائل . ومنها «بنو حنيفة» . قالوا لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب !

وإلى نجد كان خلفاء بني أمية يبعثون أبناءهم ليحتفظوا بالفصحى ؛ إذ يُنجدون ، فلا تخالط ألسنتهم نظرية المدائن أو عجمة المهجاء ، ويعودوا من البادية عرباً خلص اللسان صحاح الأبدان . ومن نجد اشتهر شعراء العرب منذ الجاهلية : فلهم في أصحاب المعلقات أربعة من عشرة : زهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، وامرؤ القيس ، وعنترة . ومنهم في المائة الأولى من عُمر الإسلام - أشهر وأشعر شعرائها : الفرزدق وجريير والحطيئة والخنساء .

وبميلاد «محمد بن عبد الوهاب» في هذه البقعة من جزيرة العرب كُتبت لنجد وللذهب الحنبلي والعالم الإسلامي صفحات جديدة .

* * *

نشأ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التيمي في «العيينة» بوادي حنيفة - وهي قرية باليمامة غرب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الحالية - وتلمذ من حدائته الباكورة لأبيه ، وكان أبوه مثابة للوافدين من قريب وبعيد ، يطلبون التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد .

(١) وهو القائل :

إذ قلد الناس الأئمة إنني لقي مذهب الخبر ابن حنبل راغب
أقلد فتواه وأعشق قوله وللناس فيما يعشقون مذاهب

حفظ الصبي القرآن قبل العاشرة . وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف ، ثم انطلق في العلم ما وسعه ، فلما وقع على مؤلفات ابن تيمية ملكت عليه لبه .

وفي المتحف البريطاني في لندن بعض رسائل ابن تيمية نسخها محمد بن عبد الوهاب بخط يده ؛ مما يشير إلى أنه يستقصى فكره ، ويقتنى أثره بيده وعقله ، وسنراه فيما بعد يصنع صنيعه . وذات يوم قدمه أبوه ليؤم المصلين وهو في فتاء السن . بل إن الأب ليقول عن الابن ما يرويه حسين بن غنام - مؤرخ الأيام العظيمة بتكليف من محمد بن عبد الوهاب - « لقد استفدت من ولدي محمد فوائد شتى في الأحكام » .

ثم حج عالم العينة الجديد واعتمر ، فشهد من بدع الحجيج ومراسم تعظيم القبور والاستغاثة بالملوك ما حزنه ، وعرف أن فساد الفكر والفعل في أهل نجد ليس إلا بعض الفساد الذي يعرضه - مركزاً في الزمان والمكان - حجاج بيت الله الحرام من كل فج .

ثم اجتذبه جلال المكان وعلم علمائه ، فرجع إلى الحجاز يتلقى الفقه والحديث على يد الشيخ محمد حياة السندی (١١٦٥) ، ثم لزم عالماً من أهل نجد من آل سيف رؤساء بلدة الجمعة ، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف (١١٨٣) فتذاكر أحالة الأمة بعامة ، وحالة نجد بخاصة للإصلاح .

وتحدثا عن استعمال السلاح ، والشباب يغرى بالقوة ؛ فهي أعجل إلى الغرض ، وهي بعض الجهاد الذي سيستطرد إليه التلميذ فيما بعد ، أما الشيوخ فيؤثرون استعمال العلم ، فهو سلاحهم ومألف لهم ، وهو أنجح على المدى الطويل وأفلح في النهوض بمجموع الأمة . قال الشيخ يوماً لتلميذه :

تريد أن ترى ما أعددتنا من سلاح للمجموعة ؟

قال : بلى :

فقاده إلى قاعة كتبه وأظهره على ما فيها من مؤلفات ثم قال : هذا ما أعددتنا من سلاح ! وفي مجلس من المجالس سأل الطالب شيخه عن الأدعية والنداءات التي ينادى بها الناس ، إذ يذكرون الأولياء ويزورون - وكأنهم يحجون - الأضرحة فأجاب بقوله تعالى : (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

وسنرى بعد أن السؤال والجواب هما مهمة حياة ابن عبد الوهاب وطريقته ؛ فهذا فكر فتى أصيل نبت في بكور الشباب . تريده السنون قوة بالمعرفة ، والتجربة حكمة بالرأى النصيب ، وبهيم له الصدام طاقة الانفجار .

وبشرية الرسول الخالصة لا تأذن لأحد أن يرفع إلى مقام العبادة أحداً إلا الخالق جل شأنه ،

لكن (الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النملة السوداء في ظلمة الليل) . كما يقول عليه السلام .
فصل الطالب عن شيخه وقد اهتدى إلى طريقته في الإصلاح وهي تعليم دين الله الخالص ،
فرجع من الحجاز إلى نجد ؛ ليلبث قليلاً . ثم يرحل إلى بغداد ثم إلى البصرة . والبلدان من أسبق
مراكز العلم في الإسلام .

* * *

أقام العالم الناشئ في البصرة سنوات أربعاً درس فيها على عالمها الشيخ محمد المجموعى علوم
الحديث واللغة ، ورأى من تقديس الشيعة فيها للمزارات والأضرحة والأئمة ما أرى على ما شهدته
في الحجاز ، فاستنكره في مجالسه فكان يهت سائليه فيبلسون .
قال فيما بعد : (كان أناس من مشركي البصرة يأتون إلىّ بشبهات يلقونها علىّ ، فأقول وهم
قعود لدى : لا تصلح العبادة كلها إلا لله ؛ ويهت كل منهم فلا ينطق) .
وضاقت به صدور الناس ، واعتدوا عليه وعلى شيخه المجموعى . فخرج في حمارة القيظ من
البصرة إلى بلدة الزبير ، فبقي فيها أياماً يفكر في الذهاب إلى الشام ، ومنعته الضيقة . فرجع إلى
الأحساء ، فأقام زماناً في ضيافة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى ، ثم قفل راجعاً
إلى حريملا^(١) وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . وكان أبوه قد انتقل إليها من العينة لخلاف مع
أميرها .

وفي الحريملا استقر فكره على إعادة الناس إلى التوحيد ، والقضاء على مظاهر الشرك ، فوضع
كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) .

واختلفت آراؤه في مؤلفه عن آراء أبيه ، فصاحب أباه بالمعروف حتى توفي في سنة ١١٥٣ هـ .
عندئذ أعلن دعوته ونشر كتابه . وتناقلت آراءه بلدان العارض ، من حريملا إلى العينة

(١) ورد في بعض الكتب أن الشيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران ، ودرس التصوف ثم عاد عن طريق بيت
المقدس . وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح ، إذ لا يذكره علماء نجد ممن ألقوا في سيرة الشيخ . ولم يورد آل الشيخ فيما
يكتبونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب . وقد ناقشنا في هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية في الرياض مساء
يوم ١٤/١/١٩٧٦ فأنكر ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران ، وقرر أنه تلقى هذا عن أسياده ومنهم حفدة
الشيخ وبخاصة شيخه الذى تلقى العلم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية ، ولا أثر في فقهه أو كتبه لذلك .

وهو قد أعلن في بعض رسائله أنه لا يدعو إلى مذهب صوفى أو فلسفى .

إنما وردت هذه الشبهة في كتاب لمؤلف غير معروف (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب) ، ولم ترد في كتب من
عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام ، أو بعده بسنوات كابن بشر .

والشيخ قد ذكر رحلاته . وليس فيها رحلة إلى فارس أو خارج البلدان العربية . فعقل الشيخ وعلمه عربى خالص . ومن أصالته
العربية كان تلقى العقول له بالقبول .

فالدردعية . ذلك المحور الذى كان يتحرك فيه ليحرك جزيرة العرب حوله .
واستنسخ بعض كتابه ، فذاع بين المتفقهة من أهل نجد ، وظهر تأثيره فى كيد الكائدين له ،
فحرضوا بعض العبيد ليقتلوه ، فكمنوا له فى جوف الليل ليتسوروا داره لولا أن مربيهم بعض السيارة
من البدو ، فانفض الكمين ونجا الشيخ .
ولم يكن صدفة أن تسوق السماء هؤلاء ، وإنما سهرت عين السماء على حياة رجل أعدته
ليحدث الإصلاح المنتظر .

* * *

هجر الشيخ حريملا إلى العينة كمثل ما هجر البصرة - فالعينة مألوف له ، والهجرة سنة
الرسول - والشيخ عليم بتاريخ الجهل فى بلدان نجد . لقد قتل جهال بلدة الجناح فى ذات يوم
علماءها كلهم !
وسيرى قبل أن يموت بعشر سنين بلدة الخبراء تقتل عالمها (منصور أبا الخيل) وأخاه وهما فى
طريقهما للمسجد ليوم المصلين منهم .
وفى العينة . أصهر إلى أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) ثم صار الأمير من
أتباعه ، وعلا نجم الشيخ بعد إذ جاهر الأمير بدعوته وازداد أتباعه ، وكان قد بلغ الأربعين من
عمره ، والسلطة معه .
وتأييد السلطة للمذاهب عظيم الأثر فى انتشارها محلية كانت أم عالمية ، علمية كانت أم
اجتماعية :

فالأفكار إذا أيدتها السلطة تأخذ سبيلها إلى الناس فى بسر وقصير أجل .
وإذا عارضتها فقد تفسد عليها أمرها إذا كانت غير قادرة على البقاء ، لكنها إذا عارضت الفكر
الصحيح هيأت له الأسباب : فإما أتاحت له الانتشار الذى يشبه الانفجار ، وإما أخرته زمانا أو
أخسرت معركة ، لكنه لا يموت .

ولقد كان ذلك دأب الإسلام من يوم ظهر : قاومته مكة فانتشر . وعملت المدينة فى
كلاءته - إذ صار دولة - فبلغ حيث أراد الله فى مهاب الرياح الأربعة . ولما عوقت الدولة - يجهل
أولى الأمر - فكر ابن تيمية ، حبس ومعه تلميذه ابن القيم ، لكن الفكر ملك أفئدة العلماء فى
انتظار ابن عبد الوهاب ، ليفجر يناييعه ، ويستخدم السلطان فى نشره .
والخرافات بضاعة مزجاة فى كل مكان ، وبنجد خاصة ، لقلة العلماء والمتعلمين وفساد آراء
الكثيرين :

فهذا « فحل النخل » فى بلدة منفوحة يشد إليه العوانس رحالهن فيدعوته مبتهلات : (يا فحل

ارزقني زوجا قبل الحول .

وهذه شجرة الذيب تؤمها النساء ، ويعلقن عليها خرقة بالية لعل العوانس منهن يرزقن الأزواج والعواقر يرزقن الأولاد والوالدات يبقى هن ذكورهن .

وهذا قبر زيد بن الخطاب في « الجبيلة »^(١) يحج إليه الناس ملتجئين تفريج كربهم . وهذا غار (بنت الأمير) في أسفل (الدرعية) يهدى إليه الخبز واللحم .

وهذا رجل في « الخرج » اسمه (تاج) يقدمون النذور له في انتظار نفعه واتقاء ضره . حتى الفلوات كانت تقدم فيها القرابين إلى الشياطين لترضى ! وصاحب النذر يذبح ذبيحة ويلطخ جسمه بدمه ليقبل نذره .

والمدين يذرف الدمع عند قبر الولي ليعينه صاحب القبر على سداد دينه . والراعى يضع قلائد في أعناق غنمه لتعيش . والتاجر يضع ظلف الحيوان على باب متجره . والناس يحملون الرقى والتأائم والأحجبة والخرز ، والنساء يلطمن الخدود وراء الجنازات ، ويولولن كأنهن الشياطين الفزعة .

وهناك أولياء أحياء وقبور موتى يقدسها ويقدهم الناس . وفي كل مكان أصحاب بدع وتجارات بها كالتى أسلفنا في غير موضع .

استفتح الشيخ جهاده ببيان منهاجه فقال : إنه لا يدعو إلى طريقة جديدة وإنما يحى الدين ، ويدافع عن السنة ويبذع الخارجين عليها ، ويحتد رأيه ، ولا يقلد أحدا .

وإذا وجد في غير المذهب الحنبلى ما هو أصلح للناس - فهو يذهب إليه باجتهاده : قال في إحدى رسائله : (إني لم آت بجهالة ، بل أقولها والله الحمد : إن ربي هداني إلى الصراط المستقيم ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، ولست والله أَدْعُو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أَدْعُو الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم) .

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له (على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل ، كما تباع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر) . فالشيخ يحتاط للدين من فلتات الأمراء وانحرافاتهم . ويرفع شأن الدعوة على الولاء للحكام لتكون كلمة الله هي العليا . وتستلک الدعوة هذه السبيل على الدوام ، فنسمع قول ابنه عبد الله إذ حمل رسالة أبيه بعد

(١) الجبيلة قرية دارت فيها سنة ١٣ المعركة الكبيرة بين المسلمين والمرتدين من أهل الإمامة ، واستشهد فيها عدد من الصحابة ودفنوا في ثراها ، وقيل : بنيت قبة على قبر زيد بن الخطاب ، فكان العامة يعظمونها .

وفاته في إحدى مناقشات عبد الله لأهل مكة سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ :
 (مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقنا طريق السلف) .
 فلا جديد في المذهب أو الطريقة ، وإنما الجديد في العزم والتصميم وفي اتخاذ الجهاد وسيلة له
 دون الاكتفاء باستنكار المنكر بالقلب أو بالكلام .

وأطلق أتباع الشيخ على أنفسهم (الحنابلة) أو (السلفيين) أو (الموحدين) .
 وأطلق خصومه على دعوته وصف الوهابية على اعتبار أنها بدعة . وتمادى الأتراك في
 الأضاليل ، وقالوا عن أصحابه : إنهم (الخوارج) أو (الروافض) والطائفتان نقيضان للدعوة .
 وهما فيما بينهما خصمان لدودان ، فإنما خرج الخوارج على علي وشيعته والأمة التي بايعت له ،
 والشيخ يدعو دعوة الأمة وأهل السنة ، ولا يذهب مذاهب الشيعة .

وفي أوائل القرن الهجري الحالى كتب مؤلف من أصل تركى هو إسماعيل سرهنك باشا يقول :
 إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (.) أتى بعبارات مزورة ولبس بها على العوام حتى
 يتبعوه ، وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد . وألف العلماء رسائل في
 الرد عليه ، حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه) .

ولا ينقض الفكر إلا فكر أعلى منه حجة . ولو كانت مخالفة الأخ لأخيه حجة لحججنا المؤلف
 بكتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) حيث تقرأ قول ابن بشر : (كان للشيخ محمد أخ هو سليمان
 ابن عبد الوهاب كان مناوئاً لأخيه ، ألف رسالة يعترض فيها على دعوته اسمها (الصواعق
 الإلهية في الرد على الوهابية) ، وفي سنة ١١٩٠ قدم الدرعية ثاباً ، وبقي فيها حتى وفاة أخيه
 الإمام) .

ولا على الإمام لو خالفه واحد ، فلقد خالفه مالا عدد له ممن جروا وراء الشهوة أو السلطة أو
 غلبت عليهم الغفلة .

وأكثر الذين يخالفون الشيخ ممن لهم وزن لا يخرجونه على الحق . بل يختلفون في التقدير
 فلا يوافقون على تكفير الرجال من جراء ما يقارفونه عن جهالة ويبدعون البدع ذاتها ومن قارفوها .
 ويرونهم يعملون أعمال الكافرين عن غير فهم أو عن تقليد . والتقليد بذاته إحدى الكبر ، إذ
 لا يقبل تقليد في العبادات ، لأن الإيمان لا يحتمل التقليد ، بل يجب له الإدراك الذاتى .

* * *

والمعنى الأساسى للشهادة أن الأمر كله لله سبحانه . وليس في الوجود ما يعظمه الناس سواه وهو
 القائل جل جلاله : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
 ولا تشرك به شيئاً . ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله) ولكن الناس يلغون ذواتهم

وكراماتهم ويمجدون الملوك والأمراء والأقوياء والقوى المجهولة بالفعل أو بالفكر ، ويحجون إلى مقابر الأولياء ، ويقدمون لها النذور ، ويذبحون الذبائح ، ويقيمون القباب الشاحنة للموتى ، ويشدون الرحال إلى القبور في مظاهرات كأنها أداء الشعائر ! ويطوفون بمقابرهم طواف الطقوس التي يمجدوها اليهود والنصارى . بل إن من الناس من يحلفون بالله ، فيكذبون ، فإذا حلفوا بالأولياء لم يحلفوا إلا صادقين !

ومن الردة عن الدين ما هو فعليّ ، ومنها ما هو رسمي : ومن الفعلى أن يقارف الناس أعمال الكفار أو يعطلوا حدود الله وإن كانوا ينطقون بالشهادة ، أما الكفر الرسمي فهو المجاهرة بالإلحاد الصراح . وقل أن يقع .

والفرق بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام أنهم لما وحدوا الله واتحدوا على دينه خلصت عقيدتهم وسمت نفوسهم وجاهدوا للدين فسادوا العالم في سنين بعد أن كانوا مسودين من شمال ويمين ، من الروم والفرس !

والفرق بين الأجيال الثلاثة المفضلة (جيل الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين) وبين ما أعقبها من أجيال يظهر جلياً في ظهور الإسلام وازدهاره في القرون الأولى ، في حين كانت القرون الأخرى قرون انكماش في الفكر وحرمان من الابتكار وازدياد للتخلف ، كلما تتابع عصر بعد عصر وبأقدار متناسبة مع ظهور البدع .

وطلب الخير من غير الله تعويل على قوى مجهولة ومضللة وإهدار لإنسانية الناس وتعطيل لسعيهم وتخريب لمراقب الدنيا !

وحذر البطش من السلاطين والشياطين والمجهولين وغضب الموتى - يورث الجبن والقلق والوهم فتسل الأنفس وتصاب قرائح الناس بالشلل .

لذلك كان الإسلام حرباً على الأصنام أيا كانت : دمي أو أشياء أو أشخاصاً أو أفكاراً - تحول دون توحيد الواحد القهار .

كان للعرب في الجاهلية شجرة (ذات أنواط) يعلقون عليها سلاحهم ، فنهاهم عنها النبي عليه الصلاة والسلام .

وتبع عمر هدى النبي في شأن الشجرة التي بايع تحتها المسلمون (بيعة الرضوان) ، فأمر بها فقطعت ، لأنه عرف أن العرب يحنون إليها ، مجرد الحنين .

ونهى النبي عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد قال : (إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) فانتهى الناس زماناً ثم عادوا .

ولما نهى ابن تيمية عن هذه البدع وأمثالها وعذب وسجن ازداد فكره ذيوعا في الأمة ، لأنه ثبت ولم يتراجع . ولما مات في سجنه زاد علوا في ضمير الأمة وتأثيرا في فكرها : فمحمد بن عبد الوهاب يحىء على موعد مع الزمن . ولما ساقى السماء إليه تأييدا من أمير العيينة كان الله يزعم بالسلطان إذا عمل بالقرآن .

وشق الشيخ طريق ابن تيمية من جديد دون أن يقف عند النصيح أو التدريس - أن قد واتاه الزمان ليترقى من تدريس الفقه إلى تطبيقه في الأمة والدولة ، وهى فرصة لم يتحها الزمان لابن تيمية .

- ١ - هدم قبورا كان يستغاث بأصحابها ، وفي طليعتها قبة (زيد بن الخطاب) في الجبيلة .
- ٢ - قطع الشجرات التى كان الضلال ينسبون إليها الكرامات . فلم تعد الشجرة الملعونة (الذيب) ترزق العوانس رجالا أو العواقر بنين .
- ٣ - وجلس مجلس التدريس المنظم لمنهج متكامل يحمل مسئولية تنفيذه حاكم يقدر على تطبيقه في جماعة تتبادر به إلى نصرة دينها وصلاح دنياها ، فيسر الإصلاح في كل وجه .
- ٤ - وبعث رسالاته للعلماء في سائر أرجاء الإسلام .

٥ - وأقام الحدود : ففي ذات يوم جىء بامرأة تزنى متلبسة . وشهد عليها الشهود وأقرت ، وثبت أنها صحيحة العقل ، وكانت تمت إلى أمير الأحساء بنسب ، فحسبت أنه سيعصمها من الرجم ، لكن الشيخ أمر بحدّها ، فرجمت . وكان أمير العيينة أول من نفذوا الحد فيها . وقامت قيامة أمير الأحساء سليمان بن محمد بن عزيز . وبصبص إليه الأدعياء من العلماء بالأذنان . قال قائل منهم : إن حد الرجم لا يوقع إلا بعد استئذان ولي الأمر ، واحتج الشيخ عليهم بصحيح الفقه أن من تغلب على بلد أو بلدان كان له حكم الإمام في جميع الأشياء ، والناس من قبل الإمام أحمد حتى أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يجتمعوا على إمام واحد . وطلب أمير الأحساء إخراجه من العيينة مستندا إلى فتيا هؤلاء العلماء ، وكتب إلى أمير العيينة يتهدده بأنه سيمنع إرسال حقوق الأمير لديه ، على نخل تحت يديه ، وبأنه سيمنع خراجا كان له في الأحساء مقداره اثنا عشر ألف دينار .

وأبلغ أمير العيينة الشيخ بما جاء من وعيد . وفي رواية أخرى أن أمير الأحساء كتب إلى أمير العيينة : (اقتله فإن لم تقتله قطعنا - خراجك) .

وكان قلب الأمير أضعف من أن يصبر في الشدة ، ومن أن يجاهد في الله ، فاكتفى بأن يطلب إلى الشيخ الخروج عن دياره .

قال الشيخ : إن الذي أدعوا إليه هو دين الله ، وإن صبرت واستقمت وقبلت هذا الخير فأبشر بأن الله سينصرك ويحميك من هذا البدوى وغيره ، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته . .
قال الأمير : إنا لا نستطيع محاربته ولا صبر لنا على مخالفته .
هكذا كان فزع أمير العيينة من أمير الأحساء أكبر من خشية الله أو فهمه لمصلحته ، فخرج الشيخ من العيينة إلى مهاجرة الثاني في الدرعية حيث أراد الله أن يبلغ أوجه .

إلى الدرعية

خرج الشيخ على قدميه سنة ١١٥٨ لم يعطه أمير العيينة راحلة ، وسار طول النهار راجلا إلى الدرعية حتى دخلها بليل . فقصده واحدا من أتباعه ، وخاف الرجل أمير الدرعية (محمد بن سعود) فأنزل الشيخ على قلبه الطمأنينة .

وكان من أتباعه بالدرعية أخوان للأمير همامشارى وثنيان ابنا سعود (١)
لجأ مشارى وثنيان إلى زوج الأمير « فحدثاها حديث الشيخ وما يدعوا إليه ، فقالت للأمير :
(إن هذا الرجل ساقه الله إليك ، وهذا غنيمة فاغتنم ما خصك الله به) ، وقال قائل من الأخوين : (سر إليه بنفسك وأظهر تعظيمه - يسلم من أذى الناس) . فسار إليه .

قال له الأمير إذ لقيه : (أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة)
قال الشيخ : (وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهي كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد . وهي كلمة التوحيد . وأول ما دعا إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم)
قال الأمير : (يا شيخ ، إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه ، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به ، الجهاد لمن خالف التوحيد . ولكن أريد أن أشرط عليك اثنتين :
الأولى : نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا .

والأخرى : أن لى على الدرعية قانونا (فريضة) آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئا) .

(١) آل سعود من عشيرة عترة ، ومن قبائل ربيعة من حفدة بكر بن وائل ولربيعة فروعها في نجد والعراق والشام وكان جدهم مانع بن المسب المريدى يقطن بلدة القطيف وتربطه لحمة نسب بابن دريع صاحب حجر الإمامة والجزعة المعروفين قرب الرياض .
فقصده إلى ابن دريع سنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م فأقطعه قطعة استقر بها على مقربة من الدرعية ، فاستعمرها وتناسل فيها حفدته وزادوا رقعتها ، وجعلوا الدرعية عاصمة لها .

قال الشيخ : (أيها الأمير) ، أما الأولى فابسط يدك أيايئك : الدم الدم والهدم الهدم ، وأما الأخرى فلعل الله أن يفتح لك الفتوح فيعوضك الله عن الغنائم ما هو خير منها) .
 وبسط الأمير يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
 ودخل الشيخ المدينة واستقر عند الأمير .

ولئن كان محمد بن عبد الوهاب هو الذي يفرض على محمد بن سعود شروطه بعدم اقتضاء الضريبة ، إن الملاحظة الأساس التي يتمثل فيها طابع الدعوة منذ برزت إلى الوجود - هي العمل بكل سنة الرسول ، لذلك ترى المحمدين (ابن سعود وابن عبد الوهاب) يستعملان في البيعة صيغة الرسول فيستحضران ما صنعه الرسول وأنصاره والمهاجرون ليصنعاها من جديد ، وأن البيعة كانت على الجهاد ، فلم تعد المرحلة المقبلة مرحلة هداية مجردة أو إرشاد ، فلقد تطورت طريقة الشيخ بعد نجاحه في العينة وفشل أميرها وجبته ، وأمسى لزاماً أن تتغير الطريقة لتصبح الدم الدم والهدم الهدم .

ولئن لوحظ أن السلطان رجا الإمام ليبقى له دخله المفروض على الناس لينفق منه على دولته - إن الإمام سما بالدولة وحمى الناس ، فألغى الضريبة على الناس ودعا للأمير بالنصر الذي يعوضه ما فاته . ونصر الله أكبر ، وعوضه أكثر ، وكل أولئك كان ، فلقد صدق المحمدان ، والله مع الصادقين .

* * *

ذاعت أنباء هجرة الشيخ من العينة إلى الدرعية فأدت أعظم الخدمات للدعوة بنشر تعاليمها وأخبار ما حققته في العينة ، وهلع أميرها وبطش أمير الأحساء . وتعاضم الرجاء في الدرعية ومن فيها . والفكر يخدمه الأصدقاء والأعداء على السواء .
 وتوالت وفود نجد وما جاورها يعتنقون الدعوة ، ويعودون إلى بلدانهم مبشرين ومنذرين ومعلمين .

وطالت سنوات التدريس ، فصارت بشرات الوفود من كثرتها وتلاحقها طينياً في كل سمع ، وحديثاً في كل مجتمع !

ومنهاج الشيخ في الدرس - كمنهاجه في الحياة قاصد صريح وكمنهاجه في التأليف - لا يزخرف القول ولا يرقش الحجج ، بل يجيء بها من مصادرها : (القرآن والسنة وعمل السلف) . وهو عري يفاقه العرب بآيات كتاب لسانه عري وسنن نبي من العرب .
 وهو القادح من ميادين التجارب . ونضو العبادة الذي هزل التقشف قوامه . ناصح الجيب نقي

القلب محبب إلى الناس . يحمل هموم تبعاته . لا يهيش أحد في مجلسه ولا يُثَلِّب غائب . وهو فياض السخاء ممسك بالزمام . لا يفتات الأمير عليه . وإنما ينطلق في خدمة الدعوة من غزاة إلى غزاة . إن مهاجماً وإن مدافعاً . ويطبق أحكام الإسلام ويلزم كل قبيلة أن تتبع قانون المنتصر وما هو إلا عبادة الله وحده والزراية بالتماثيل والأصنام والخرافات الفعلية والفكرية ليعيد إلى القوم كرامة المسلم .

وأشرفت على جزيرة العرب أيام عظيمة كأنها من جلال صنيعها وبهاثة تقدم العذر للتاريخ عن سابقة قبائل نجد أيام ردة العرب .

بل جاء عثمان بن معمر يسعى على استحياء ، ويلتمس أن يرجع الشيخ إلى العينة ، فلم يتقبض عنه ولكنه وعظه ، فهو قد بايع على ألا يترك ابن سعود وعلى أن يكتب الله لها النصر . وإنهما لمنتصران .

وفي سنة ١١٦٣ كان الشيخ في قمة السلطة ، وقتل عثمان بن معمر في العينة ، فقصد الشيخ إليها . وأمر عليها ابنه مشارى بن عثمان ، وبعد عشر سنين عزل مشارى لفساده . وهدم قصر آل معمر ، وهم أخوال آل سعود .

ولما انتشرت الدعوة في بلدان نجد اشتد عليها الأمراء الذين يترك أتباعهم أقاليهم إلى الدرعية ، إذ أصبحت دار هجرة يؤمها الناس . أو يتجهون تلقاءها بقلوبهم ، ويصدر منها المجاهدون والدعاة والآراء إلى غير مكان . وتنشأ فيها الأجيال على العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله ، ومحبة الجهاد في سبيله ، والزهد في زخرف الحياة ومتاعها الكاذب ، والسعى لكل ما هو حق ومصلحة يأذن بها الشرع ، لا رفث ولا فسوق ولا خديعة ، بل مجتمع سلفي نموذجي يتواصى بالخيرات ويتضامن في المكاره . والشمل جميع والمودة سابعة والأخلاق رغبة .

والجهاد العسكري يصهر معادن الرجال ، فينتج خبث الأنكاس والأرجاس ويبقى الفضائل . والقوم يتوافدون إلى الميادين أو منها فرحين مستبشرين ، تشد أزهرهم أخلاق النصر التي تعودوها . وأول قانون الإسلام أنه يبلغ بمجتمعاته غاية الطهر ونهاية القوة لإخلاص التوحيد وانتصار الناس على شهواتهم وغفلاتهم ، يوم يصدقون ما عاهدوا الله عليه ، فتصير الدولة لهم ويسبقهم الفرع منهم إلى قلوب أعدائهم . وفرحون بنصر الله لهم والفتح القريب عليهم .

وملاك الأمر في الإسلام : عبادات تقف المخلوق بين يدي خالقه صباح مساء لتسمو به ، وقربات يرتفع بها درجات إلى رضوانه جل شأنه ، وحدود زاجرة تمنع من الإجرام من لم يجرم - وهم سائر الناس - وتعزيرات كفيلة بالجزاء على الخطيئة أيا كانت ، ومعاملات قوامها العمل للحياة ، يستخدم الناس فيها المال ولا يستخدمهم ، فلا يكتزونونه أو يحبسونه ولا يأكلونه

بالباطل أو بالربا أو بالغرر ، ونظام اجتماعي يحمل « إيجابية » الرجل فريضة الإنفاق على الأسرة ويحمل وظيفة المرأة بالتصون . ويحول الزوجين أسباب حسن التبعل .
 فالأسرة فيه - لا الفرد - نواة المجتمع ، وبهذا ينهض المجتمع على أقدام لا على قدم واحدة ويكاد الجار يشرك الجار من تواصله ، والخدام سيد القوم . والأمير أجير عند الرعية والرعية مؤدية له ما يؤديه الخالقه .

وفي كل ذرة من ذرات هذا النظام تجرى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرى الدم في الجسم . فتجعل التواصل اليومي والتكافل الاجتماعي يجعل المنظم الداخلي لنشاط الفرد وتعاون الجماعة ، وللعمل اليومي لولى الأمر ، فيعيد هذا المنظم ميزان الفرد والجماعة والدولة إلى الاعتدال في أول بادرة جديرة بالتقويم والتسديد .

وفي ذلك كله تستعمل الحنيفية السمحة الفطرة البشرية وتشجعها كمثل استعمال الترياق المنبعث من الغريزة يفعل فيها ويفعل بها ، فيصلحها وبصلح بها ، فالشريعة لا تتغيا إصلاح الناس بالقوة القاهرة للحرية ، أو بالقسوة التي تذبل بها الطبيعة البشرية ، أو بالقوالب المصبوبة التي تقمع الشخصية الإنسانية ، ولا تتوسل إلى أنفس الناس بطريقة مصنوعة قد يخرج المكلفون عن إطارها ، بل عمادها السليقة المطبوعة على الخير ، لتعود إلى الأصل إذا انحرفت كلما هديت إليه ، وهي أهدي وأقوى وأقصد بعناصرها الذاتية التي تزين الإيمان وتحبه ، وتكره الكفر والفسوق والعصيان ، وتنفر من الظلم وتغذ الخطى للتقدم صنع الله الذي خلق هذه الأنفس ، وشرع لها أسباب صلاحها ووسائله .

ووطأ الأكناف في نجد للطهارة والقوة اللتين تتناجيان فتحدث كل منهما الأخرى أن أقاليمها كانت مذ خلقها الله بمنجاة من التطرية المجلوبة من الحواضر، أو التخليط الشعوى الذى أعجل الفرس والترك والأوربيين إلى أقطار المسلمين . فاستعصمت فيها الأصالة العربية ثم نمت نماءها الطبيعي ، فأصبحت أسمع لصوت الدعوة وأقدر على أن تذيب بها فى الآفاق البعيدة وأن تبقى فكرها الوضاء ينشر الأضواء فى القرون التالية .

وموقع الدرعية فى صميم نجد يهب لها القدرة على تحقيق أغراض الدعوة وأسباب الانتصار ، إذ كانت على مبعده خمسمائة كيلومتر من البحر فى الشرق وألف كيلومتر من الحجاز فى الغرب ، فهى قائمة حيث تلتقى الطرق وتفترق ، وتريح القوافل القادمة ، من الجنوب أو الشمال فى مكان صالح لنشر الأفكار الصحيحة ونجاحها فى تحقيق أغراضها ، إذ تشهد القوافل تطبيقها الكامل فى مجتمع

متكامل تحكمه دولة صغيرة تبتغي وجه الله وحده ، ولهذا كانت محط آمال المتفائلين ومحل سؤال من الكثيرين .

وليست الكيلومترات في الصحراء مسافات ، والناس فيها أسمع وأبصر وأكثر تواصلا مما يتصور أهل الحضر .

وفي التخوم كثير من الخصوم : ففي الأحساء آلاف من الشيعة الاثنا عشرية (١) ، وفي القطيف آلاف من القرامطة (٢) ، وفي اليمن ملايين من الشيعة الزيدية (٣) ، وفي ينبع آلاف من الشيعة الكيسانية (٤) ، وفي عمان خوارج إباضية (٥) .

وفي سائر الأقاليم أهل سنة تجعلهم الجهالة والقرى أشد عداء للدعوة سواء في الشمال في الشام ، أو في الشرق في العراق ، أو في الجنوب في تهامة وعسير ، أو في الغرب في الحجاز . لكن الخصام كان أعجل في نشر الدعوة والإذاعة بأنبائها لما فيها من فكر أصيل لا تنال منه الأباطيل . كما كانت إحاطة هذه الأقاليم بنجد أنفع للدعوة ، إذ جعلت الدرعية في مركز الدائرة ، وجعلت (حريملا - العيينة - الدرعية - الرياض) تجعل المحور القادر على التحكم بالعقيدة الصحيحة والتضحية في سبيلها .

وهكذا أتيج لإقليم (الإمامة) أن يعظم شأنه مرة أخرى . ولليامة - كما يسمى القلقشندی وسط نجد حتى إقليم الأحساء - ذكريات أعظم عند المسلمين : ففي الشمال من البلدان الأربعة التي ذكرناها تقع جيلة حيث مقابر الصحابة الذين استشهدوا في حروب الردة . ومواقع معركة عقرباء بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (١٢ - ٦٣٣) ، وفي وادي بني حنيفة (وهم بطن من بطون بكر بن وائل) عاش أجداد الرجال الأحياء في هذا المكان ، ومنهم من بقي ، ومنهم من غيرت الهجرات مقامه وحل محله غيره : مثل قبائل عترة والرشابذة وشمر .

كان هوزة وثمامة ملكين على نجد عندما انفجر فجر الإسلام .

فجاء هوزة كتاب من رسول الله يقول : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي . سلام الله على من اتبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والخافر ، فاسلم تسلم . وأجعل لك ما تحت يديك) .

(١) نسبة إلى قوطم يامامة اثني عشر إماما وهم الإمامية أو الجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق .

(٢) نسبة لحمدان قرمط ، وهم فرقة من الإسماعيلية يقولون يامامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٣) نسبة للإمام زيد بن علي .

(٤) نسبة لكيسان مولى بجيلة يقولون يامامة محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب من زوجه من بني حنيفة) .

(٥) فرقة من الخوارج هي أكثرهم اعتدالا .

وأجاب هوزة : (ما أحسن ما تدعوني إليه ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تنهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك) .

فلما وقف عليه الصلاة والسلام على جوابه قال : (لو سألتني سيابة من الأرض ما قبلت . باد وباد ما في يده) . .

أما ثمامة فأسرته خيل النبي ، فلما اقتيد إليه قال له عليه الصلاة والسلام : (ماذا عندك يا ثمامة) ؟ .

قال : عندي خير . إن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن تقتل تقتل ذامد ، وإن كنت تريد المال فسل تعط .

فأمر النبي بإطلاقه ، فأسلم ، ثم عاد إلى اليمامة فنع أهلها أن يحملوا الحنطة إلى مكة . وفي السنة العاشرة قدم وفد اليمامة ووادي حنيفة (١) ، فأسلموا وفيهم جماعة من بني فزارة بن

(١) يقول الشيخ في المختصر : (لما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ضربت إليه أكباد الإبل تحمل وفود العرب من كل وجه في سنة تسع . وكانت تسمى سنة الوفود . فقدم عليه عطار بن حاجب القيمي من أشراف « بني تميم » جاءوا في أسرى « بني تميم » الذين أخذتهم سرية عينة بن حصن الفزاري في الحرم من هذه السنة . وكان عينة قد أخذ أحد عشر رجلا واحد عشر امرأة وثلاثين صبيا وساقهم إلى المدينة ، فقدم رؤساء بني تميم فيهم ، كلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات - وهو في بيته - أن اخرج إلينا ، فأذى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) فلما خرج إليهم قالوا : جئنا لنفاخرك . فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : « أذنت لخطيبكم » فقام عطار فخطب فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس « قم فأجب الرجل » فقام ثابت فخطب وأجابه ، وقام من جانب بني تميم شاعرهم الزبير بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك ولينا تنصب البيع

فقال رسول الله ﷺ لحسان « قم فأجب الرجل » فقال :

إن الدواب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنا للناس تبع

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

قال الزبير بن بدر . . . قال حسان . . .

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : (إن هذا الرجل لمؤني ، لخطيبه أبلغ من خطيبنا ، ولشاعره أبلغ من شاعرنا ، ولأصواته أحلى من أصواتنا) . فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

ويقول الشيخ في المختصر عن حروب الردة في عهد أبي بكر :

(لما كان من العرب ماكان ، ومنع من منع منهم الصدقة - جد بأبي بكر الجند في قتالهم ، فدعا زيد بن الخطاب يستخلفه (في القيادة) فقال : « قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ ، فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه . وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه » فدعا أبا حذيفة بن عتبة ، ففرض عليه ذلك . فقال : مثلاً قال زيد ، فدعا سالماً مولى أبي حذيفة فأبى عليه ، فدعا خالداً فأمره على الناس . فسير خالداً إلى اليمامة .

فلما فرغ خالد من بزانة وبني عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بني تميم وإلى اليمامة . . . ففرق خالد السرايا في نواحيها ، فأنت سرية منهم بني حنظلة وسيدهم مالك بن نويرة ، وكان قد بعث النبي ﷺ مصدقا على قومه ، فجمع صدقاتهم ، =

عنفة فأقطعهم النبي مقاطعات من أرض بني حنيفة ، وكان في الوفد « مسيلمة » بن حبيب خلفوه في رحالهم ، فأجازهم النبي معهم وحذر منه . وكان تحذيره تنبيها على ما سينجم في هذه البقعة من الأرض ، حيث العصبية الجاهلية في عنفوانها ، وحيث تدور من بعده عليه الصلاة والسلام أعنف المعارك وأخطرها على الإسلام .

وسنرى حروب الردة في أرض الإمامة وضراوتها ووقوعها بين فريقين يشهدان شهادة الإسلام ، لكنها مختلفان في فهم حقيقة التوحيد ، درساً أساسياً من دروس الشيخ في مجالس تدريسه وكتبه . وبخاصة (مختصر سيرة الرسول) .

— فلما بلغته وفاة النبي ﷺ جعل إبل الصدقة : أي ردها إلى أصحابها ، ولذلك سمي الجفل ، فأسندوا إليه أمرهم . وروى الشيخ عن رافع بن خديج قال : (قدمت على النبي ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وقد أقسى قلوبا ، ولا أخرى ألا يكون الإسلام يقر في قلوبهم ، من بني حنيفة وكان مسيلمة مع الوفد) .

صف خالد جيشه وقدم رايته مع زيد بن الخطاب ، ورفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس (خطيب النبي يوم وفد بني تميم) فتقدم بها وجعل على ميمته أبا حذيفة وعلى مسيرته شجاع بن وهب ، واستعمل على الخيل . . . أسامة بن زيد ، فاقتلوا قتالا شديدا ، وصبر الفريقان صبرا طويلا حتى كثرت القتل والجراح بين الفريقين ، واستمر القتل في المسلمين وحملة القرآن حتى فنوا إلا قليلا ، وهُزم كل من الفريقين حتى دخل المسلمون معسكر المشركين ودخل المشركون معسكر المسلمين . وجعل زيد بن الخطاب ومعه الراية يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ، وأعتذر إليك من فرار أصحابي ، وجعل يشتد بالراية في نحو العدو ، ثم ضارب بسيفه حتى قتل رحمه الله ورضى عنه ، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون إنا نخاف أن نؤذي من قبلك ، قال : بش حامل القرآن أنا إذا أتيت من قبلي ، ونادت الأنصار ثابت بن قيس ومعه رايته : الزمها ، فإنها ملاك القوم ، فحفر سالم لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه ، وحفر ثابت لرجليه مثل ذلك ثم لزم رايتهما .

ولقد كان الناس يتفرقون في كل وجه وإن زيدا وثابتا لقائمان حتى قتل سالم وقتل أبو حذيفة مولا . قال وحشي بن حرب : اقتتلنا قتالا شديدا حتى رأيت شهب النار تخرج من خلال السيوف حتى سمعت لها صوتا كالأجراس ، ولم يلق المسلمون عدوا أشد نكاية من بني حنيفة . لقوهم بالموت الناقع ، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق .

ولما رجع عبد الله بن عمر إلى المدينة قال له أبوه : (ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى ؟) وأجاب عبد الله : (قد حرصت على أن يكون ذلك ، ولكن نفسي تأخرت . وقد أكرمه الله بالشهادة) . وذات يوم ذكر عمر وقعة الإمامة فقال : (ألحت السيوف على أهل السوابق ولم يكن المعول يومئذ إلا عليهم ، خافوا على الإسلام أن يكسربابه فيدخل منه إن ظهر مسيلمة . فنع الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته . وقدموا رحمهم الله على ما يسرون به من ثواب جهادهم من كذب على الله ورسوله فاستحربهم القتل فرحم الله تلك الوجوه) .

ومضى زمن على أيام الإمامة وكان عمر يصلى ، فرأى رجلا متنكبا قومه ، فسأل عنه وعرف أنه متمم بن نويرة أخو مالك ابن نويرة . فاستنشه وثناء المشهور وأخيه فأنشده حتى بلغ قوله :

وكنا كندماى جزيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكنا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

قال عمر : هذا والله التأين لوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخى زيدا بمثل ما رثيت أخاك . قال متمم : لو أن أخى مات على

مامات عليه أخوك ما رثيته . قال عمر : ما عزاني أحد عن أخى بمثل ما عزاني به متمم .

والسيرة درس تستحبه الأنفس ، وفي مختصرها تعليق على الحوادث ، واستخلاص للعبر بلغ فيه الشيخ غاياته .

ودروس الردة عن الإسلام كله أو بعضه وقيام الحرب من جراء فساد الاعتقاد مع الإقرار بالشهادة حجة للشيخ في صميم منهاجه من :
١ - وجوب إخلاص الخضوع لله وحكمه .

٢ - وجوب الجهاد والحرب لإعادة المرتد عن بعض الأحكام إلى دين الله الصحيح .
والحجج أفعال في الأنفس إذا كانت من سُلَّاف المحجوجين أنفسهم ، أو وقعت في عقور دارهم في نجد كلها أو أيمانها خاصة . فهي عندئذ تستعمل الزمان الحبيب ، والمكان القريب ، والعامل الإنساني في الإثبات .

٣ - أما الحججة على الشيخ فهي أن يعد للأمر عدته في نفسه وفي الناس وفي الأمير وفي جند الدعوة . فهؤلاء قومه وهذا تاريخهم . وهو ينشد هداية الناس . ووضع الندى في موضع السيف مضر كوضع السيف في موضعه .

٤ - ومن الحجج على الأمير أن يتهور سيف الأمير أويكون كافر الغضب .
ومن أجل ذلك كانت الحرب مشغلة له وإن لم يخرج مع الأمير للحرب ، فهو مسئول عن العلم والإرشاد ، مسئول عن شريعة الحرب والسلام ، لكن العلم ميدانه وحده ، والحرب ميدان الأمير وجند الدعوة .

في هذه الحقبة النادرة من تاريخ الإسلام عدسة صغيرة يبصر الناظر من خلالها بمعان عظيمة عظمة الإسلام ، ونتائج لها أعظم الأثر في خلوده . ومن المعاني جلال الاستشهاد في سبيل إزاحة الكفر من عقول أهل نجد ، وتطهير جزيرة العرب من الشرك ، بتطهير نجد . وفداحة الخسائر بموت القراء حتى خيف على القرآن ، فأمر الخليفة يجمعه . ومنها إذنه للجيش أن تفتح أرض الله للإسلام خارج جزيرة العرب بعد حروب نجد وبعد الانتصار الذي يأذن للدعوة بالانتشار .
ولو تهاون « الصديق » في ردة العرب لانتوى المسلمون في جزيرة العرب على أنفسهم منهزمين .

ومن هذه النتائج يتراءى أثر أبي بكر الصديق في كمال حجمه في الإسلام ، وإن كانت خلافته أقصر خلافة للراشدين رضي الله عنهم .

أما عن ميادين المعارك فحسبنا منها في هذا المقام أمور :

١ - أن الكفاح الذي سالت فيه أرواح هؤلاء العظماء قد تم في المواقع التي ذكرناها والتي

ستدور فيها أوفى القريب منها معارك دعوة التوحيد الجديدة . وأن بعض من سيخوضونها هم حفدة القوم الذين ناصروا خالدا فحاربوا معه أو تاهضوه وقاتلوا المهاجرين والأنصار .

٢ - أن هذه الناحية وحدها بين عشرات الأنحاء في جزيرة العرب كان فيها متنبئون ثلاثة هم : مسيلمة وطلحة وسجاح بين خمسة في كل أرض المسلمين ! وأن هؤلاء المتنبئين كانوا يطلبون بالسيف لأنفسهم صدارة العرب ، وأن مسيلمة الكذاب طلب إلى النبي ﷺ (أول ما تنبأ مسيلمة) : أن يكون له نصف النبوة ونصف الأرض وقال عن قريش إنهم لا يعدلون . ولم ينس أن يتزل على نفسه وحياً ، وتابعه قومه كفراً :

سأله طلحة الثمري : من يأتيك ؟ (يقصد بالوحي) ؟ قال : رحمان ؟ قال طلحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! واتبع طلحة مسيلمة ، وقتل معه بعد أن كفر متعصبا له ولقومه .

وكمثل تعصب هذين لقومها وشعوذة مسيلمة كانت شعوذة طلحة الأسدي : لقد تنبأ طلحة في أخريات حياة النبي ، فهم به أحد المسلمين بضربة سيف ، لكنه سلم وأذاع الأشياع أن السلاح لا يجوز في نبيهم ، فاستغلظ أمره ، ولم يكن أدنى من هذا اللدد عناداً زعيم فزارة الذي تألفه الرسول بالعطاء ، ليظامن جماعهم ويكف غلظتهم ، ومع ذلك كان (عيينة بن حصن الفزاري) بعد أن قبض الرسول يقول :

(والله لأن نتبع نبياً من الخلفين - أسد وغطفان - أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ! وقد مات محمد وبقي طلحة) !

ولما سيق بين أسرى المرتدين إلى أبي بكر بالمدينة كان غلمانها ينخسونه بالجرید ويقولون : أي عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟ فكان يقول للغلمان من كبريائه وهمجيته : (والله ما كنت آمنت قط) .

وكان عفو الصديق أكبر . لقد حقن دمه ، ولأم جراح بني فزارة ، ودفع الجميع ليفتحوا الأرض بالإسلام .

٣ - أن لقبائل بني تميم مكانة في العرب كما تزخر بذكرهم كتب الأدب ، فالوفد من أشرافهم إلى المدينة هم الذين دخلوا المسجد ، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته يفاخرونه ، ولما قبض رسول الله ﷺ كانوا أول المرتدين .

٤ - أن مالك بن نويرة كان عاملاً للنبي على بني يربوع ، فكان فيمن رد الزكاة لأصحابها ولم ير لأبي بكر حقاً في اقتضاها . وجاءته سجاح - وهي تميمية من بني يربوع - لتنحدر إلى بني حنيفة فتزوج مسيلمة الكذاب متنبئاً بني حنيفة ، ثم تفصل عنه راجعة إلى قومها ليلقي مصرعه يوم اليمامة .

هـ - أن يوم اليمامة قد خلده في التاريخ استشهاد ثلثمائة وستين من المهاجرين وثلثمائة من الأنصار ومن الباقين كثيرين ، مما أبلغ عدد القتلى مائتين ألفاً من المسلمين .
أما جيش مسيلمة وكان قد بلغ الأربعين ألفاً فقد أفقده الإصرار على الكفر نصف عدده .
بهذا تحلّد أسطورة الروح القبلى فى بنى حنيفة وبنى تميم فيجعل كل فرد فى نجد قلعة مستقلة .
وتفرز فى طبيعتهم سليقة الفرقة . وليس بدعا أن نرى زعيم (فرقة النجدات) الخوارج نجدة بن عويمر - وهو من بنى حنيفة - يخرج على الجميع ، ليجعل كل إنسان أمة وحده ! فىرى إقامة الإمام غير واجبة وحسب الجماعة أن تلتزم الحق فيما بينها وبين الأفراد وبينهم وبين أنفسهم .

والشيخ يستخرج من هذه الحروب التى أفضنا فى ذكرها ، لما فيها من عبر يستنبطها القارئ .
حججاً له على قومه سواء فى الفعل أو فى الفقه أو فى سياسة الدولة أو فى أصل العقيدة من عمل الصحابة مجتمعين خلف الصديق رضى الله عنهم . وهى - بعد - صيحة للجهاد فى سبيل العقيدة يصيح بها الشيخ ويعمل بأصلها فى مجالس الدرس وساحات المعارك ، كما يستصحبها كل مسلم - لا يستعده العيش الغفول عن التصدى للمنكر ، أو يستكفه الجبن الجهول عن الجهاد فى سبيل دينه .

ومجالس الدرس هى المجال الحى لهذا العلم العملى ، وهو القوة الضارية فى يد الداعية :
يقول فى المختصر ما يفيض فيه فى مجالس علمه ويردده فى رسائله .

(إن بنى حنيفة أشهر أهل الردة ، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردة ، وهم عند الناس أقبح أهل الردة وأعظمهم كفراً ، وهم مع هذا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤمنون ويصلون . .) .

ويقول : (وطائفة من أهل الردة - صدقوا مسيلمة أن النبى ﷺ أشركه معه فى النبوة ، وذلك أنه أقام شهوداً شهدوا معه بذلك ، ومنهم رجل من الصحابة معروف بالعلم والعبادة يقال له الرجال فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة . . .) .

ويقول : (إن العلماء فى زماننا يقولون : من قال لا إله إلا الله فهو المسلم الحرام المال والدم لا يكفر ولا يقاتل حتى إنهم يصرحون بذلك فى شأن البدو الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون الشرائع ، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله) .

ويقول : (إن بقايا من بنى حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرعوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم عند أنفسهم وتحملوا بأيديهم إلى الثغر لأجل الجهاد فى سبيل الله لعل ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردة . . فتزلوا بالكوفة وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يقال له مسجد بنى حنيفة ، فر

بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء ، فسمعوا منهم كلاماً معناه أن مسيلمة كان على حق ، وهم جماعة كثيرون ، لكن الذى لم يقله لم ينكره على من قاله ، فرفعوا أمرهم إلى عبد الله ابن مسعود ، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم : هل يقتلهم وإن تابوا أو يستبقيهم ؟ فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة ، وأشار بعضهم باستتابتهم ، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتبه .

والقصة فى صحيح البخارى فآين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول : البدو ما معهم من الإسلام شعرة إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله . ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك ؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة فيمن قال تلك الكلمة أو حضرها ولم ينكر

ويقول : (فى قصة أصحاب على بن أبى طالب . لما اعتقدوا فيه الألوهية التى تعتقد اليوم فى أناس من أكفربنى آدم وأفسقهم . فدعاهم إلى التوبة فأبوا فخذلهم الأخاديد وملاها حطباً وأضرم فيها النار وقذفهم فيها وهم أحياء ! ومعلوم أن الكافر مثل اليهودى والنصرانى إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار ، فعلم أنهم أغلظ كفراً من اليهود والنصارى . هذا وهم يقومون بالليل ويصومون النهار ويقرءون القرآن آخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ فلما غلوا فى على ذلك الغلو أحرقهم بالنار وهم أحياء . وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم ، فآين هذا ممن يقول تلك المقالة مع اعترافه بهذه القصة وأمثالها واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله ؟ .

واعلم أن جنابة هؤلاء إنما هى على الألوهية ، والذين قبلهم جنابتهم على النبوة . وما علمنا لهم جنابة على الإلهية ، وهذا مما يبين لك شيئاً عن معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام) .
ويقول : (ما وقع فى زمن التابعين : وذلك قصة الجعد بن درهم ، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة ، فلما جحد شيئاً من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند الأكثر - ضحى به خالد ابن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ضحاياكم فى مضح با لجعد بن درهم . فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ثم نزل فذبجه ، ولم نعلم أن أحداً من العلماء أنكر عليه ذلك ، بل ذكر ابن القيم إجماعهم على استحسانه . . . ، فآين هذا من اعتقاد أعداء الله فى البدو)

انتشار الدعوة

وكلمة قلب الشيخ صفحات السيرة العطرة جاءت العبر باليقين فى مستقبل الدعوة ، فمن بعد حروب نجد انطلق المسلمون بالدعوة إلى خارج جزيرة العرب بعد أن ضرستهم الحرب ، فكانت

ميادين تجارب هانت بعدها التضحيات في القادسية واليرموك ومصر ، ثم كان الموالي يسلمون من دون معارك تهديهم حقائق الخنيفة السمحة وعدالة الحكام التي يأمر بها الإسلام وأداء الأمانة لمستحقيها .

والشيخ لا يضيع الزمان سدى بل يهذب ويربب ، وربما شهد التدريب للحرب . وله آراء في الحرب تسير مع دروسه إلى ميادين المعارك . . فالتلميذ الصالح هو المجاهد الذي لا يقهر . وأحسن الشيخ استعمال الزمن ، والزمن قوة من قوى الطبيعة لمن تريد السماء نصره . والله مع الصابرين .

والناس ينسلون إلى الشيخ من كل حدب ، يسقيهم من ينابيع التوحيد وسيرة الرسول وأصول الفقه وفروعه ما يحبي الأنفس .

والحروب في الأقاليم المجاورة للدرعية دائرة الرحي لا تكاد تتوقف للذود عن العقيدة والدفاع عن الجماعة ، والانتصارات التي وعد بها الله لا تتخلف ، ولهذا شيد الشيخ المسجد الجامع بالدرعية ليسع تلاميذه . . والشيخ حريص على تأليف القلوب بين الوافدين وبين أهل الدرعية ، ليجعل بين الجميع أخوة مثل مؤاخاة رسول الله بين المهاجرين والأنصار .

والشيخ خفيض الصوت مستفيض البيان ، ينساب شرحه في يسر إلى الآذان والأذهان ، فإذا انتهى الدرس فقلما يفتر لسانه عن قوله : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويأخذ في إعداد رسائله إلى العلماء في بقاء الإسلام . وهي جميعاً تحمل طابع إملائه وتحتوي حججه . والشيخ يقوت طلابه ويمونهم ، فالعلم مسئولية أخذ الله على العلماء موثقاً أن يبينوها ، فكل نفقة في سبيل تحصيله وجه عبادة ، وأفضلها جميعاً نفقات تعليمه .

وبهذا تكاثرت ديون الشيخ على مدار السنين . وكان يعجز عن السداد ، فيقبل من الدائنين نظرة الميسرة . ولا يرضى عن التجاوز . حتى جاء نصر الله بفتح مدينة الرياض ، وسدد الشيخ ديونه من نصيبه من الغنائم .

ذلك أن انضمام حريملا والعينة للدعوة ثبت المحور المكين في نجد ، فطوت أخبارها جزيرة العرب كأمر واقع ، ونصر وعد الله به ، وإن لم يتوقف الصدام الدموي الذي ستحدث عن قليل منه بعد ، وقد أفاضت في تفصيله مؤلفات ابن بشر وابن غنام ، وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى أن انتصارات آل سعود طبقت آفاق نجد ، وخشى أمير الرياض دهام بن دواس أن تعلق كلمة أمير الدرعية وتضؤل قيمة الرياض . فهاجم الدرعية مرات في سنوات ، لكنه كان ينهزم عنها ، أو ترد الهجوم عليها بهجوم على عاصمته عاماً بعد عام ، حتى حاقت به الهزيمة ، وهرب من الرياض فدخلتها جيوش الموحدنين سنة ١١٨٧ بعد نحو عشرين عاماً من الحروب الدامية ، والوفود تترى

تباع الشيخ على التوحيد قادمة من شتى بلاد نجد : ضرمى وثرمداء والوشم وأثيفية والعزيقية وشقراء والقرعة وسدير والزلافي وجلاجل والحوطة والروضة والخرج والدمام .

* * *

ولما اتجه نشاط الدعوة صوب الحجاز رفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢ تقريراً للباب العالى فى القسطنطينية ينبه الأتراك العثمانيين على خطورتها على كيان الدولة العثمانية فى جزيرة العرب ، لكن الدرعية لم تكن تهتم إلا بالدين ، فبعثت وفداً من ثلاثين عالماً لمناقشة علماء الحجاز ، فألقى قاضى مكة بكفرهم ، وزج الشريف مسعود بالوفد فى السجن ، ومنع أهل نجد من الحج سنين .

حتى إذا تلاحقت انتصارات الدرعية وارتفع شأن الدعوة فى شرق الجزيرة - حسن النصر أمرها فى أعين الأشراف الذين يحكمون الحجاز باسم (تركيا) وجمل بالصبر قلوب أهل الدرعية ، فأصبحوا ينصرفون مع الآخرين من مواقع القوة وأخلاق النجاح :

والشيخ يوالى كتبه إلى أهل مكة فيمن يدعوهم للتوحيد الخالص ، ولذلك طلب إليه شريف مكة أحمد بن عبد العزيز علماء نجد ليفاقهوا علماءه ، واستجابت الدرعية ، فبعثت وفداً رسمياً من العلماء يقدمه خطاب رسمى من أمير الدرعية جواباً عن خطاب رسمى من شريف مكة ، وتظهر فى عبارات خطاب الأمير آثار قلم الإمام الذى أملاه ، وتوضع الداعية ، والجدال بالتي هى أحسن . وهى الطريق التى أمر بها القرآن وجرت عليها السنة . قال : (ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر ، وهو واصل إليكم ، ويحضر فى مجلس الشريف أعزه الله تعالى . هو وعلماء مكة ؛ فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك ، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة) .

واجتمع الرسول - الشيخ عبد العزيز بن الحصين - وعلماء مكة فتفاوضوا فيما هم فيه مختلفون . وهو ثلاث مسائل .

الأولى : ما نسب إلى أنصار محمد بن عبد الوهاب من تكفير المسلمين بالعموم .

الثانية : هدم القباب التى على القبور .

الثالثة : إنكار دعوة الصالحين والشفاعة .

وأنكر ابن الحصين المسألة الأولى ، وتمسك بالثانية قولاً بأنه ليس من العلماء من شك فيها .

وتمسك بالثالثة ؛ لأنها من الشرك الذى فعله القدماء ، . . . فجاءوا بكتب الحنابلة ، فوجدوا أن الأمر على ما ذكره ابن الحصين فاقتنعوا .

وسنشهد بعد أكثر من قرن اقتناع علماء مكة والمسلمين معهم ، ولكن بعد حروب دامية يحمل

وزرها السياسيون والجهلاء ، بما فرقت المسلمين وعوقت تقدمهم ، وأخرت من وحدة العرب .

كان الشيخ يقول عن نفسه وكأنما يقصد طريقته : (وأنا امرؤ في بعض الحدة ، وهي حدة لا تثبت حقاً ولا تخرج بصاحبها عن الجادة) .

والحدة عرض القوة لكنها تضعف الحجة ، وتسد الطريق على الموعظة .
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الجادة ، ومن الإنصاف يصحح الأمر بالمعروف طريقه ؛ ليكون أقصد إلى الغرض وأكد للقبول . وبعض الحدة أنجح للذين يتولون التنفيذ أو القيادة في بعض الظروف .

وليست عبارات الشيخ إلى شريف مكة أسجح من عباراته في رسائله إلى العلماء .
يكتب في خطاب : (فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا وتدريبنا عبارات أهل العلم لعل الله يردنا بك إلى الحق) .

وفي ثان (. . .) فإذا أنا لم أفهمه ولا معنى آخر ، فأرشدوني عسى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى) .

فالشيخ لا يدع حقه لباطل غيره .
وفي ثالث يصدع بأصل من أصول الاجتهاد فيقول : (ومتى لم تتين لكم المسألة لم يحل الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتين خطؤه) .

ويصدع بأصل في خطاب رابع فيقول : (لا يجوز إنكار مسألة لا يُعرف حكم الله فيها) ذلك بأن للشرع في كل مسألة حكماً وعلى المجتهد طلبه .

وليست الحجج بكثرتها ولكن بقوتها ، ولا هي بعدد من يقبلونها ، ولكن بصحتها وقدر فهمهم لها وانتفاع الناس بها .

والشيخ يكتب في إحدى رسائله : (قال ابن القيم : واعلم أن الإجماع والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفنا أهل الأرض) .

ومن ثم كانت صلابة الدعوة وإصرار الداعية على نهجه ، مادام على الحق .
والشيخ لا يتهاون مع الضالين ولا يتهاون مع الكافرين ، بل يجادلهم بالفقه الصحيح والسنة الثابتة .
يقول في خطاب : (وأما مسألة التذكير فكلامك فيها من أعجب العجائب : أنت تقول : (بدعة حسنة) والنبى يقول : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) ، ولم يستثن شيئاً تشير علينا به ، فنصدقك أنت وأباك ونكذب رسول الله ؟) .

وموسوعة الشيخ الفقهية فياضة بالفقه يقول في خطاب : (فهذه ستة مواضع في «الإقناع» في باب واحد . إن من فعلها فقد كفر ، وهي دينك ودين أبيك) .

وقال أيضاً - صاحب الإقناع - ومن قال : إن لأحد طريقاً إلى الجنة غير متابعة

محمد ﷺ ، أولاً يجب عليه اتباعه ، أو لغيره خروجاً عن اتباعه ، أو قال : أنا محتاج إليه في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أو قال : إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر عن شريعة موسى - يكفر في هذا كله) .

وفي خطاب له يرتفع عن فضول التفاصيل ومصطلحات المتكلمين إلى التذكير بصحابة الرسول فيذكر قول أبي الوفاء بن عقيل : (أنا أقطع أن أبا بكر وعمر ما عرفا الجوهر والعرض . فإن رأيت أن طريقة أبي علي الجبائي (المعتزلي) خير لك من أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت) .

وهو بهذا يرفع المنهج السلفي إلى مكانته بين طرائق أهل السنة حيث أبو بكر وعمر في جوار صاحبهما ﷺ في الذروة ، وحيث تنخفض دونها كل رتبة ، سواء أكانت مرتبة الفرقة الجبائية أم من وراءها من فرق المعتزلة .

* * *

أما عن مشاركة الشيخ في شئون الإمرة فيمكن إجمالها في غلبة السلطان الديني على السلطان الزمني لصدق إيمان أولى الأمر ، من العالم الكبير والأمير ، وعملها معاً ، ولصحة إيمان الجماعة التي ترد كل منحرف إلى القاعدة ، فيحسب حسابها أولو الأمر ، علماء كانوا أم أمراء .

وللشيخ سلطان على صاحب السلطان طوال حياته ، لما بينه وبين محمد بن سعود من بيعة كل منهما للآخر ، وما بينه وبين ابنه عبد العزيز ، لأنه معلمه ومعلم الأمة والدولة التي أنشأتها لهم دعوته . وهو فوق ذلك قد خصه بشرح فاتحة الكتاب ، وهذا الوضع ظاهر في تقديم ابن غنام لتاريخه ، وهو تلميذ الشيخ المكلف بوضع تاريخ هذه الملحمة .

وعندما تأخذ الأمير نشوة النصر يذكره ابن عبد الوهاب بحاجة إلى ذكر الله والشكر لأنعمه ، فيكتب إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل الملحمة السعودية الأولى إذ فتح الله عليه مدينة الرياض :

(أحب لك ما أحب لنفسي ، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل ، والذي أراه أن تكثر من قول الحسن البصري وكان إذا ابتداء حديثه يقول :

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمعاقة ؛ كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا ، وأحسنيت معافاتنا . ومن كل ما سألنا - ربي - أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت) .

والشيخ هو الذي وضع لمحمد بن سعود سياسة الحرب في أمور معروفة منها :

١ - التدريب العسكري المستمر على الحرب ، وتحمل المشاق لإعداد العقول السليمة في الأجسام السليمة ، لتقدر على نشر الدعوة والدفاع عنها .

٢ - الانتفاع بالتكنولوجيا المعاصرة في الحرب والتدريب على استعمال البنادق ، وكانت قد دخلت حديثاً في جزيرة العرب مع جيوش الأتراك .

٣ - استعمال الحرب الاقتصادية لتحقيق الأغراض العسكرية والسياسية : كتأديب قوافل التجارة التي تصدف عن طريقها العادي في أرض نجد ؛ لتمنع تجارات الإقليم مع الخارج ، وتقصر تجارتها على بلدان العدو .

٤ - الإفادة من تلاميذ الشيخ وأتباعه ، ليكونوا عيوناً للدعوة يظهر من ما يضر أعداؤها لها . وأعاوناً أشداء إذ تقارب جيوشها مدنها ، فلا يطول حصارها أو قتالها وتستسلم .

٥ - وكان تركه السيادة القانونية في الإمرة لابن سعود آية الصدق في دعوته ، بالبعد عن المظاهر ، والزهد في الحكم ، قدر ما كان وسيلة لتأليف قلوب الحكام .

٦ - وكانت الأناة والرحمة نصيحة دائمة منه للأمير ، ولقد طالما نهه الأمراء عن القسوة وبخاصة عبد العزيز بن سعود ، إذ نصحه ألا يتهور سيفه ، أو تتجاوز الحدود مسالحه ورباطاته ؛ فالإسلام حنيفة سمحة ورسوله رحمة مهداة .

وإنما انتقل التخريب إلى العراق أو كربلاء - خصوصاً - بعد موت الإمام ، ومن جرائه قتل عبد العزيز بيد شيعي هاله هدم قبة الحسين رضي الله عنه .

وبالإغارة على العراق وجد الأمير السعودي نفسه وجهاً لوجه مع الإمبراطورية التركية ؛ إذ كان الأتراك أصحاب السلطة الفعلية على العراق . ويومئذ بدأ الصدام مع الأتراك .

ورمى الخصوم الشيخ بإفك يهيج له العرب . قالوا : إنه أجاز سبي العرب . وهي شناعة يستنكرها الشيخ بصوت عال ويدلل على استنكاره بتاريخ حروبه . فيقول (لا نرى سبي العرب ولم نفعله ولا نرى قتل النساء والصبيان) في حين يجوز قتل مانعي الزكاة وتاركي الصلاة كما صنع أبو بكر .

والشيخ بذلك يضرب لنا مثلاً على اجتهاده المطلق ، فهو لا يرى سبي العرب في حين كان أحمد بن حنبل صاحب المذهب يراه ، لأنه يعمل بالحديث إذا بلغه ولا يعمل برأى غيره مهما كان مصدره . يقول أحمد : (لا أذهب إلى قول عمر « ليس على عربي ملك » قد سبي النبي ﷺ العرب في غير حديث ، وأبو بكر وعلى حين سبي بني ناجية) ولم يثبت عند أحمد حديث معاذ أن النبي قال يوم حنين : (لو كان الاسترقاق جائزاً على العرب لكان اليوم . إنما هو أسرى) . والشافعي يقول في الأم : (أخبرنا سفيان (بن عيينة) عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (لا يسترق عربي) قال الربيع : قال الشافعي : (ولولا أننا نأثم بالثمن لتمنينا أن يكون هذا هكذا) .

في سنة ١١٧٩ - ١٧٦٦ مات محمد بن سعود (١) وخلفه ابنه وبطل حروبه بعد إذ أبلغت بطولات الرجلين دعوة الشيخ أبعد حدود نجد ونحطتها إلى ما تلاها من الأقاليم . عندئذ بعث الشيخ إلى عبد العزيز يعتزل المشاركة في الغزوات والسياسات . وإن ظل يشير في الأمور . وفي الأعوام العشرين الأخيرة من حياته انقطع لتعليم المسلمين وهو قوى البنية ، رفيع القامة ، له وقار وهيبة ، وجمال منظر الداعية المظفر (٢) . وطالت مجالس العلم وتعاقت السنوات تحمى بشائر الفتح والنصر وانتشار الدعوة في الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وعاد إلى الشيخ الفتاة ؛ ففى كل نصر ونجاح فكر أسباب للقوة والفتوة . ولكل أجل كتاب .

* * *

ففى صيف سنة ١٢٠٦ - ١٧٩٢ بلغ الشيخ الواحدة والتسعين من العمر . واخلوق الأجل . وكان قد ثقل ، فصرفته صوارف الهرم عن الحياة العامة ، لكنه ظل يهدج إلى المسجد متهادياً بين اثنين ، حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٣) .

(١) تخذل اسمه الآن الجامعة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض بالمملكة العربية السعودية ودروسها قاصرة على العلوم الشرعية .

(٢) تزوج الشيخ فى حياته الطويلة بأكثر من امرأة : الأولى منهن فى العينة قبل الرحلة الأولى للحجاز ، وتزوج فى العراق ، ومن بنى بهن بعد الجوهرة بنت الأمير عبد الله بن معمر .

ومن أبنائه ٦ ذكور و ٦ إناث .

أما البنون فهم : إبراهيم وهو فقيه استشهد على أبهى الأثر عقب سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣ - وإخوة إبراهيم هم : عبد العزيز - كان قاضى العينة ثم حريملا - وحسين وعلى وحسن وعبد الله . وقد شارك عبد الله أخاه حسناً فى القضاء ، وكان لعبد الله ولدان (سليمان وعبد الرحمن) قتل إبراهيم باشا أولها وبعث الآخر صغيراً إلى مصر مع أبيه ، فبقي فى مصر أربعين عاماً حتى توفى سنة ١٢٧٤ - ١٨٥٨ بعد أن أحيا فيها المذهب الحنبلى . أما حسن فله أبناء علماء أشهرهم : عبد الرحمن بن حسن رئيس قضاة المسلمين فى عهد تركى بن عبد الله .

ومن ذريته الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى السعودية فى عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز وفيصل بن عبد العزيز .

وتولى حسين الإفتاء والتدريس مع أبيه .

وله أولاد منهم حسن وله ولد اسمه لعبد الله كان رئيس قضاة نجد زماناً ومن بناته أم الملك فيصل . وأنجب ابنه عبد الرحمن فى مصر - وله ذرية فيها . ولما مات منهم محمد بن عبد الرحمن حتى بن أحمد الأزجى (وكان صيدلياً) نعتة صحيفة الأهرام الواسعة الانتشار فى العالم العربى فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٣٨/١/٢٣ .

(٣) تولى منصب الدعوة بعد موت الشيخ أبنائه ، وحفدته ، فاخص آل الشيخ بالعلم والقضاء ،

وخلف الشيخ فى منصب الدعوة ابنه حسين وكان كفيلاً . ولى قضاء الدرعية ، فكانت له الإمامة والخطبة .

وخلف حسين أخوه عبد الله وابنه على بن حسين .

وهجر على الدرعية إذ دمرتها مدافع الأتراك على ما استشده بعد . ولجأ إلى رأس الخيمة على ساحل الخليج العربى ، وشهد

ضرب الأسطول البريطانى لها .

=

علي بن مشرف التميمي

إبراهيم

سلطان مات سنة ١٦٦٨ ميلادية

محمد

عبد الوهاب مات سنة ١١٥٣ - ١٧٤٠

سلطان ١٧٩٤

محمد ١١١٥ - ١٢٠٦ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢

حسن

إبراهيم

عبد العزيز

علي

عبد الله

نقي إلى مصر

عبد الرحمن

عبد اللطيف

إبراهيم

سلطان

عبد الرحمن

نقي إلى مصر . درس في رواق
الحنابلة بالأزهر وعاد إلى نجد
سنة ١٢٤١

عبد الرحمن

محمد

علي

حسين

حسن

عبد الله قاضي قضاة نجد

أم الملك فيصل بن عبد العزيز

عبد الملك

إبراهيم

رئيس هيئة
١١٤١

محمد بن إبراهيم
المتقي العام مات
سنة ١٣٧٢ هـ

وسعت حياة الشيخ أجيالاً ثلاثة ! هيأ أولها للدعوة أن تنفذ إلى القلوب ، وهيأ الثاني لها أن تختلط بالدماء إذ تنقلها دماء جيل إلى جيل ، وهيأ الثالث لها أن أصبحت « طريقة حياة » للجماعة ، وبهذا حاربت الأجيال الثلاثة دون عقيدتها بضراوة وستحارب . وعندما يصبح الائتثار بالمعروف والانتهاز عن المنكر « طريقة حياة » لأمة تسمى خير أمة أخرجت للناس .
وحسب الدعوة وصاحبها جزاء أن تُصنَع هذه الأمة على عينه ويده ، وأن تبلغ شأوها في حياته .

والخلد منتهى همم كبار تضع صاحبها في مكانه من التاريخ قدر ما أحدث من أثر .
وليس من الممكن حصر آثار الشيخ أو تراثه في الأمة الإسلامية ، لأنها تتعلق بالعقيدة وما تحدثه في الدنيا من صلاح ، وفي الجماعات من تطور ، وإن ساغ لنا أن نشير إلى بعض الأبعاد التي أدركتها :

أولها : أنه علّم المسلمين في عهده ومن بعده عقيدة التوحيد الصحيحة ، ولم يكن في ديار المسلمين أيامئذ عالم أثبت منه قدماً في الفقه أو إطلاق الاجتهاد وبجانبه التقليد . فلما جاهد دون آرائه وقرن الجهاد بالاجتهاد أضاف إلى ما علمه للقرون اللاحقة أن الجهاد والاجتهاد معاً واجباً لإحداث التقدم واستمراره ، وأن الإصلاح لا تحدثه أقوال المتعدين ، وإنما يحدثه رجال صلب يجاهدون ، وأن الجهاد فرض عين على من تعين له ، وقد يكون جيلاً بتمامه .

ثانيها : أن قوام الأمة يعود إلى الاعتدال بظهور رجل واحد صادق العزم يعاونه حكام صدق تستجيب الأنفس لما يدعونها إليه ؛ إذ يأخذون أنفسهم به ولا يخالفونهم إلى ما ينهونهم عنه : إذا حاربوا كانوا أقرب الجيش إلى العدو ، وإذا سالموا كانت للناس في تقواهم الأسوة الحسنة .
ثالثها : أن الجماعة الصالحة والدولة الصالحة صنوان ، وأن الدعوة الصادقة تقيمها معاً فالجماعة الساهرة على الفضائل لا تستبقى إلا دولة تحميها .

رابعها : أن المنهج السلفي قد أثبت في حياة الشيخ وبعد مماته ، وبدليل عملي حتى من واقع الجماعة التي نهجته - اقتداره على إحداث الأطوار الضخمة في تاريخ الأمة من طور الجهاد للاستقلال إلى طور الكفاح لتثبيت الدولة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى طور استعمال التكنولوجيا المعاصرة في القرن الرابع عشر كما سنرى بعد .

وهذا الإنجاز الحضاري آية على أبدية الحنيفية السمحة وتمكينها العقل البشري أن يبلغ شأوه .

= وكان اهتمام الفرنسيين بدعوة ابن عبد الوهاب عدلاً لاهتمام الإنجليز بدولة آل سعود .

ففي أول القرن التاسع عشر للميلاد ظهر في باريس كتاب (تاريخ الوهابية من بدء ظهورها حتى ١٨٠٩ وضعه Covrancez عضو المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون بمصر ثم صار عضو الأكاديمية الفرنسية .

الفصل الثاني

الدرس الكبير

(قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . قال
أجعلني لله نداً . قل ما شاء الله وحده) .

حديث شريف

إذا قيسَت عظمة الدعوة بأصالتها وطريقتها في بلوغ المقاصد التي تنغيها فعممة الدعوة الدينية تضعف أو تتضاعف قدر ما في طريقها من ورع في التنفيذ وإخلاص الاتجاه إلى الله .
والإمام نبت تنتجه حاجات بلاده . وتتجلى إمامته في مقدار ما يمثل روح أمته على طول أعصرها كما يجب أن يكون عليه . لا كما هي عليه ، وفي مبلغ توفيقه في أن يجعل سيرته درساً من دروس دعوته .

وعظماء الأمم في هذا أدنى درجة من الأئمة .

وحياة الإمام في ذاتها إمام .

وروح الأمة الإسلامية الذي تحيا به هو تمسكها بالأمر الأول . وبقدربعدها منه تقاس هزائمها ونكساتها .

وما هو إلا منهج السلف الصالح أعلنه الأئمة للناس ونفذوه .

وحيث يقوم منهج السلف الصالح لا يكون للبدع مقام . فالناس عندئذ يؤمنون بالله وحده لا شريك له . فتستقيم حياتهم وشخصياتهم ، وتصح عباداتهم وتصلح معاملاتهم . ويستعملون العقل فيجتهدون ولا يقلدون . ويجاهدون العدو الخارجي ، فلا يقبلون الضيم ولا يستسلمون . ويقهرون العدو الداخلي من عيوب أنفسهم . أو مجتمعهم .

ولما تتابع المصلحون على نهج ابن عبد الوهاب وتعاليمه كان ذلك نطقاً من الزمان ، مع التطور العلمي والحضاري والتكنولوجي ، بأن الإمام الذي خلد ذكر نجه وأعاد المجد لجزيرة العرب منذ القرن الثاني عشر كان يمثل روح أمته .

فالعربي أو العربي الأصل فارس التوحيد الأمثل . كأنما نتجه الله ونتج الكون العظيم صنوين أو توأمين . فالتسييح ينصب انصباباً في كيان العربي بفطرته ، إذ يتحرك بين عناصر الطبيعة الكبيرة

كالصحراء ومدنها وكالجليل والبحر ، أو الصغيرة كحبة الرمل أو قطرة الندى . يأسره الإحساس بوجود خالقه معه في كل خطوة بخطوها وخطرة تخطر له . فيرعى همسات السماء سمعه ، وكأنها في حوار معه : بالجلجلة أو الصرير أو القيقظ أو الزمهرير ، حيث يقيم أو يرتحل ، من حيث تضمن الدنيا بالماء والأمن إلى حيث تسخو .

والدنيا كلها فلاة واسعة الجنبات تحت أظلاف خيله أو أخفاف عيره . فالضيقة والقلّة والمعاناة قوة له ، ومعونة على الرحلة . وفيها مفخرة لا مثابة . والرسول عليه الصلاة والسلام يهديه في مفازة الحياة بقوله (إن بين أيدينا عقبة كثوداً لا يجوزها إلا الخف) .

ومن الحركة والوحدة والتواصل بين السماء والصحراء كان الذكاء والسخاء والشجاعة وبعد المهمة ، ووجازة العبارة وامتداد الخيال والصدور عن الفطرة . فما أحراه بأن يكون جنديّ السماء . والعربى منطق بفطرته وزكاته . يعتبر ببرهان ربه إذ ينظر إلى إبله كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض التي سطحتها الخالق ؛ لتعلن له في كل دقة قلب أو طرفة عين أو نبضة عرق أن كل ذلك بقدر . يسيطر عليه الانسجام التام والتكامل الوثيق والتوافق الدقيق والتوازن الذي لا يتخلف . فتنتطقه بأن خالق هذا الكون كله واحد ، وأن هذا الانسجام والتكامل والتوافق والتوازن تسبيح من الأشياء للخالق ، وأن الناس جميعاً يستوون تحت سلطانه ، فلا أحد أقوى من صاحب الصحراء في إيمانه وفي يقينه بنصر الله له .

وفي البادية طلاقة وفي العروبة وضوح . والإعراب - من أجل ذلك - إفصاح . واللسان العربى لذلك لا يحتمل الغموض .

وفي العرب شموخ وبصيرة يمنعان إلقاء الزمام بالاستسلام للبدوات . ويحضنان على الاحتياط في التسار ، والاختبار قبل الاختيار ، مع الاستعانة بالفطرة والعقل لاستنباط المجهول عن طريق المعلوم الذى يلمس بالحواس الخمس . . يستوقفه ويكون فكره الأمر الظاهر له . الصافي صفاء السماء فوق إقليمه ؛ ولهذا أولّ المستعربون ولم يتأول العرب .

من هذه الواقعية في العروبة كانت الموضوعية في الفكر والتزام الصدق ، ومن واقعية العربى وصدقه واحتياطه لما أتى كل أمر التزم العلم الإسلامى من عهد السلف الصالح لكل خبر إسناداً ، في حين تخيل الآخرون وتصوروا أو تعاملوا دون تأكيد ، فلم تثبت أخبارهم ولا علومهم ، وتكاثرت فيها الأساطير فارسية وإغريقية .

وخاطب الله البشر باللسان العربى ورسوله العربى ، واختص البلدة المباركة ببيته العتيق ، ليهب للعربية والعروبة وجزيرة العرب صدارة . يقول الشافعى في الرسالة : (وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبى . ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير

لسانه في حرف واحد . بل كل لسان يتبع لسانه . وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه قال : (وإنه لتزِيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) .

وقال . . . وعرفنا بما خصنا به من مكانة فقال : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال : (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه في كتابه قال : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وأم القرى مكة وهى بلده وبلد قومه . فجعلهم في كتابه خاصة وأنذرهم مع المنذرين عامة) وقال : (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده) .

والعرب مادة الإسلام كما يقول عمر .

أو كما قال قتادة بن دعامة السدوسي (١١٧) : (إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيها ويظهرها ويفلجها وينصرها على من ناوأها . ومن قاتل بها نصر . إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل ويسير من الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها) .

ولا عجب أن تنزل الديانات في العرب وأن يقل من يتنصرون منهم أو يهودون . فالعربى دينه التوحيد لا يسوغ التشبيه أو التجسيد ، ولا يعبد المال ، ولا يخضع لسيطرة .

وليس عجباً أن يعيش المسلمون بعد الأجيال الثلاثة الأولى في مستوى أدنى من الإسلام ذاته ، إذ ضعف العرب وتقهرت العروبة وتكاثر الشعوبيون .

وفي حين لم يدخل العرب بلداً إلا جنوداً لله لا يغزون أو يستعمرون . وكثيراً ما ينسحبون تاركين أهل البلاد المفتوحة بعد إذ يسلمون ، جاء الفرس والترك والتتار إلى بلاد العرب غزى جبارين .

فلا تسأل : لماذا أنزلت الديانات في أرض العرب ولا كيف كان التوحيد سليقة تسبق دعوة ابن عبد الوهاب وجيوش ابن سعود إلى أرجاء جزيرة العرب . فإنما عملت في خدمة الدعوة الفطرية العربية واللسان العربى والاتجاه إلى البيت العتيق صباح مساء .

* * *

وبعد : فما الذى يدلى به الشيخ في مجالسه أو في كتبه ؟ إن رسالات للعلماء وإن مؤلفات تعد بالعشرات ، وهو قد جلس للتدريس ستين عاماً أو تزيد وأوفد الوفود ، وأوصى الكتاب في الزخوف ، وعلم الأمراء والعلماء والجمهور والمتفقهة ؟ إن الجواب يمكن تحصيله في كليات هى :

١ - الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر فلا إله إلا الله وحده .

٢ - تحرير الفكر الإنسانى من مذلة التقليد واتباع السابقين إلا أن يكون عملاً نتبعه ونحن

نفهمه عمله الرسول وصحبه فذلك اتباع لا تقليد .

٣ - تحرير الفكر الإسلامى مما يدخله عليه المؤولون من آراء رأوها أو أوهاهم توهموها أو أكاذيب روج لها أعداء الدين .

٤ - الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد فى سبيل الله أمراً بالمعروف أو ائثاراً به ونهياً عن المنكر أو انتهاء عنه .

والشيخ فى تطبيق هذه المبادئ الأربعة وتعليمها ينهج نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم ، وتلقيح ألباب الرجال وثقيفهم وتطهير أنفسهم . ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه والشيخ يحى سنة درست ، ويصوب علماء تواتروا على القعود فى صحون المساجد دون عمل ، أوفى قاعات التدريس قانعين بالشروح والتعليقات ومقلدين للسابقين .

ولئن كان من العلماء من رابط مع أصحاب الرباط أو كان فى حاشية الملوك فى الحروب ، إن الشيخ صنع ما لم يصنعه هؤلاء وما لم يصنعه شيخه ابن تيمية ذاته ، إذ تعاهد على الحرب مع الأمير ، وخاض معاركها ، ونصر الله المسلمين فيها به . وبدأت به مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام .

وبهذه الخصيصة ، وما أثرت فى تاريخ الإسلام ، وضع ابن عبد الوهاب اسمه فى جوار هذا الثبت الحافل بأسماء أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وابن تيمية .

المدخل إلى التوحيد

أدرك الشيخ ضرورة أن يعاد بنيان المجتمع على أساس الشريعة ، لأن التوحيد لن يبلغ مبلغه إلا أن يحصن إيمان الأفراد . ويهين أنفسهم بأوليات العقيدة ليعملوا بها ، فأتبع كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) كتباً شتى فى أبوابها مجتمعة فى غرضها ، وهو إعداد الناس ليدركوا معانى الكتاب الأول ويلتزموها .

وهذا ظاهر من استعراض بعض الكتب مثل :

مسائل الجاهلية وشرح سورة الفاتحة وتفسيراته للآيات المتفرقة والسور القصار وكتاب الكبائر ونصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين والأصول الثلاثة وأدلتها وأصول الإيمان والكلمات النافعة والمسائل المائة وفضل الإسلام ومجموعة الرسائل . . إلخ . إلخ .

ولم يكن الشيخ ليوفى على الغاية إلا بما بلغه من شمول فكر يتجلى فى أمرين :

١ - الاقتدار فى فقه العبادات والمعاملات ؛ فالفقه أشرف العلوم الإسلامية ؛ لأنه أداة

العدل ، وضابط العمل في الصحة والفساد .

ومن شرف الفقه يشرف الفقهاء العاملون به ، ويحزى العلماء الذين لا يعملون .
 ٢ - الإحاطة الدقيقة بسيرة صاحب الرسالة ومالقيه في الدعوة إن سلماً وإن حرباً . والسيرة صميم المنهج السلفي ؛ لأنها تطبيق على يد صاحب الشريعة وصحبه . وتطبيق السلف حجة . وعلى ذلك كان من أهم ما كتبه الشيخ وعلمه بعد كتاب التوحيد مختصران في الفقه والسيرة : الأول منها يكفي لوضع الشيخ في موضعه بين عطاء الفقهاء إذ هو مختصر كبير لكتابين كبيرين في المذهب .

والآخر يكفي كل مسلم ليدرك صميم الرسالة وجوهرها ويطابق القول والعمل وجلال الأسوة من عمل النبي وصحبه . والسيرة مصدر للفقه .

وفي الاختصار مشقة ودقة . وبخاصة في كتب الفقه لما يجب لها من جمع الفكر العظيم في حيز ضئيل ، ثم بسطه للقراء ، مع إسقاط التفاصيل وإضفاء الفهم الذاتي لمن يصنع ذلك ، ومن ذلك يعتبر المزني بمختصره أفقه أصحاب الشافعي .

وليست سيرة النبي سيرة واحد من العطاء ؛ وإنما هي التطبيق الحي للرسالة كما أنزلها الله وأراد تطبيقها ، فالاختصار فيها درجة اقتدار وإحاطة تضوّل دونها شروح المحشين والمعلقين .

* * *

في هذه الكتب جميعاً يقدم الشيخ الدليل القرآني والحديث النبوي وعمل الصحابة والتابعين وإليك أمثالا :

في كتاب الكبائر اهتمام ملحوظ بنزاهة الراعي وطاعة الرعية - أي بنظام الدولة - وفي ذلك يحدث حديث ابن عمر : (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وأكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) وحديث ابن عباس : (من كره من أميره شيئاً فليصبر ؛ فإن من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية) وحديث عرفة : (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وحديث حذيفة : (ستكون بعدى أئمة لا يهتدون بهديي ، ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جحائم إنس ! قلت يا رسول الله : كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك) .

وحديث أبي هريرة : (سأل أعرابي النبي ﷺ متى الساعة ؟ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ؛ قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) .

وحديث أبي بصير : (لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً فيها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك) .

وفي هذا الباب الأساسى لصلاح الدولة والأمة : ينص الشيخ أسانيد الرحمة فيروى دعاء الرسول : (اللهم من شق على أمتي شيئاً فشق عليهم واشقق عليه . ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق عليه) وحديث أبي مریم الأزدي قال معاوية : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله من حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) .

والشيخ إمام يعطى كل ذى حق حقه ، وحق الأمير الطاعة ، وحق الأمة العمل فى خدمتها فهى تطيعه ما أطاع فيها الله .

— وفى كتاب فصل الإسلام يتصدى لحاجات الجماعة فيبين خطر البدع على الفرد والجماعة : فى الصحيح أن النبي ﷺ قال فى الخوارج (متى لقيتموهم فاقتلوهم) .

ويذكر الشيخ حجة قاطعة (ذكر للنبي : أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال ثان : فأما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء ، قال رابع : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، فقال : لكننى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى) . ويضيف الشيخ « فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل فى العبادة وقيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمى فعله رغوباً عن السنة فكيف بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟

ثم ينتقل الشيخ من الاستشهاد بالتبتل ليتكلم عن التبذل لتتجلى الحجة فى الشئ وفى نقيضه . فيروى عن سعيد أخى الحسين أنه قال : (إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله ولم يظهر فيكم السكران سكر الجهل وسكر حب العيش . وستحولون عن ذلك ، فالتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين) ذلك معنى قوله ﷺ : (طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يُترك ، ويعملون بالسنة حين تُطفأ) . وقوله ﷺ : (. . .) إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) .

والشيخ يعرف البدعة تعريفاً نبوياً لا يرقى إليه اشتباه فيروى حديث حذيفة : (كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها ، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم) .

- وفي كتاب أصول الإيمان يروى عن ابن عمر قول النبي ﷺ : (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس) .

وعن ابن القيم قوله : فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجهد والاجتهاد . ولذلك لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت أشد اجتهاداً مني الآن . وقال أبو عثمان النهدي لسلمان : لأننا بأول الأمر أشد فرحاً مني بآخره .

ويروى عن أبي الدرداء : (ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته ؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئاً . «وما كان ربك نسياً») .
وعن علي : (الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره . إنه لا خير في عبادة لا علم فيها . ولا علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها) .
وعن الحسن إذ سمع قوماً يتجادلون : (هؤلاء قوم ملّوا العبادة وخف عليهم القول ، وقل ورعهم ، فتكلموا) .

* * *

وفي الأصول الثلاثة وأدلتها يقول بين تفصيل طويل : إن على كل مسلم أن يتعلم أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا وأن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحدٌ . وأن من أطاع الرسول ووحده الله لا يجوز له موالة من حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .
ويوالى الشيخ شرح القيم التي لا معدى عنها لقيام مجتمع سليم فينبه على تضامن الجماعة والبر بدوى القرى ، وعلى أن إحسان العمل بحاجة إلى توفيق الله ورضاه وإن أحسن الإنسان كل الإحسان .

يروى عن عمر وكأنه يرى مصير قاضيه في تحكيم على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين : (عن أبي بردة بن أبي موسى قال : قال لى عبد الله بن عمر : هل تدري ما قال أبى لأبيك ؟ قلت لا ؛ قال : فإن أبى قال لأبيك : يا أبا موسى ، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه وجهادنا معه يرد لنا ، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس ؟ فقال أبوك لأبى : لا ، والله ، فقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك ، ولكنى أنا ، والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن يرد ذلك لنا . وأن كل عمل عملناه ، بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس . فقلت : إن أباك والله كان خيراً من أبى) .
ويروى قول ثوبان عن النبي عليه الصلاة والسلام وكأنما يقصد بها عضرنا الحالى : «توشك

الأثم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن» قال قائل : يارسول الله ما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »

- ويجمع في (المسائل المائة) رؤوس مسائل لم يعد للإسهاب فيها فيما بعد . وكلها تدور حول الأمور التي أصلح الله بها بال المسلمين . ومدارها التوحيد والحرية وطهارة النفس واعتبار الحق هو القيمة الحقيقية .

ويظهر فحوى هذا الكتاب من فاتحته . فالمسألة الأولى من المسائل المائة هي أنهم كانوا في الجاهلية (يعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله تعالى وعبادته ، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذي يحبه الله . ويريدون بذلك شفاعتهم عند الله لظنهم أنهم يحبون ذلك كما قال تعالى في سورة الزمر ٢-٣ : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون) قال تعالى في سورة يونس/ ١٨ : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله فأتى بالإخلاص . . . وهذه المسألة هي الدين كله . ولأجلها يفرق الناس بين مسلم وكافر . وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شرع الجهاد ، وكما قال تعالى في البقرة/ ١٩٣ : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) .

التوحيد

ألف الشيخ كتاب (التوحيد الذي هو حق المولى على العبيد) في ثلاثيناته وهو في طليعة مؤلفاته إن لم يكن أسبقها كافة^(١)

(١) عني المؤلفون في سيرة ابن عبد الوهاب ودعوته بهذا الكتاب ومن أوائلهم آل الشيخ أنفسهم ، ولهم فيه أكثر من شرح ، ولعل أكثرها تداولاً كتاب فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد ، ألفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ (١٢٥٦) مضافاً فيه إلى تأليف سابق قام به حفيد آخر للشيخ هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب سماه (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد) ، ثم اختصره في كتاب آخر (قرة عيون الموحدين) .

ونفى عبد الرحمن إلى مصر حيث درس بالأزهر ، ثم عاد إلى نجد سنة ١٢٤١ . يقول عنه ابن بشر في كتاب (عنوان المجد) ، إذ يروى حوادث تلك السنة : (وفيها أقبل من مصر العالم النحرير والبحر الزاخر الغزير مفيد الطالين المخصوص بعناية رب العالمين جامع أنواع العلوم الشرعية) .

ولئن ساغ تقديم فحوى الكتاب في كلمات - فهي أن الشيخ يرى أن التوحيد ليس بمجرد توحيد الربوبية : إن الله وحده خلق العالم ، بل الإقرار بأن الله هو المستحق وحده للعبادة مع الالتزام بتنفيذ هذا الإقرار.. وذلك أن المشركين العرب كانوا يقولون بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين بقوله تعالى في سورة يوسف/ ١٠٦ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركين) . ويقول في سورة البقرة/ ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) . فكلمة لا إله إلا الله لا تنفع قائلاً إلا أن يعرف مدلولها نفيّاً وإثباتاً . ومن قالها على غير علم واعتقاد وعمى فهو جاهل ، ومن أشرك بالله عن جهل وجب تعليمه . فإن أصر لزوم حربه . ويبين الشيخ حقيقة التوحيد كما فهمها المسلمون من السلف الصالح وضروب الشرك التي سقط فيها بعض المسلمين عندما تدهوروا في القرون اللاحقة ، واعتقدوا اعتقادات فاسدة ، وأقفلوا باب الاجتهاد ، وقعدوا عن الجهاد .

والمعتقدات الفاسدة هي التي أمكنت أعداء المسلمين من المسلمين يجهلهم خصائص الدين . وإطفائهم شعلة العقل وتقليد قليل من الرجال أزمة تفكيرهم ، والرضا بمجرد الحياة على وجه الأرض ، لا بالحياة التي ترفع المسلم درجات .

يستفتح الشيخ بالآي من الكتاب الكريم مثل قوله تعالى في سورة الذاريات/ ٥٦ : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) . وقوله في سورة الإسراء/ ٢٣ : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وقوله في سورة النساء/ ٣٦ : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقوله في سورة الأنعام/ ١٥١ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) : أي يبدأ بتخصيص الخلق بعبادة الله وباجتناب عبادة الشيطان وعدم إشراك أحد مع الله .

ثم يورد قول ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : (أتل ما حرم ربكم عليكم - إلى قوله وأن هذا صراطي مستقيماً) . وحديث معاذ بن جبل : (كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا) .

وإيراد الحديثين بعد الآيات شرح للكتاب بالسنة وهو منهج الإمام أحمد تبعه فيه ابن تيمية فأبن عبد الوهاب ومن أخذ أخذهم .

وعبادة الخالق لا تقبل عبادة المخلوقات ، وتستلزم الإذعان التام بإسلام الوجه لله تعالى بإخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق . ولا يصدق ذلك من خالف قلبه لسانه فهو عاص منافق ، وإنما

الصادق هو المحب في الله والمبغض في الله ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى في سورة التوبة / ٧١ : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . والرسول يقول : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) .

وتحقيق التوحيد تصفيته من شوائب الشرك في العبادة بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات أو الغائبين أو الطواغيت أو الجن أو طلب الخير من غير الله ، فمن دعا غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه أو رهبة منه سواء سأل أو لم يسأله - فهذا هو الشرك ؛ ولهذا حرم الله اتخاذ الشفعاء . فمن اتجه إلى الشفيع فقد أعرض عن الله . والله تعالى يقول في سورة البقرة / ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فمن يتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو مشرك ؛ وليس شرك المشركين بعبادة الأصنام وحدها ، وإنما بدعاء الغائبين والموتى لجلب نفع أو دفع ضرر ، فهذا من الشرك الأكبر .

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) الأعراف / ١٨٠ فالتوسل إلى الله يكون بأسمائه وصفاته كقوله (اللهم إني أسألك أنت الله لا إله إلا أنت . . .) .

والذين يتخذون الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله يتبعونهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام ويحبونهم كأنهم أنداد الله - يشركون .

والذين يغفلون في قبور الصالحين ويبنون عليها المساجد والمشاهد يشركون . ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحو ذلك لرفع البلاء أو دفعه ، فالتوسل في سورة الزمر / ٣٨ : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره؟) والرسول يقول : (من تعلق تيممة فلا أتم له الله ومن تعلق ودعة فلا ودع له الله) ويروى ابن مسعود عن الرسول : (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) (١) وإبراهيم النخعي يقول : إنهم كانوا يكرهون التمام (١) إذا كان في الرقية ذكر الله تعالى فإنه يستحب والرقية حيث تدعى ورجاء الله تعالى . وقد كانت رقى أهل الجاهلية ممزوجة بالسحر .

ويقول النبي ﷺ : (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية) . أما الحزن من غير جزع والبكاء بغير عويل ففيه قول عمر إذ سمع النسوة يبكين خالد بن الوليد وأراد بعض منعهن فقال : (دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع ولقلقة) . والنقع التراب على الرأس والقلقة الصوت . ويقول تعالى في سورة الإسراء ٥٧ : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوفاً) . فالتوسل ينكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم لأن دعاء الغائبين والموتى لجلب منفعة أو دفع مضرة شرك أكبر لا يغفره الله .

ومن الشرك ما يعطل العقل ويدفع إلى التقليد ويمنع الاجتهاد : قال تعالى في سورة التوبة ٣١ : (اتخذوا أحرارهم ورهبانهم

= وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدى بن حاتم الطائي فقال عدى : (يا رسول الله لسا نعبدهم قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونهم ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال بلى : قال النبي ﷺ : فتلك عبادتهم) .
والرسول يقول : (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك . .) .
ويقول : (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تلمهم على ما لم يؤت الله . وإن رزق الله لا يجره حرص ولا يرده كراهية كاره) .

وأما كونهم يعتقدون التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما كانت تفعله جاهلية العرب ويقطعه الصوفية الجاهال وينادونهم ويستجدونهم - فهذا من المنكرات . وأما كونهم مستبدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشى الله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة .
فهذا ظن أهل الأوثان !

ولقد كان على وعمر من أصحاب الكرامة ، وكلاهما عاقب على الشرك أشد العقاب : الأول خذ الأخاديد لمن غلوا فيه .
والآخر - وهو المحدث - لم يدع لنفسه كرامة ، بل كان من أكثر المسلمين عملاً وتواضعاً لله .
وأما ما قاله المتصوفة من أن منهم أبدالاً وتقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس - فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين وابن الجوزي وابن تيمية . والله يقول في سورة الأعراف ١٨٨ :
(قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله) والرسول حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) يقول : (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية (عمة رسول الله ﷺ) لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) .
ويقول ابن القيم : (ومن أنواع الشرك طلب الحاجات من الموتى والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، ولا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً) .

والله يقول : (فصل لربك وانحر) : أى لله وحده . .

قال رسول الله ﷺ : (لعن الله من ذبح لغير الله) .

فهذه النذور من عباد القبور تقريباً إلى أصحابها ليقضوا الحاجات كلها لشرك لا ريب فيه : يقول الله تعالى :
الأنعام/ ١٣٦ (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله يزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . ويقول ابن تيمية : كالنذر للأصنام والشمس والقبور . . والنذور لزيرة القبور معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء بها والنذر لسدنة القبور والمجاورة للقبور معصية لاشك فيها . وإن قصد الناذر تعظيم القبة أو المشهد أو الزاوية أو من دفن فيها فالنذر باطل لا ينعقد بالإجماع .
ومن الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره :

يقول ابن تيمية : فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها : الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح : فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدى ، فلان ، انصرنى أو أغثنى أو ارزقنى أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال - فكل هذا شرك وضلال .
ويقول : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً .

وهذا الذى يقوله الإمام الحنبلى يقوله الأحناف : في الفتاوى البزازية : من قال أرواح المشايخ حاضرة فقد كفر . وقال الشيخ صنع الله الحنفى : أما قولهم للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد المات فيرده قوله تعالى في سورة النمل / ٦١ - ٦٤ (إله مع الله ؟) .
وسورة الأعراف / ٥٤ (ألا له الخلق والأمر) . . . الخ . . . الخ .
=

كلها من القرآن وغير القرآن . وعلى ذلك كان كل تلاميذ عبد الله بن مسعود ، وعن عتبة بن عامر أنه جاء في ركب عشرة إلى رسول الله ﷺ ، فبايع تسعة ، وأمسك عن رجل منهم ، فقالوا : ما شأنه ؟ قال : إن في عضده تيمة فقطع الرجل التيمة فبايعه رسول الله ﷺ ثم قال : (من علق تيمة فقد أشرك) .

وعن ابن مسعود أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود ، فجذبه فقطعه ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقي والتائم والتولة شرك » قالوا يا أبا عبد الرحمن : هذه الرقي والتائم قد عرفناها فما التولة ؟ قال شيء تصنعه النساء يتحيين به إلى أزواجهن .

وقد تعلم المسلمون من كتابهم وسنة رسولهم أن يطلبوا المسيبات من أسبابها ويعرضوا عما يقوله بعض من أسباب خفية يزعمونها ويروجها سدة المعابد والمتاجرون بالأوهام والله يقول . (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) - النمل ٦٥ . ويقول (ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) الأعراف ١٨٨ . ويقول : (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سبأ - ١٤ والرسول يقول : (من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما قال لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) ويقول : (من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) .

والرسول يقول في السحر والطيرة : (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له) .

وفي النفث في العقد يقول : (من نفث في عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشرك) . وسئل عليه السلام عن النشرة - حل السحر عن المسحور - فقال : (هي من عمل الشيطان) والسحر واحد من الموبقات وحد الساحر ضربه بالسيف ، فالسحر شرك ، ومن أتى عرافاً فصدقه فقد أتى عملاً من أعمال الشرك .

والنشرة مثل السحر فإن كانت بسحر فهي مثله . وإن كانت بدعاء أو بدواء ونحو ذلك فهي حلال . ولما ذكرت الطيرة - وهي التشاؤم بالمرئى أو المسموع - عند رسول الله قال : أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : (اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : (من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفارة

= ويقول الرسول : (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) ، فسئل عنه فقال : الرياء .

ويقول : (الشرك الخفى : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) .

فخافة الآخرين ومراءاتهم شرك صغير ، وهو لا شك كثير الحدوث ، فهو يضعف الإيمان في الأمة ، وذلك كان أخوف ما خافه عليها .

ذلك ؟ قال : أن يقول (اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) .
والنائحة ترتكب إحدى الكبائر . وفي الحديث شدة الوعيد عليها قال عليه السلام : (النائحة إذا لم
تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) .
ومن الشرك التبرك بشجرة أو نحوها ! قال أبو واقد الليثي : خرجنا مع رسول الله إلى حنين ،
ونحن حدثاء ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ،
فقررنا بسدرة فقلنا ، يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : (الله أكبر ؛
إنها السنن . قلتم ، والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال
إنكم قوم تجهلون ^(١)) ، لتركن سنن من كان قبلكم)

ومن الشرك النذر لغير الله : كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور . والعبادة إذا صرفت لغير
الله صارت شركاً والرسول يقول : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله
فلا يعصه) .

ومن الشرك الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله . وهو يقول في سورة يونس / ١٠٦ : (ولا تدع
من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) .
روى الطبراني (٣٦٠) أنه كان في زمن رسول الله منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم :
قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث
بالله) . وما هذا إلا لحماية التوحيد وسد ذريعة الشرك والتأديب مع الله . والله تعالى يقول لنبيه
آل عمران / ١٢٨ (ليس لك من الأمر شيء) . ولما نزلت على رسول الله (وأنذر عشيرتك
الأقربين) . قام فقال : (يامعشر قريش أوكلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم لا أغني عنكم من الله
شيئاً . . .) .

والشفاعة نوعان :

نوع منفي في القرآن : يقول الله تعالى في سورة يونس / ١٨ : (ويعبدون من دون الله
ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) . وهذا شرك بقوله تعالى في سورة
يونس / ١٨ : (سبحانه وتعالى عما يشركون) .

والنوع الآخر : أثبتته القرآن ، وقيده الله تعالى بأمرين : ١ - إذنه للشافع قال تعالى في سورة
البقرة / ٢٥٥ : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ، ٢ - ورضاه عمن أذن للشافع أن يشفع
فيه قال تعالى في سورة الأنبياء / ٢٨ : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

الغلو في الصالحين

ويستطرد الكتاب . فثمة باب تدور حوله أبواب . هو (ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) . وفي الصحيح عن ابن عباس في قوله تعالى في سورة نوح / ٢٣ : (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تعبد . حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم حقيقة أمرهم عبت . أما وداً فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل . وأما يغوث فكانت لمراد . ثم لبني القطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لآل ذي الكلاع^(١) . ويستقل من عبادة الأصنام إلى عبادة القبور والنبي ﷺ يحذر منها بقوله : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . ويقول : (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) . وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً .

ومالك يروى في الموطأ عن الرسول : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، وعن ابن عباس قال : (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور

(١) ويقول الشيخ في كتاب مختصر السيرة :

(ومن أقدم أصنامهم مائة وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللات في الطائف وقبل : إن أصل ذلك رجل يلت السوق للحاج ، فأت ، فعكفوا على قبره وكانت صخرة مربعة سدنتها ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً ، فكان جميع العرب يعظمونها ، وكان العرب تسمى « زيد اللات وتيم اللات » وهي في موضع منارة مسجد الطائف . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فهدمها ، وأحرقها بالنار ، ثم اتخذوا العزى وهي أحدث من اللات . وكانت بوادي نخلة فوق ذات عرق . وبنوا عليها بيتاً ، وكانوا يسمعون منها الصوت ، وكانت قريش تعظمها . فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فهدمها . هبل : وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان ، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفراً أتوه فاستقسموا بالقدرع عنده . وكان لهم أساف ونائلة : أصلها أن أسافاً رجل من جرهم ونائلة امرأة منهم ، فدخلوا البيت ، ففجرا فيه ، ففسخها الله حجرين ، فأخرجوهما ، فوضعهما ليتعظ بهما الناس ، فلما طال الأمد وعبدت الأصنام عبداً . وذو الخلصة وكان الخشم ويجيلة بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ لجريز بن عبد الله البجلي : (ألا تري أني من ذي الخلصة) فسار إليه فقاتلته همدان فظفر بهم وهدمه . وكان لأهل كل واد بمكة صنم إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به . وصنم عم أنس ، وكان لحولان وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظم الكعبة ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن في وجوهها وعيونها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) الإسراء ٨١ . وهي تتساقط على رؤوسها . ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وأحرق .

والمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسَّرَجَ) . وعن علي زين العابدين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي فيدخلها فيدعوفنها وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : (لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا علىّ وإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ^(١)) .

وهذا يدل على أن قصد القبر للسلام ممن يدخل ليصلي منهي عنه . وأن قصده للدعاء منهي عنه .

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ^(٢) . وكان الصحابة - والتابعون يأتون مسجد النبي فيصلون فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا . ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هي السنة . وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه في قوله (لا تتخذوا قبوري عيداً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني) .

والحسن بن زين العابدين يقول لسهيل بن أبي سهيل : ماذا رأيت عند القبر؟ فيجيبه : سلمت على النبي ﷺ . فيقول له : إذا دخلت المسجد فسلم . إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبوري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم . لعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

* * *

وفي كتاب كشف الشبهات يواصل الشيخ شرحه الآي واحدة بعد أخرى . يقول : (اقرأ قوله

(١) العيد يجمع معاني : منها الاجتماع المعتاد ، واليوم العائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها الأعمال التي تتبع فيه (الاحتفالات والمواالد) .

(٢) يقول مالك : (لا أرى لمن يدخل مسجد الرسول أن يقف عند قبر الرسول ﷺ ولكن يسلم ويمضي) . ويقول القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الدريعة في قبر النبي ، فأعلوا حيطان تربته . وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدة بقبره ، لم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره .

ونص أحمد أن يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستديره . ويقول الشافعي : أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة على من بعده من الناس .

وذكر الزيلعي أنه يكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضي خان (وهو حنفي) أنه لا يبنى على القبور ولا يخصص كراهة تحريم . وابن حجر يذكر أن بناء القباب على القبور من الكبائر .

ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بأجر ، وأوصى الأسود بن يزيد : (لا تجعلوا على قبوري أجراً) ، وأوصى أبو هريرة عند موته لا يضربوا على قبره فسطاطاً ، وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاط .

وبعد أن منع الرسول زيارة القبور أباحها للاعتبار .

تعالى في سورة يونس / ٣١ : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . »
 ويقول تعالى في سورة « المؤمنون » / ٨٤-٨٩ : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون) . وغير ذلك من الآيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد ، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم أو يدعورجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى في الجن / ١٨ : (وأن المساجد لله فلا تدعومع الله أحداً) . وكما قال تعالى في الرعد / ١٤ : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام - عرفت حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون .

وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً ، وإنما يعنون بالإله ما يعنى المشركون في زماننا من كلمة السيد^(١) فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد . . . معناها لا مجرد لفظها) .

الفتاوى :

في فتاوى الشيخ ورسائله توضيح لفكره ، وكذلك فتاوى أبنائه بعده وكانوا حقاً علماء ، وإليك أمثالا :

١ - رسالة جوابية من محمد بن عبد الوهاب .

يقول في الشرك : (. . . قيل : إن أول آية نزلت قوله سبحانه وتعالى بعد اقرأ - (يا أيها المدثر قم فأنذر) قف عندها ثم قف ثم قف تر العجب العجيب . وتبين لك ما أضاع الناس من الأصول . وكذلك قوله تعالى في النحل / ٣٦ : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) الآية وكذلك قوله تعالى في الجاثية / ٢٣ : (أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه) . . . ولكن أظنك وكثيراً من أهل هذا

(١) قول أهل زماننا : (سيدى فلان) .

الزمان ما تعرف من الآلهة المعبودة إلا هبل ويغوث ويعوق ونسراً واللات والعزى ومناة . فمن جاد فهمه عرف أن المقامات المعبودة اليوم من البشر والشجر والحجر ونحوها مثل شمسان وإدريس وأبو حديدة ونحوهم ، منها . هذا ما أثمر به الجهل والغفلة)

ويقول في الاجتهاد : (. . . وهذه المسائل وأشباهها مما يقع الخلاف فيه بين السلف والخلف من غير نكير من بعضهم على بعض ، فإذا رأيتم من يعمل ببعض هذه الأقوال المذكورة بالمنع مع كونه قد اتقى الله ما استطاع لم يحل لأحد الإنكار عليه اللهم إلا أن يتبين الحق فلا يحل لأحد أن يتركه لقول أحد من الناس . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون في بعض المسائل من غير نكير ما لم يتبين النص ، فيجب على المؤمن أن يحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطئوا ، لكن لا يتخذهم أرباباً من دون الله . . .) .

— وفي الصفات يقول ابنه عبد الله :

(الجواب وبالله التوفيق عن آيات الصفات وأحاديثها التي اختلف فيها علماء الإسلام فنقول : الذي نعتقد وندين لله به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضي الله عنهم أجمعين . وهو الإيمان بذلك والإقرار به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل . . .) .

وفي جواب من يسأل عن كان يستغيث بالمخلوق عند الشدائد بالدعاء والدعاء ويستغيث ويتوسل ويتوجه بنيه أو بالصالحين .

(والجواب : أما سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره تفريج الكربات وإغاثة اللهفات والاستغاثة به في الأمور المهمات فهو من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين . . . ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ولا كانوا يقصدون قبورهم للدعاء والصلاة عندها ، ولهذا ثبت في الصحيح أن الناس لما قحطوا في زمان عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال : اللهم ، إنا كنا نتوسل إليك إذا أجدبنا بنينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم بنينا فاسقنا ، فيسقون . وكذلك معاوية رضي الله عنه لما استسقى لأهل الشام توسل بيزيد بن الأسود الجرشي ، فهذا الذي ذكره عمر رضي الله عنه توسل منهم بدعاء النبي وشفاعته في حياته ؛ ولهذا توسل بعده بدعاء العباس وتوسل معاوية بدعاء يزيد بن الأسود (١) . .)

(١) وتستمر الفتوى .

— وهذه الأمور المبدعة عند القبور أنواع : أبعدها عن الشرع من يسأل الميت كما يفعله كثير من الناس . وهؤلاء من جنس عباد الأصنام . فكل من دعا نبياً أو ولياً أو صالحاً وجعل فيه نوعاً من الإلهية فقد تناولته هذه الآية . فإنها عامة في كل من دعا من دون =

ورفتى أبناء الشيخ حسين وإبراهيم وعبد الله وعلى فرادى أو مجتمعين . من ذلك : قول حسين وعبد الله جواباً على استفتاء : (إن عقيدة الشيخ رحمه الله . . هي عقيدة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان . . وإذا تفقه الرجل في مذهب من المذاهب الأربعة ثم رأى حديثاً يخالف مذهبه فاتبع الدليل وترك مذهبه - كان هذا مستحباً بل واجباً عليه إذا تين له الدليل . ولا يكون مخالفاً لإمامه الذي اتبعه . فإن الأئمة كلهم متفقون على هذا الأصل) . وأما إذا لم يكن عند الرجل دليل في المسألة يخالف القول الذي نص عليه العلماء أصحاب المذاهب فترجو أنه يجوز له العمل به لأن رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وإنما أخذوا الأدلة من أقوال الصحابة فمن بعدهم . ولكن لا ينبغي الجزم بأن هذا شرع الله وشرع رسوله ، حتى يتبين الدليل الذي لا معارض له في المسألة . وهذا عمل سلف الأمة وأئمتها قديماً وحديثاً والذي ننكره هو التعصب للمذاهب وترك اتباع الدليل (١) .

= الله مدعوا... سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد فعل الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . . . وقد نص الأئمة أنه لا يجوز الاستغاثة بمخلوق . . . والغلو في الصالحين هو من فعل المشركين كما حكاها الله تعالى عن قوم نوح فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من العبادة مثل أن يقول : يا سيدي فلان انصرفي أو اغثني أو ارزقني أو أجري أو أنا في حسبك أو نحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه

النوع الثاني من الأمور المبدعة عند القبور أن يسأل الله تعالى به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين . وهو من البدع المحدث في الإسلام ، ولكن بعض العلماء يرخص فيه ، وبعضهم ينهى عنه ويكرهه . وليس هذا مثل النوع الذي قبله ، فإنه لا يصل إلى الشرك الأكبر عند من كرهه ولا يسمى هذا استغاثة بالرسول ، وإنما هو سؤال به . والفرق بينه وبين الذي قبله فرق عظيم ، فإن المستغث بالشئ طالب منه سائل له والمتوسل به لا يدعو ولا يطلب منه ولا يسأل . وإنما يطلب به ، والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ لا نعلم أحداً من السلف فعله : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول : (بمعقد العز من عرشك أو بحق خلقك) وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا . وأكره بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشرع الحرام .

النوع الثالث من الأنواع المبدعة عند القبور : أن يظن أن الدعاء عندها مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد ، فيقصد القبر لذلك ، فإن هذا من المنكرات إجماعاً

(. . . . من مات على التوحيد وإقامة قواعد الإسلام الخمس وأصول الإيمان الستة ولكن كان يدعو وينادي ويتوسل في الدعاء إذا دعا ربه ويتوجه بنبيه في دعائه معتمداً على الحديثين اللذين ذكرناهما أو جهلاً منه وغباوة - كيف حكمهم ؟ فالجواب أن يقال : . . . في أزمنة الفترات وغلبة الجهل لا يكفر الشخص المعين بذلك حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، وبين له ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله . فإذا بلغت الحجة وتليت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، لم أصر على شركه - فهو كافر ، بخلاف من فعل ذلك جهالة منه ولم ينبه على ذلك . والجاهل فعله كفر . ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه . وأما من مات وهو يفعل الشرك جهلاً لا عناداً فهذا نكل أمره إلى الله تعالى) .

(١) وتستمر الفتوى .

لا يجوز تقبيل أيدي العلماء والسادة الأغنياء في التحية ، ويتخذ ذلك عادة وسنة ، بل ذلك من البدع المحدث . فيجب على المسلمين إزالتها والنهي عنها . وأما تقبيل اليد في بعض الأحيان كتقبيل يد العالم لمعلمه ، أو من كان من أهل بيت رسول الله ﷺ =

= لشرف نسبه - فلا بأس بذلك إذا لم يجعل عادة مستمرة كما صحح في الحديث : أن أبا عبيدة قبل يد عمر . والفرق أن ما يفعل في بعض الأحيان يجوز ، وأما ما يجعل عادة وسنة فلا يجوز .

- إن الرجل لا يكون مسلماً إلا إذا عرف التوحيد ودان به . فن قال : لا أعادي المشركين . أو عاداهم ولم يكفرهم ، أو قال : لا أتعرض لأهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر أو الشرك وعادوا دين الله . أو قال : لا أتعرض للقباب - فهذا لا يكون مسلماً بل هو ممن قال الله فيهم في سورة النساء ١٥٠ - ١٥١ :

(ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقا) . والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنازلتهم وتكفيرهم فقال في المجادلة ٢٢ : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . . .

- إن قول (سيدى) ونحوه إن قصد به أن هذا الرجل معبوده الذى يدعو عند الشدة لتفريج الأزمات وإغاثة اللهفات فإن ذلك شرك أكبر ، وأما إن كان مراده غير ذلك كما يقول الأنبياء لشيخه (سيدى) أو يقال للأمير والشرىف أو لمن كان من أهل بيت الرسول هذا سيد ، فهذا لا بأس به . ولكن لا يجعل عادة وسنة بحيث لا يتكلم إلا به . وثبت أن رسول الله قال : (أنا سيد ولد آدم) وقال في الحسن : (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين) .

- إن صاحب البردة ومن في كلامه الشرك والغلو في الذين ماتوا لا يخكم بكفرهم ، وإنما الواجب إنكار هذا الكلام وبيان أن من اعتقد هذا على الظاهر فهو مشرك كافر . وأما القائل فيرد أمره إلى الله سبحانه . ولا ينبغي التعرض للآموات ، لأنه لا يعلم هل تاب أو لا ؟ وأما شعر ابن الفارض فإنه كفر صريح ، لأنه شاعر الاتحادية الذين لا يفرقون بين العابد والمعبود والرب والمربوب ، بل يقول بوحدة الوجود وهو من طائفة ابن عرى الذين قال فيهم ابن المقرئ الشافعى : من شك في كفر طائفة ابن عرى فهو كافر والله أعلم .

- إن القراءة على القبور وحمل المضاحف إلى القبور يفعلها بعض الناس . يجلسون سبعة أيام وسمونها الشدة . وكذلك اجتماع الناس عند أهل الميت سبعة أيام ويقرءون فاتحة الكتاب ويرفعون أيديهم بالدعاء للميت ، فكل هذا من البدع والمنكرات المحدثه التي تجب إزالتها ، ولم تكن تفعل على عهد الرسول ﷺ ولا في عهد خلفائه الراشدين .

الفصل الثالث

بين الاجتهاد والتأويل

(الفقيه من يطابق بين الواقع والواجب . وينفذ
الواجب على حسب استطاعته ، لا من يلقي العداوة بين
الواقع والواجب ، فلكل زمان حكم ، والناس أشبه
بزمانهم منهم بآبائهم) .

ابن القيم

(الفرع الأول) الاجتهاد :

والشيخ يرى باب الاجتهاد مفتوحاً لمن كملت له العدة ، لقد فوض رسول الله ﷺ بعض
صاحبه في أن يجتهد في حضوره أو غيابه ، وحث على الاجتهاد حيث قال : (إذا اجتهد الحاكم
فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر) : أي وعد المجتهد بالثواب سواء أخطأ
أم أصاب ! .

والشيخ يرى باب الاجتهاد مفتوحاً على الدوام ، فالإمام أحمد يستدل على ذلك بقوله ﷺ :
(لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله
وهم على ذلك) . ولئن فهم التقليد قبل بلوغ الحجة - لن يفهم التقليد ممن بلغته ؛ لأنه عندئذ
يكون ممن قال تعالى فيهم في سورة التوبة : (اتخذوا أhabارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .
والشيخ يصنع صنيع ابن تيمية ويأخذ بمذهب ابن حنبل . فإذا لم يقتنع بحث في غيره من
مذاهب أهل السنة وأخذ بما يسعفه الدليل (١) . وإن كانت سعة المذهب الحنبلي تسعفه حتى فيما
قال : إنه رجع فيه إلى عموم الأدلة مثل تحديد الشيخ الدية بثمانمائة ريال بدلاً من مائة ناقة ،
فأحل الثمن محل العين . فهذا تطبيق للسنة على الواقع ، والأئمة جميعاً لا يأخذون مأخذاً على المجتهد
إذا كان معه دليل صحيح من الكتاب والسنة .

(١) يقول عبد الله بن الشيخ : (ونحن أيضاً في الفروع من مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد الأئمة
الأربعة أو غيرهم) ويقول : (والمقصود بيان ما نحن عليه من الدين ، وأنه عبادة الله وحده لا شريك له تخلف جميع الشرك .
ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبها تخلف جميع البدع إلا بدعة لها أصل في الشرع : كجمع المصحف في كتاب واحد ،
وجمع عمر رضي الله عنه الصحابة على صلاة التراويح ، وجمع ابن مسعود أصحابه على القصص كل خميس ونحو ذلك) .
وهم يشترطون أن يكون ما يثبت خلاف مذهب أحمد قد أقره مذهب من المذاهب الثلاثة الأخرى .

والشيخ يسلك في التأليف الفقهي مسلك ابن قدامة - موفق الدين - كما سنرى بعد - في كتابه في فقه الإمام أحمد المسمى (مختصر الإنصاف والشرح الكبير) فقيه فقه مقارن بين جميع المذاهب (١)

ولم يكن ابن عبد الوهاب ليبلغ شأوه إلا أن يكون فقيهاً من أعلى مستوى في عصره سواء في فقه مذهبه أو في غيره ، وفي المختصر المشار إليه دلائل ذلك .

ذلك أنه موجز كتائين أولهما : (المقنع لابن قدامة موفق الدين - وقد شرحه ابن أخيه شمس الدين (٥٩٧ - ٦٨٢) معتمداً في شرحه على كتاب (المغنى) لموفق الدين ، وسمى شرحه هذا (الشافى) واشتهر بين الناس بأنه (الشرح الكبير) . وقد شرح ابن تيمية كتاب المقنع بعد شمس الدين - أما آخر الكتائين فكتاب « الإنصاف » أنفس مؤلفات العلامة علاء الدين أبى الحسن على ابن سليمان الصالحى (٨١٧ - ٨٨٥) .

وهذا المختصر بمقارناته الواسعة في عموم فقه السنة ، وبدقته واستيعابه ، آية على أن ابن عبد الوهاب كان يدرس لتلاميذه الفقه الإسلامى كله على نحو لم يدرسه بعد الأئمة إلا أمثال موفق الدين ، وهو النحو الذى يدرس به علم القانون في الجامعات المعاصرة الآن . واختيار الإمام في القرن الثانى عشر لهذين الكتائين ، وهما يجمعان فقه القرون السابقة حتى القرن التاسع ، إعلان لصلاحيتهما وصلاح الفقه في كل عصر ليحكم الواقع .

(١) ابن قدامة ٥٤٠ - ٦٢٠ من مواليد جبل نابلس - رحل إلى بغداد ، فتعلم من أسيادها ومنهم الجيلاني ، فأسمى علماً على الزهد ، قالوا : من رآه فكأنما رأى بعض الصحابة .
وكتاب المغنى لابن قدامة في ثلاثة عشر مجلداً . وهو واحد من شروح مختصر الخرقى (أبى القاسم عمر بن الحسين) وقد شرح مختصر الخرقى أكثر من ثلثائة شرح .
والمغنى لا يكتفى بالفقه الحنبلى ، بل يورد روايات أصحاب المذاهب الأخرى وغيرهم من المجتهدين بادئاً بالصحابة والتابعين وما لهم من تعليل ، ثم يرجع قولاً من الأقوال ويتوسع في الفروع .
يقول فيه عز الدين بن عبد السلام إمام الشافعية (٦٦٠) : (لم تطب نفسى للإفتاء حتى صارت عندي نسخة المغنى) ويقول : (ما رأيت في كتب الإسلام مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغنى) .

نماذج من الفقه

وحسبنا في هذا المقام بعض النماذج لبيان «أصالة» الطريقة التي سلكها الشيخ وشمول علمه واتساع فقهه . نختارها من أبواب متفرقة .

في العبادات

الأنموذج رقم (١) :

فأما جلود السباع فلا يجوز الانتفاع بها ، قال الأوزاعي وإسحق وروى عن ابن سيرين وعروة الرخصة في الركوب على جلود النمر . ومذهب الشافعي طهارة جلود الحيوانات كلها إلا الكلب والخنزير ، وحكى عن أبي حنيفة طهارة كل جلد وحكى عن مالك لعموم : (أيما إهاب دبغ فقد طهر) ولنا نهي عليه السلام عن ركوب جلود النمر رواه أبو داود . وله في حديث آخر نهى عن جلود السباع والركوب عليها . وإذا قلنا بطهارته بالدبغ لم يحل أكله . فظاهر كلام الشافعي أنه إن كان من مأكول جاز لأن الدبغ ذكاة والأول أصح .

فهنا عرض للمذاهب الأئمة الأربعة وظهور شخصية المؤلف باختياراته ، وهنا من الرجال غير أئمة المذاهب الأربعة الأوزاعي إمام الشام ، وإسحق إمام خراسان ، ومن الرواة أبو داود . وفيهم من التابعين عروة وابن سيرين . وستكرر أمثال ذلك في النماذج التالية .

الأنموذج رقم (٢) :

وفي باب المسح على الخفين يقول : (قال ابن المبارك : ليس في المسح على الخفين اختلاف ، وعن جرير قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ، ثم توضأ ، ومسح خفيه . متفق عليه . قال إبراهيم كان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة ، وقال أحمد . (ليس في قلبي من المسح شيء . فيه أربعون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال : هو أفضل من الغسل ، لأنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلبوا الأفضل . وهو مذهب الشافعي وإسحق لحديث : (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه) ولأن فيه مخالفة أهل البدع . وعنه : الغسل أفضل ؛ لأنه المذكور في كتاب الله تعالى والمسح رخصة . ويجوز المسح على الجرموقين ، والجرموق مثال الخف إلا أنه يلبس فوق الخف والجورين : قال ابن المنذر : يروى إباحة المسح على الجورين عن تسعة من الصحابة . قال أبو حنيفة ومالك والشافعي

لا يجوز إلا أن ينعلا . ولنا قول المغيرة : مسح رسول الله ﷺ على الجورين والنعلين ، رواه أبو داود والترمذى وصححه وهذا يدل على أنها لم يكونا منعولين ؛ لأنها لو كانا كذلك لم يذكر النعلين فإنه لا يقال مسح على الخف ونعله ولأن الصحابة فعلوه ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم)

فهنا المذاهب الأربعة ومذهب إسحق وقولان للإمام أحمد فيها فقه الأخذ بالرخصة أو التزام النص إن لم تحوج الحال إلى الأخذ بالرخصة وهنا من الرجال الصحابة وإبراهيم والأئمة الأربعة وإمام خراسان وابن المنذر وأصحاب الصحاح .

الأنموذج رقم (٣)

وفى باب التيمم يقول بعد استعراض طويل لشرط طلب الماء . ويتيمم من وجد معه الماء في حالات (وإن خاف العطش على نفسه تيمم . ولا إعادة إجماعاً . وإن خاف على رفيقه أو بهائمته ، وكذلك إن وجد عطشان يخاف تلفه لزمه سقيه ويتيمم . وقال القاضى لا يلزمه ذلك لأنه محتاج إليه . ولنا أن حرمة الآدمى تقدم على الطهارة إذا رأى حريقاً أو غريقاً عند ضيق الوقت وقد غفر الله لبغى بسقى كلب فالآدمى أولى . . .) فهنا اليسر الذى يباهى به المذهب والجدل القاهر من سنة الرسول والاحتجاج بما هو من باب أولى والارتفاع بصيانة الروح إلى حيث كرم الله بها خلقه ، ودل عليه الرسول بفعله ، وهنا تقديم حرمة الآدمى .

في المعاملات

الأنموذج رقم (٤) :

من حرية التعامل وهو أنموذج لأعلى مستوى حضارى . نختاره من عقد البيع لأنه يمثل أكثر وجوه التعامل .

(للبيع صورتان : إحداها الإيجاب والقبول فإن تقدم جاز ، وإن تقدم بلفظ الطلب فقال بعنى بكذا فقال بعتك ففيه روايتان . وإن تقدم بلفظ الاستفهام مثل أتبيعنى لم يصح ، وإن تراخى القبول مادام فى المجلس ولم يتشاغلا بما يقطعه .

والأخرى : المعاوضة . قال مالك : يقع البيع بما يعتقدونه الناس بيعاً . وقال بعض الحنفية : يصح فى خسائس الأشياء لأن العرف إنما جرى فى اليسير . ولنا أن الله تعالى أحل البيع ولم يبين كيفيته . فيجب الرجوع فيه إلى العرف . والمسلمون فى أسواقهم وبياعاتهم على ذلك . ولأن البيع

كان موجوداً بينهم ، وإنما علق الشرع عليه أحكاماً وأبقاه على ما كان ، فلا يجوز تغييره بالرأى والتحكم ، ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه استعمال الإيجاب والقبول . ولو اشترط ذلك لبينه بياناً عاماً ، وكذلك في الهبة والهدية والصدقة فإنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه استعمال ذلك فيها .

وفي هذا النموذج - على وجازته - مرآة علم واسع وفقه عميق . وفيه من القواعد الأصولية الكثير مثل : إن « الأصل الإباحة » ، وإن « ما سكت عنه فهو عفو » ، وإن المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، وإن « العبرة بالمعاني لا بالأشكال والمباني » .

وفيه من الأصالة الفقهية ما يتجارى هو وآخر ما بلغه الفقه العالمى المعاصر من نظريات الإيجاب والقبول والدعوة للتقدم بإيجاب والأعمال التحضيرية للعقد ومجلس العقد وانقطاع مجلس العقد وفيه مذاهب الأئمة الفقهاء .

وهو يشير إلى أن البيع كان معروفاً في الجاهلية فلم يُلغِ الإسلام ، وإنما علق عليه الأحكام ؛ كما سيورد الإمام فيما بعد شروط الصحة مع استبعاد بيع الجاهلية التي أبطلها الإسلام كبيع الربا أو الملامسة أو المنابذة .

وأخيراً نجد فيه من ضوابط المعاملات ما يعكس المنهج العلمى الإسلامى كله . فهو منهج يعتمد بالواقع لا بالنظريات ، وبالتجربة المحققة لا بالمقولات المطلقة . وفيه استعمال القياس - أى الاجتهاد - وفي ذلك المنهج وسيلة للتطور على مدى العصور .

والشيخ فى كل ذلك يستعمل أصول أحمد : القرآن والسنة . وعمل الصحابة .

النموذج رقم (٥) :

وكهينة هذا النموذج نماذج من بابه ومن مستواه فى شروط البيع يقول : (وهى ضربان : الأول صحيح : وهو ثلاثة أنواع : أحدهما شرط مقتضى البيع كالتقايض ؛ فهذا لا يؤثر إلاً تأكيداً والثانى شرط من مصلحة العقد كتأجيل الثمن والرهن أو الضمين أو كون العبد كاتباً أو صانعاً فهو صحيح يلزم الوفاء به ، وإلا فللمشتري الفسخ لقوله ﷺ « المسلمون عند شروطهم » ولا نعلم فى صحة هذين القسمين خلافاً . فإن شرطها ثيباً فبانت بكراً فلا خيار له ، لأنه زاده خيراً ، وإن شرط الشاة لبونا صح ، وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ لأنه لا يجوز بيع اللبن فى الضرع . ولنا أنه أمر مقصود ويأخذ جزءاً من الثمن كالصناعة فى الأمة . وإنما لم يجر بيعه منفرداً للجهالة والجهالة فيما كان تبعاً لا تمنع الصحة ، ولذلك يصح بيع أساسات الحيطان والنوى فى الثمر وإن لم يجر بيعها منفردين .

والثالث أن يشترط نفعا معلوما في المبيع كسكنى الدار شهرا . ويشترط المشتري نفعا في المبيع كحمل الخطب أو تكسيه . وقال الشافعي لا يصح ؛ لأنه روى أنه نهى عن بيع وشرط ، ولنا أن جابرا باع للنبي جملا واشترط ظهره إلى المدينة . . . ويصح أن يشترط المشتري نفع البائع في المبيع مثل أن يشتري ثوبا ويشترط خياطته ، واحتج أحمد في جواز الشرط بأن محمد بن مسلمة اشترى من نبطى حزمة حطب وشارطه على حملها .

الثاني : فاسد وهو ثلاثة أنواع : أحدها أن يشترط على صاحبه عقدا آخر فهذا يبطل البيع لحديث (لا يحل سلف وبيع ولا شرطان في بيع) قال الترمذى : حديث صحيح . ولأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين في بيعة كقوله : على أن تزوجني ابتك أو على أن أزوجك ابنتي . والثاني شرط . ما ينافي مقتضى البيع ، الثالث أن يشترط شرطا يعلق البيع . . . واختار الشيخ صحة العقد والشرط في كل عقد وكل شرط لم يخالف الشرع)

وفي هذا التلخيص صميم المذهب في المعاملات ومفخرة الفقه الإسلامى كافة ؛ فهو قد بدأ من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا) فسبق الفقه الأوربى الذى لم يبلغه الفكر الأوربى في القرن الماضى إلا بعد ثورات وبعد ثلاثة عشر قرنا من تقرير الإسلام له . فقاعدة « سلطان الإرادة » أو الحرية التعاقدية التى يقوم عليها الفقه العالمى المعاصر تقابل الحرية التعاقدية التى سبق بها الإسلام .

ومن الناحية الفنية فكما يصح كل شرط من مقتضى العقد يصح كل شرط يرمى إلى توكيده ! أو يهدف إلى مصلحة يبيحها الشارع جل ثناؤه . وكذلك يفسد البيع أو العقد إذا تجاوز مقصوده أو ركب فيه عقد آخر ، أو اشترط له ما يهدمه .

والمذهب الحنبلى بهذا الانفتاح العظيم للفكر القانونى وللإرادة البشرية يفتح الأبواب للتطور فى كل عصر ، إذ لا يقف عند صورة بذاتها أوحد محدود .

وإذا قاوم الفقه الإسلامى الظلم بمنع الجهالة ليضبط التعامل ؛ فالجهالة اليسيرة تغتفر حتى لا تقف حركة التعامل . وفى كل تعامل قدر من الأخذ والعطاء تغتفر فيه المضاربة . ولا مرأى فى أن لأصحاب العقد الفاسد تصحيحه بالعودة فيه إلى التوازن . ومن تمة يكون فى إعلان فساد العقد مندوحة لتصويب خطأ وقع فيه المتعاقدان حتى لا يظلم أحدهما الآخر .

ومن أهم تطبيقات النظرية فى الفقه الحنبلى شروط الزوجين فى عقد الزواج ووجوب وفاء الرجل للزوجة بشروطها فهو أوجب من الوفاء له بشروطه ؛ إذ له الطلاق وليس لها ، والرسول يقول : (إن أحق الشروط بالوفاء ما استحللتم به الفروج) .

في أدب القضاء

الأنموذج رقم (٦) :

في باب أدب القاضي أنموذج جديد من الحرية الواجبة للقضاء والمنهج الفني الموضوعي ، والصيانة اللازمة والورع المرجو لديه ، والاجتهاد المطلوب في خصوص الواقعة ، وحسن إدارة الجلسة وسيادة القاضي حيث لا سيادة للقانون إلا بسيادة القضاء .

يقول : (كان ابن المنذر يقول : يكره للقاضي أن يفتي في الأحكام وكان شريح يقول : أنا أقضي ولا أفتي ، وقديماً قيل : العلماء يحشرون مع الأنبياء والقضاة مع السلاطين) .

ويقول : (الأصل في مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع : أما الكتاب ففقوله تعالى في سورة المائدة / ٤٩ : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) وأما السنة ففقوله : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر) وأجمعوا على مشروعية نصب القضاة ، وهو فرض كفاية وفيه فضل عظيم لمن قوى على القيام به . ويجب على الإمام أن ينصب في كل إقليم قاضياً ، ولا يجوز أن يوليّه على أن يحكم بمذهب إمام بعينه . . لا نعلم فيه خلافاً) .

ويقول : (يجب أن يكون قوياً من غير عنف لينا من غير ضعف . حلماً متأنياً ذا فطنة . قال عمر بن عبد العزيز : سبع إن فات القاضي منها واحدة كان فيه وصمة : العقل والفقه والورع والنزاهة والصرامة والعلم بالسنن والحلم .

وله أن ينتهز الخصم إذا التوى ويصبح عليه ، وإن قال حكمت على بغير الحق فله تأديبه ، وله العفو . ويستعين بالله ويتوكل عليه ويدعو سراً أن يعصمه ويوفقه لما يرضيه . ولا يكره القضاء في المسجد . ويبدأ بالأول . ويعدل بين الخصمين في لحظه ولفظه والدخول عليه ، ويحضر مجلسه الفقهاء ويشاورهم ولا يقضي وهو غضبان ولا حاقن ولا في شدة الجوع والعطش والهم والوجع والبرد المؤلم والحر المزعج والنعاس)

ويقول : (ولا يحل له أن يرتشي ولا يقبل هدية إلا ممن كان يهدي له قبل ولايته بشرط ألا يكون له حكومة ويرد الرشوة والهدية إلى ربها . ويحتمل أن يجعلها في بيت المال ، لأنه (يقصد رسول الله ﷺ) لم يأمر ابن اللثبية بردها . قال أحمد : (إذا أهدى البطريق لصاحب الجيش لم تكن له دون سائر الجيش) ويكره أن يتولى البيع والشراء بنفسه ويوكل فيه من لا يعلم أنه وكيله . وإن احتاج لم يكره لأن أبا بكر قصد السوق يتجر حتى فرضوا له) .

في البدع

الأنموذج رقم (٧) :

في كتاب فضل الإسلام يتحدث الشيخ عن البدع فيروى عن الحارث الأشعري عن النبي أنه قال : (آمركم بخمس ، الله أمرني بهن : السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة ، فإنه من فارق الإسلام قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع . ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي^(١) جهنم) فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال : (وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله)

وفي باب أن البدعة أشد من الكبائر يستند لقوله عز وجل في سورة النساء / ١١٦ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم) وقوله في سورة النحل / ٢٥ (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) .

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج : (أينما لقيتموهم فاقتلوهم) وفيه أنه نهى عن قتال أمراء الجور ما صلوا .

يروى عن ابن جرير أن رجلاً تصدق بصدقة ثم تتابع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : (من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً) كذلك (ذكر النبي أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال ثان أما أنا فأقوم ولا أناام ، وقال ثالث أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر : وأما أنا فأصوم ولا أفطر : فقال : (لكنني أناام وأقوم وأصوم وأفطر وأتزوج وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني) ويضيف الشيخ : فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمى فعله رغوبا عن السنة؟ فكيف بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟) .

ولقد يكون ظاهر البدعة هو الخير ونتيجتها صرف المسلمين عن الجوهر ، فيعيشون في العرض دون الجوهر ، وينصرفون عن الدين إلى ممارسات وربما إلى طريقة حياة ليست من الدين . فالشيخ يروى عن الدارمي آراء مشيخة الصحابة : (أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمرو بن يحيى

(١) جمع جثوة : الشيء المجموع .

قال : سمعت أبي يحدث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد . فجاء أبو موسى الأشعري فقال : أو خرج أبو عبد الرحمن ؟ قلنا : لا فجلس معنا فلما خرج قال : يا أبا عبد الرحمن ، إني رأيت في المسجد أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا قال : ما هو ؟ قال : إن عشت فستراه ، قال : رأيت في المسجد قوما : حلقا جلوسا ، ينتظرون الصلاة ، في كل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصي ، فيقول : كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول : هلموا مائة فيهللون مائة ، فيقول : سبحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فإذا قلت لهم قال : ما قلت لهم شيئا . أنتظر أمرك . قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم شيء ؟ ثم مضى حتى أتى حلقة فقال : ما هذا : قالوا له : حصي نعد به التكبير والتهيل والتسبيح .

قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ، هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون . وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر . والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحى باب ضلالة ؟ قالوا : فالله يا أبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير .

قال : وكم من مريد للخير لم يصبه : إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم . وأيم الله لعل أكثرهم إلا منكم . فقال عمرو بن سلمة : رأينا عامة هؤلاء يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج .

في التهذيب

الأعوذ رقم (٨) :

يروى الشيخ في كتاب الكبائر تعريف ابن عباس لها حيث قال : (إن الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب) وأنه قال : إنها أقرب إلى سبعائة منها إلى سبعين . وإليها أقرب منها إلى السبع . غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار . ولعبد الرزاق عنه : (هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : (الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين) وكان متكئا فجلس فقال : (ألا وقول الزور وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . وعن أبي هريرة كذلك عنه ﷺ ، (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

ومن بعد هذا التعريف يقدم الذنوب والعيوب من الكبر إلى العجب إلى الرياء والسمعة إلى الظن بالله إلى إرادة العلو والفساد إلى الفحش ، إلى موادة أعداء الله ، إلى قسوة القلب إلى شر اللسان وكثرة الكلام وشدة الجدل إلى البذاءة والفحش ، إلى الكذب وإخلاف الوعد ، إلى المزاح إلى الملق إلى الرضا بالمعصية إلى السخط إلى القلق ، إلى انعدام الحياء ، إلى الهلع والجبن ، إلى الحرص على المال ، إلى البخل والحسد ، إلى الحلف الكاذب إلى الإفتاء بغير علم ، إلى ما جاء في ذى الوجهين إلى النمام ، إلى الذى يفشى السرى إلى الحرص على المعصية ، إلى الشفاعة فى الحدود إلى جحود النعمة ، إلى من لم يطع الله ، إلى الغيبة إلى غلول الأمراء وقبول الهدية على الشفاعة ، إلى أذى الجار ، إلى أذى الصالحين ، إلى عدم احترام السن إلى عدم الأمانة فى البيع والشراء ، إلى اغتصاب الحقوق ، إلى إيواء المجرمين ، إلى الفجور فى الخصومة إلى إلخ .

وفى هذا الكتاب اهتمام ملحوظ بتزاهة الحكم وأمانة الراعى فى الرعية وطاعتها له ، فالشيخ بعموم دعوته يبنى الدولة كما يبنى الجماعة الصالحة ، فيروى فى باب طاعة الأمراء حديث : (ستكون بعدى أئمة لا يهتدون بهدى ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم منهم رجال قلوبهم شياطين فى جثمان إنس قلت : يا رسول الله كيف أصنع إذا أدركنا ذلك ، قال : تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك) .

(الفرع الثانى) العلم اللدى أو التأويل الباطنى :

إذا كانت حرية الإرادة وأصل الإباحة أصليين فى المذهب ، واتساع الشروط مضطرباً ذا سعة لكل تعامل تأذن به نصوص الكتاب والسنة ، وكانت العبادات أداء أميناً لنصوص الشارع - فالأصل فى ذلك كله التزام الفحوى الذى يتبادر إلى الذهن من ظاهر النص .

ومن النصوص محكم لا يختلف فى معناه أحد ، ومنها متشابه يحتمل أكثر من معنى : ومثال المحكم آيات الفرائض ، ومثال المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل الصور مثل ا. ل. م. وغيرها . ويمكن فى هذا المقام إجمال الحديث فى خلاقات التفسير فى أن المسلمين فريقان فى طريقة تخرج فحوى المتشابه .

أولها من يلتزم المعنى الذى يتبادر إلى الذهن من ظاهر اللفظ .

والآخر من لا يلتزمون ظاهر النص وفيهم طائفتان :

الأولى : تعتمد إلى التأويل بمعنى التفسير ؛ فهى أقرب إلى الفريق الأول ، إذ تبحث عن المعنى كما يألفه العرب وإن لم يتبادر للذهن من ظاهر اللفظ ، ويفسرون ما يتشابه من النصوص تفسيراً خاضعاً لمعنى المحكم .

الأخرى : تعمد إلى التأويل الباطنى ، فيترك أصحابها المنهج الإسلامى إلى معان من أخيلتهم أو يفسرون النصوص تفسيرات رمزية تنتج ما يتخيلونه أو يزعمونه من أن علم الشريعة علم الظاهر ، ولكن الحقيقة هي الباطن وقد أسلفنا حديث ذلك .

وفى حين يجتهد أهل السنة لبلوغ الحكم الشرعى بالموضوعية والواقعية التى قام عليها منهج الاجتهاد بالقياس على نص قائم ، يلوى المؤولون الباطنيون النصوص لخدمة نظرياتهم التى زعموها لرجالهم أو الحلول أو الوحدة أو الفناء فى الله التى يزعمها المتصوفة المتفلسفون للأولياء . وقد سبق أن بينا كيف أولوا نصوص الفرائض بأنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم وموالاتهم وغير ذلك .

ومن هذا الخليط الغريب ما يبدعه المسلمون ومنه ما يكفرونه .
والشيخ يذهب فى كل أمره مذهب السلف الصالح فى فهم الدين من ظاهر نصوصه كما فهموه عن النبي وصحبه ولا يذهب مذهب المؤولين - أيًا كان منحى التأويل .
وإذ كانت معانى الصفات الإلهية موضوعاً أساساً فى الدين فقد تصدى الشيخ له . قال :
فى كتاب التوحيد : (باب من جحد شيئاً من الصفات وقول الله تعالى فى سورة الرعد ٣٠ :
(وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) .
وفى صحيح البخارى قال على : (حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟) وروى عن عبد الرزاق عن ابن عباس : (أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ فى الصفات استنكاراً لذلك فقال : ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه .

(باب قوله تعالى فى الأعراف ١٨٠ : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الدين يلحدون فى أسمائه) .

وباب (ما جاء فى قوله تعالى فى الزمر ٦٧ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فيروى : عن ابن مسعود أنه قال : « جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد الله يحمل السموات على إصبع والأرض على إصبع والشجر على إصبع والماء على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الخبر ثم قرأ :
(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) (١) .

(١) فى كتاب فتح المجيد قال المؤلف : وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم التى لا غنى لهم عن معرفتها ، ومنهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى كالمنعش والمرعش والتبصرة =

والأرض في قبضته تعالى لا كالمشبهين بالجوارح البشرية فذلك منهج القساوسة ؛ وإنما كما يفهم ذلك العرب . وكما فهمه الصحابة والتابعون عن رسول الله والله جل وعلا (ليس كمثله شيء) . وأبو حنيفة يشرح النص بقوله : (لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه) ويقول : (إن الله تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية) ويقول : (إن الله تعالى واحد لا عن طريق أنه لا شريك له . بل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . والإمام أحمد بن حنبل يقول : (ويؤمن المسلم) بالقضاء خيره وشره وحلوه ومره من الله وإن أهل الجنة يرون الله بأبصارهم لا محالة . . . وأن الله كلم موسى تكليماً ، والإيمان بالحوض والشفاعة والإيمان بالعرش والكرسي) .

ويقول : (التشبيه أن تقول يد كيد ووجه كوجه . فأما إثبات يد ليست كالأيدي ، ووجه ليس كالوجوه فهو إثبات ذات ليست كالدوات وحياة ليس كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس

= لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع وفيها ما الله به أعلم بما لا ينبغي اعتقاده والمعصوم من عصمه الله . وكان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ينهى القصاص عن القصاص لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك ويقول : لا يقص إلا أمير أو مأمور .

وسبب نزول آية : (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي) هو أن مشركي قريش جحدوا اسم الرحمن عناداً قال تعالى في الإسراء ١١٠ : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) والرحمن اسمه وصفته . دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه وهي من صفات الكمال . فإن جهنم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة لله تعالى ؛ ولهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة وهؤلاء المعطلون للصفات . المشبهون لله بخلقهم يقولون : إنها صفات أجسام فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً ، فشبهوا الله بخلقهم ، ثم عطلوا صفات كماله ، فشبهوا ثم عطلوا وتركوا ما ورد بالكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله ، وهذا الإثبات هو ما تتابع عليه سلف الأمة وأئمتها إثباتاً بغير تمثيل وتزيتها بغير تعطيل . يقول قتادة في قوله تعالى في آل عمران ٧ : (فأما الدين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) طلب القوم التأويل فأخطئوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا لذلك .

ولقد أطلال الأئمة في إدحاض شبهات نفاة الصفات ، ومن ذلك ما أورده الحافظ الذهبي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان والجدود به كفر) وثبت عن سفيان بن عيينة أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق) .

قال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ، (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك وأخذته الرخصاء وقال : الرحمن على العرش استوى - كما وصف نفسه ولا يقال كيف ؟ وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة أخرجه !

وفي رواية أخرى قال : (الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) . وأول من أنكر أن الله فوق عرشه هو الجعد بن درهم ، أنكر جميع الصفات وقتله خالد بن عبد الله القسري ، وأخذ المقالة عنه الجهم بن صفوان فأظهرها واحتج لها بالمشابهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأدحض قوله الأئمة الأربعة ونصوا على الإيمان بالصفات كما وردت .

قال الأوزاعي (١٥٧) : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله فوق عرشه ، وتؤمن بما وردت به السنة من صفاته . وقال الشافعي : (لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فيعذر بالجهل ، وثبتت هذه الصفات وننق عن التشبيه كما نقي عن نفسه فقال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

كالأسماع والأبصار) .

ويقول (. . . .) ومن السنة . . . والإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث والإيمان بها . لا يقال كم ولا كيف . . ، ومثل أحاديث الرؤية كلها . . . ولا نتعلم الجدل ، فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه ينهى عنه لا يكون صاحبه - وإن أصاب كلامه السنة - من أهل السنة حتى يدع الجدل . وسلم ويؤمن بالآثار . والحديث عندنا على ظاهره كما جاء عن النبي ﷺ والكلام فيه بدعة ، ولكن تؤمن به عن ظاهره ولا نناظر فيه أحداً . . .) . والنصوص أصول . . . وظاهرها كاف لمن فهم العربية حق فهمها وأحاط إحاطة كافية بالمنقول منها .

وأيًا كان المقال فمنهج أحمد هو تفسير القرآن بالقرآن ثم تفسيره بالسنة ويليهما تفسيره بعمل الصحابة أو قولهم . ولا يجوز الحنابلة تفسير القرآن بالرأى مجرداً ولا الاجتهاد والنص واضح . وإنما يصار إلى القياس عند الضرورة .

والمسلمون مجمعون أن قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) ونحو هذا المعنى في القرآن أو السنة ليس مقصوداً به أن الله سبحانه وتعالى يجالس الجلساء . وأنه فوق عرشه كيف شاء ، إنه كما وصف نفسه (ليس كمثله شيء) .

والذين يقولون في التفسير إن المقصود بقوله - (هو معكم) - إنما هو علمه يستعملون المعنى البلاغي في اللسان العربي .

روى حنبل عن الإمام أحمد حديث (اقرءوا البقرة وآل عمران فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غيابتان أو غامتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة) وأن أحمد قرر أن المقصود هنا هو ثوابهما .

وذكر الزعفراني أن أحمد تأول (بمعنى فسر) يجيء يوم القيامة : (وجاء ربك والملك صفًا صفًا) بأن الذي يجيء هو أمره سبحانه وتعالى .

ولقد احتج المعتزلة على أحمد وهم يحاكمونه أمام الخليفة المعتصم قالوا : إذا كان القرآن يجيء يوم القيامة فهو مخلوق .

والغزالي يرى أن أحمد بهذا قد اضطر إلى التأويل (بمعنى التفسير) وهو أشد الناس تخرجاً منه . أما أصحاب أحمد فيختلفون في المسألة فابن عقيل وابن الجوزي إذ يأخذان برواية حنبل يريان أن التأويل هنا « تفسير » للعبارة العربية .

على أن المشهور في المذهب أن أحمد عند ذلك كان يعارض مناظره يوم المحاكمة بحجة من جنس حجتهم ، ولا ينبغي اعتبار ذلك مذهباً له ، وإنما مذهبه أن يمضي الأحاديث كما وردت

بلا كيف ، وأن الله استوى على العرش حقيقةً وكلم موسى تكليماً ، وأنه تعالى في السموات والأرض حقيقةً كما شاء وكيف شاء إذ ليس كمثله شيء .

الباطنية والتصوف الفلسفي :

ونص القرآن على أن عدم تشبيه الله بخلقه قطعي ، فالعمل بنقيضه خروج على الإسلام . ولا يقبل في مقابلة النص القطعي أى تفكير ظني أو رمزي كما هو دأب الباطنية وغلاة الصوفية . وهؤلاء في واقع الأمر - وكما أعلن ابن تيمية - امتداد للباطنية من غلاة الشيعة القائلين بعصمة الأئمة ، وكثيراً ما نبه على أن ادعاءات الصوفية من جنس ادعاءات الباطنية أن للإمام المعصوم « تأويل التنزيل » .

والصوفية المتفلسفون يدعون على « الأولياء » علم الحقيقة عن طريق الكشف الإلهي ، أو كما يقول ابن عربي : (التجليات الإلهية) ، بل إنهم يرفعون الأولياء فوق الأنبياء كما سلف القول عنهم ! ويقول شاعرهم :

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي
ويدعى بعضهم أن الأولياء هم الراسخون في العلم ، يعلمون التأويل كعلم الله جل شأن الله :
وما هذه الدعوى إلا ترديد لنظرية الفيض ومراتب العلم اللدني الأفلاطونية أو الأفلوطينية ، وقد سبقهم إليها دعاة الباطنية وغلاة الإسماعيلية فسموا محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (صاحب التأويل) .

وفي سبيل فلسفة التأويل أنشأ الحاكم بأمر الله « دار الحكمة » لتعليم العلوم الباطنية في مقابل « الجامع الأزهر » الذي أنشأه جده ودرس فيه المسلمون علوم الشريعة .

وابن الجوزي (٥٩٧) منذ القرن السادس للهجرة والنويري (٧٣٢) في نهاية الأرب والمقرئزي (٨٤٥) في خططه وغيرهم من سابقهم ولاحقهم يذكرون مراتب الدعوة الإسماعيلية في تلك الحقبة من الزمان أنها تسع درجات . وأنهم يفهمون التابع في الرتبة السادسة أن الفرائض رموز للاحقائ. وفي السابعة ينقلونه إلى العدول عن التوحيد. وفي الثامنة يفهمونه أن الأنبياء خصوا بالسياسة ، وفي التاسعة يعلمونه أن لا وجود للعلم اليقين وأن العقائد ليست قطعية وله الحرية في اعتقاد ما يشاء .

(فرما صار التابع في هذا الاعتقاد إلى مذهب ماني وابن ديصان وربما إلى مذهب المجوس ، وربما دان بما يحكى عن أرسطوطاليس ، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون ، وربما اختار من تلك معاني مركبة من هذه الأمور كما يجري لكثير من هؤلاء المتحيرين) !

وبهذا نستطيع أن نفهم الهدف من التأويل الباطني سواء الإسماعيلي الغالي في دعاواه أو الصوفي المتغالي في فلسفته ، والطرفان لا يأخذان بالرأى الذي يحصله الاجتهاد - المقابل للقياس - بالتزام النصوص أو فحوى النصوص .

على أن للتأويل عند أهل السنة معناه العربي ، فهو في اللغة الرجوع أو العودة . وفي الحديث : (من صام الدهر فلا صام ولا آل) أى (لا رجوع إلى خير) ودعاؤه عليه الصلاة والسلام لابن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) .

ويقول الليث بن سعد : (التأويل تفسير ما يثول إلى الشيء) . فالمرجع أو التفسير هما الأمران اللذان استعمل فيهما الرسول لفظ التأويل وتابعه الصحابة ومن بعدهم .

يذكر الشافعي في الرسالة أن (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي) ويقول عن العرب : (وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهلها علماً به . . .) . ويستعمل الشافعي التأويل - كما استعمله القرآن - بمعنى التفسير . يقول في الرسالة : (ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها ، لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ في التأويل) .

فإذا أخذنا التأويل بمعنى التفسير فالمفسر يلتزم ظاهر اللفظ إلا إذا وجد ما يصرفه إلى المجاز - وهو المعنى المقابل للمعنى الظاهر من اللفظ - لكن هذا الانتقال إلى المعنى المجازي يخضع لشروط وضعها من يسلكون هذا الطريق : منها ألا تكون الآية محكمة وأن تكون متشابهة ، وأن يكون العرب قد عرفوا المعنى المجازي في لغة التخاطب ، وألا يخرج المعنى المجازي على نص آية محكمة أو حديث قطعي المعنى والدلالة ، أو على قاعدة شرعية .

وفي النص المحكم يقول ابن تيمية : (المحكم هو المنزل من عند الله أحكمه أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه) وفي مقابلة المحكم نجد التشابه الذي يشبه هذا ويشبه هذا فيحمل المعنيين . ومنه أخبار الصفات .

وعلى ما مضى من الشروط يجب رد التشابه إلى المحكم والعمل بهما معاً ، فلا يؤخذ التشابه على ظاهره دون نظر واعتبار في جميع الأدلة ، فتتفق دلالاته مع المحكم وتصدق النصوص بعضها بعضاً إذ هي كلها من عند الله ، وما كان من عند الله فلا تناقض فيه (١) .

(١) مثل قوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) يتعين عند المفسرين القائلين بالتأويل أن يفسروها في حدود قوله تعالى (لا تدركه) =

وإنما اصطلاح بعض على اعتبار التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الظاهر ، في أجيال متأخرة ، بعد أن شاعت طريقة المعتزلة والمتكلمين في « التأويل » بمعنى التفسير .

وابن قدامة (وهو حنبلي) يعرف التأويل بأنه صرف اللفظ عن الاحتمال الظاهر إلى احتمال مرجوح بدليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي دل عليه الظاهر ، والظاهر ما يسبق إلى الفهم منه - عند الإطلاق - معنى مع تجويز غيره . وإن شئت قلت : هو ما احتمل معنيين هو في أحدهما أظهر (١) .

والسبكي فقيه شافعي يقيد التأويل إذ يعرفه فيقول : (هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح .

= (الأبصار) وعندئذ لا يكون المعنى هو الإبصار بل هو توقع العبد للنعمة والرضا من الله . ومثل قوله تعالى في الإسراء ١٦ : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها) يتعين تفسيره في حدود قوله تعالى : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) . ومثل قوله تعالى في الأحزاب ٧٢ :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) فيكون المقصود بها الطاعة وفي قوله تعالى في النحل ١٠ : (يد الله فوق أيديهم) فيكون المقصود بها القدرة .

ولم يألُ المفسرون بالمأثور أو بالتأويل جهداً في استقصاء المعاني والأساليب والكلمات والحروف منذ القرن الأول . فجاهد (١٠٢) يقول في قوله تعالى : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) إن القسطاس هو العدل بالرومية . وإنها لكذلك في اللغة اللاتينية ومنها انحدرت إلى اللغات الأوربية الحديثة Justice .

ويقول ابن الجوزي في كتابه (دفع شبه التشبيه) : « اعلم أن الناس في أخبار الصفات على ثلاث مراتب : إحداها إمرارها على ما جاءت به من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة كقوله تعالى : (وجاء ريك) أي جاء أمره . وهذه عقيدة السلف . المرتبة الثانية التأويل وهو مقام خطر . والثالثة : القول فيها بمقتضى الحس وقد عم الجهلة ممن ليس لهم حظ من المعقولات ، فإن علم المعقولات يصرف المقولات عن التشبيه » .

(١) أوضح عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب مذهب الشيخ لعلماء مكة عندما دخلها مع الأمير سعود سنة ١٨١٨ قال : (مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة وطريقتنا طريقة السلف التي هي أسلم وأعلم وأحكم . . . وهي أننا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها . ونكل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها . فإن مالكا وهو من أجل علماء السلف لما مثل عن الاستواء في قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) قال : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) .

وأول (المعتزلة) صفات الله التي وصف بها نفسه في القرآن وقالوا : إن الذات هي الصفات منعاً للتعدد ، وأولوا الصفات الخبرية ، واتخذ أبو الحسن الأشعري (٣٣٠) موقفاً وسطاً - ومعه فيه الكثيرون - قال : إن لله صفات وجودية هي العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام فهي معان أزلية قائمة بذاته تعالى ، أما الصفات الخبرية من الوجه واليد والساق والقدم وغيرها فيوصف الله بها بلا كيف ولا تشبيه كما هو مذهب السلف) .

وفي الجبر والاختيار يرى المعتزلة أن أفعال العباد نتيجة لاختيارهم . والأشعري يثبت للعبد قدرة وإرادة خاصة بدليل أن الأفعال الإرادية تتميز من الأفعال الاضطرارية كعرشة اليد ورعدة اليدين .

ووصف الصفة بأنها خبرية مرده إلى أن الله تعالى يخبر بها أو أن الرسول يخبر بها ، لكن الصفات الوجودية تتصل بوجوده سبحانه ويستند وجودها إلى الدليل العقلي الذي طالما أمر القرآن باستعماله . والدليل الحسي الذي طالما نهى الناس عليه .

والتأخرون من الأشاعرة كالغزالي والجويني والرازي يؤولون الصفات الخبرية بمعنى يليق بذات الله تعالى .

ولقد انتشر المذهب الأشعري بالعراق وما جاورها على يد الغزالي (٥٠٥) ، وانتشر بالمغرب على يد ابن تومرت ، وانتشر بمصر بعد إذ جعل صلاح الدين الأيوبي المذهب الأشعري والمذهب الشافعي مذهبين رسميين للدولة ، وكان قد درس المذهبين قبل أن يلي الحكم .

أما الحنابلة فيقفون الموقف السلفي الذي وقفه الصحابة والتابعون وفهموا به كل شيء في القرآن والحديث حق فهمه .

فإن حمل بدليل فصحيح . أو لما يظن دليلاً ففساد أو لا لشيء فلعب لا تأويل (وابن الكمال - وهو حنفي - يقول : (التأويل صرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المعنى المحتمل الذي تصرف إليه الآية موافقاً للكتاب والسنة) فالمذهبان يشترطان أن ينهض بالمعنى دليل شرعي هو الكتاب أو السنة . وما يوافقهما من اجتهاد أو قياس بضروبه المختلفة .

* * *

لم يتجاوز السلف النصوص ، بل أخذوا معناها الظاهر - ثم لم يرتابوا ؛ ولذلك وجدوا آيات الصفات آيات محكمة وغير متشابهة فقبلوا صفات الله جميعاً ، مثل استوائه على العرش ، على حسب ما فهمها النبي والصحابة وأفهموها الناس ولم يحتاجوا لبحث (كيفية الاستواء) ولا كيفية (يد الله) ولا كيفية (عين الله) فما دام الله تعالى (ليس كمثله شيء) فكل تشبيه له بالأشياء والأشخاص « تخصيص » منهي عنه . سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإنما الواجب ، والمأمور به في الكتاب والسنة هو التسليم للذات الإلهية بصفاتها التي جاءت في الكتاب العزيز . فعلى هذا جرى الصحابة والتابعون . وعلى سُننهم درج الأئمة . فلم يؤولوا لأنهم لم يحتاجوا للتأويل ولم يشبهوا أو يجسدوا أو يحصروا الذات العلية في مكان .

يقول أبو حنيفة (١٥٠) (له صفات بلا كيف ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ؛ لأن فيه إبطال الصفة) ويقول : (من قال لا أدري أن الله في السماء أو في الأرض فقد كفر) .

ويقول مالك : (١٧٩) : (إن الله في السماء وعلمه في كل مكان . فمن اعتقد أن الله في جوف السماء محصور محاط به وأنه مفتقر إلى العرش وغيره أو أن استواءه على العرش كاستواء المخلوقين فهو مبتدع) .

والشافعي يقول : (إن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء) .

وأحمد يذكر أنه سبحانه (لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبه شيء من خلقه) ويقول : (لقد أدركت علماء المدينة وإنهم Lieظمون القول في التفسير ، وكثيراً ما كانوا يتواصون بعدم الخوض في ذلك من غير علم ، ولأنهم في ذلك يروون عن الله عز وجل ، وإذا تعرض أحدهم لتفسير آية فإنما يفسرها مستنداً إلى الرسول أو إلى صحابي سمعها منه) .

وفي القرن الذي عاش فيه أحمد وضع ابن جرير الطبري (٣١٠) تفسيره للقرآن ملتزماً بالمأثور عن السلف . وابن تيمية - لذلك - يراه أهم التفاسير التي بين أيدينا لأنه ليس فيه بدعة . يقول أبو المعالي الجويني (٤٧٨) في الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية : (ذهب أئمة

السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض ما فيها إلى الرب تعالى .
والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة ؛ فالأولى الاتباع وترك الابتداع . والدليل
السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ، وقد درج
صاحب الرسول ﷺ ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام).
والغزالي (٥٠٥) تلميذ الجوينى يكتب فى كتابه (إجماع العوام عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند
الرعاى والجهال من الخشوية والضلال) : (اعلم أن الحق الصريح الذى لا مرأى فيه عند أهل
البصائر هو مذهب السلف (١)) . .

ويقول فى كتاب فيصل التفرقة : (وكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فهذه
هى العلامة المطردة المنعكسة) ويقول : (ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظناً لا قطعاً ، فإن كان
فتح هذا الباب والتصريح به يؤدى إلى تشويش قلوب العوام بُدع صاحبه وكل مالم يؤثر عن السلف
ذكره وما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة ، فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان
قاطع) ويقول : (قال شيخنا أبو المعالى (يقصد الجوينى) : (يحرص الإمام ما أمكنه على جمع
عامة الخلق على سلوك سبيل السلف الصالح فى ذلك) .

ولقد انفتح شر كثير بالتأويل الذى يفيد الظن . . . فيه أول الرافضة أحاديث فضائل
الصحابة ، وأول المعتزلة أحاديث الرؤية والشفاعة ، وأول القدرية نصوص القدر ، وأول الخوارج
النصوص التى تخالف نحلتهن ، وأول القرامطة والباطنية كثيراً - من الدين .

وما امتحن الفكر الإسلامى ، بمحنة إلا كان سببها التأويل ومخالفة ظاهر التنزيل ، وهل
دخلت طائفة الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل ، وإنما أثنى الله تعالى على منهج السلف
الصالح - كما يقول مالك - بقوله تعالى فى التوبة ١٠٠ : (والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار
خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . . .)

(١) ويضيف (أعنى مذهب الصحابة والتابعين . . .) فأقول : حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه
حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور : التقديس ثم التصديق ثم . . .) ويقول : (الوظيفة الأولى
التقديس ومعناها أنه إذا سمع « اليد » والإصبع « وأن « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » فيجب أن يعلم أن اليد تطلق
لمعنيين أحدهما هو الموضع الأصلى . . . وقد يستعار هذا اللفظ أعنى اليد لمعنى آخر كما يقال البلدة فى يد الأمير . . .) ثم يقول :
(مثال آخر : إذا قرع سمعه التزول فى قوله ﷺ : (يتزل الله تعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا) فالواجب عليه أن يعلم أن التزول
اسم مشترك كما قال الله فى الزمر ٦ : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وما أرى البعير والبقر نازلاً من السماء ، بل هى مخلوقة فى
الأرحام وإنزالها معنى لا محالة . كما قال الشافعى رضى الله عنه : (دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فتزلت ثم نزلت . . .) الوظيفة
الثانية الإيمان والتصديق . وهو يعلم قطعاً أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يلىق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله ﷺ صادق فى
وصف الله تعالى . . .) .

ولئن لوحظ في عصور متأخرة تطوير فرقة الإسماعيلية أساليبها لمقاربة جماهير المسلمين - إن الشيعة الزيدية والإمامية (الجعفرية أو الاثنا عشرية) قد يستعملون التأويل بمعنى التفسير والمجاز اللغوي عند الحاجة شأن بعض أهل السنة ، ولم يثبت عن أئمتهم تفسيرات ورموز كالباطنية . وابن عطية من كبار مفسري أهل السنة ينفي عن الإمام جعفر أي تفسير رمزي .

الباب الثالث

انتصار المنهج السلفي

(كل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله فلم يستجب له فإنه يجب قتاله) .

ابن تيمية

في هذا الباب فصول أربعة تتأخى بيان صور مصغرة لبعض ثمار الدعوة والأرض التي أُنعت فيها والفروع التي غدتها واغتذت بها ، لتستين مكانة الإمام بين أئمة الإسلام ، وكيف أمست المبادئ من بعده عقائد يدين بها ويدافع عنها ذلك النسق النضيد المتتابع من رجال الإصلاح في كل أقطار الإسلام ، على مدار القرنين اللذين أعقبا موت الإمام ، ليدلنا ذلك على صدورها من صميم الإسلام واقتدارها على إصلاح حال المسلمين في كل عصر ، شأن الحنيفية السمحة ذاتها ، ومن ثمة يكتب للمبادئ الخلود .

وفي الفصل الأول بيان لمشروعية الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام المسلمين بأن يحملوا السيف دفاعاً عن عقيدة التوحيد .

والفصل الثاني سرد بالغ الوجازة للملحمة البطولية التي خاضها أبطال الدعوة من أمراء آل سعود وجماعة المسلمين معهم ليهبوا أمة الإسلام « دولة الإسلام » المتمسكة به ، المدافعة عنه ، مستيقنة أن الزمان في خدمتها ، وإن اعتورتها هزائم السياسة أو نكسات الساعة .

ولما دمر الأتراك عاصمتها في الدرعية صيرت عقيدة التوحيد معارك الدمار معارج للانتصار . وعندما تصاب الجيوش وتسلم إرادات الرجال فالنصر مسألة زمن .

والفصل الثالث يبين كيف أقام المنهج السلفي للدولة العصرية ، الحاملة مسئوليات المسلمين في فلسطين ، الجاعلة سلاح البترول قوة ضاربة للمسلمين في كل مكان ، وكيف أثبت وفاء قواعد الإسلام بحاجات العصر وقابلية الوسائل على التطور واقتدار الرجال الصُّلب الشَّداد على الصِّدع بالحق وقيادة المسلمين إلى النصر .

وفي الفصل الأخير بيان لمبلغ ما تضافرت الأجيال وتآزرت الشعوب والقارات في اقتفاء آثار

الإمام تقودهم ، على طريقته ، نخبه من الرجال كان كل منهم أمل أمته وما يزالون يهدونها السبيل .
وفي ختام الكتاب تذكير بالمنهج العلمى العالمى الذى أوصل الإنسان إلى القمر ، والذى تضرب
جذوره فى أصول الفقه الإسلامى المستمدة من القرآن والسنة ، والقائمة على العلم والواقعية
والموضوعية ، لا الباطنيات ولا الغيبات أو الشطحات ، وتذكيرٌ بمنهج الإسلام الاقتصادى
والاجتماعى وهو عمارة الدنيا بعمارة الإنسان ، بفضائل الدين .
والمسلمون اليوم يقفون بين حضارتين تحتاجان إلى أن ينقذهما الإسلام .

الفصل الأول

الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها
ورصام نهارها)

حديث شريف

الاجتهاد والجهاد أمر بالمعروف وعمل به ، ببذل الوسع لإعلان حكم الله وإعلاء كلمة الإسلام دون خضوع لسيطرة الغير على الفكر أو النفس . وكلاهما جهد يبذل في صراع التنازع على البقاء بحماية عقيدة تعلن حرية النفس والفكر والعدل والمساواة الفطرية بين الناس والعبودية لله وحده . وعلى قدر إيمان المسلم يكون جهاده في سبيل دينه . بحرب يخوضها أو سلم تعمربها الدنيا على يده أو علم يعلمه أو يتعلمه ، أو يجتهد عند الضرورة ، ليؤمن عن وعى شخصي ولا يقلد غيره ولا يكون إمعة .

ولما شق محمد بن عبد الوهاب طريقه بالجهاد والاجتهاد كان يسلك مسلك السلف ، ويعيد الناس إلى الجادة ليدافعوا عن دينهم ، ويستثمروا أعظم ما منحه الله لهم وهو العقل . يذكر الشيخ المسلمون في باب (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله قول الله تعالى في الزخرف ٢٦ : وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون) .

وقوله في البقرة ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) ويعقب على الآية الكريمة بالسنة الشارحة لبيان فرضية جهاد المسلم للعدو . (وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل) ثم يقول بعد شرح طويل : (وهذا - الحديث من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل تحريم ماله ودمه ، حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم دمه وماله .

فيها من مسألة ما أعظمها وأجلها وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمتنازع) .

وفي أكثر من موضع يذكر الشيخ ما يذكره في كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة : (إن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط القتال ، وإنهم يقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام) .

وعندما تنه عن عقيدة المسلم يخون قوامه ، كوعاء العطر إذ ينفذ فدامه ، فيتبدد ما فيه . وكذلك ملاك الجماعة إذا وهنت عقائد الرجال . فيسر انحرافها عن الجادة وانصرافها إلى أي بدعة تجعل العبادة مظهرًا لا حقيقة له أو طقساً تزينه أخيلة الناس لأنفسهم ، ليكتفوا بالشكل عن المضمون . والصورة عن الحقيقة . يقول ابن عقيل :

« لما وضعت التكاليف على الجاهل والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . وهم عندى كفر بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج » .
وإذا أعاد الأمر بالمعروف الجماعة إلى الرشاد فيها ونعمت ، وإذا أصرت على الكفر فقتالها واجب :

يقول (ابن تيمية) إذ سئل عن قتال التار مع زعمهم اتباع أصل الإسلام : (كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابه رضي الله عنهم مانعي الزكاة حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم) وقال : (فأما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها - التي يكفر الواحد بجحودها - فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها . وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . . .) وقال : (وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به . فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابها على الله) وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) .

وقد أجمع العلماء أن من قال لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات .

وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) : المراد بهذا أهل عبادة الأوثان دون أهل الكتاب . . .) .

ويقول ابن تيمية في « السياسة الشرعية » : (فكل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله الذي بُعث به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . .) (والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ؛ ولذلك كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وكان باتفاق العلماء ، أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع ، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي ﷺ (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد) . وقال : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه) وفي مسند الإمام أحمد : (حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها) .

وفي الصحيحين : (أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أخبرني بشيء يعادل الجهاد في سبيل الله ، قال لا تستطيع ، قال : أخبرني . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر؟ قال : لا ، قال : فذلك الذي يعدل الجهاد) .

ومن الباب ذاته يقول : (كما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك . فيجب تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن) .

والقتال على هذا النحو جهاد أمر الله تعالى به وليس مجرد أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر (١) . والسكوت عن المنكرات أمر لا يغتفر ، والسكوت على المكفرات أبعد من العذر ، وأدعى للعقاب . وبخاصة لمن زاد علماً أو عبادة أو زهادة . روى عن الإمام أحمد وغيره أثراً أن الله تعالى أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا . فقال : يارب ، كيف وفيهم فلان العابد؟ قال : به فابدأ ، فإنه لم يتمعّر وجهه في قط .

وروا أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبيائه قل لفلان الزاهد : «أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك ؟ فقال : يارب ، وأى شيء لك علي؟ قال : هل واليت في ولياً أو عاديته في عدواً؟» .

(١) يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

ويرتب ابن حزم على كون الإنكار بالقلب أضعف الإيمان نتيجة ذات بال هي أن من لم ينكر بقلبه لإيمانه له وهو معنى بالغ في الدقة يدني من الكفر كل من لا يستنكر المنكر فيستتر به في دخيلة نفسه . والمسلمون على أن الإنكار بالقلب يجب أن يكون بالكراهية الكاملة التي يشهدها الله تعالى من قلب المنكر .

ولما سئل عليه الصلاة والسلام : أى العمل أفضل قال : (إيمان بالله ورسوله) قيل ثم ماذا؟
فأجاب : (الجهاد فى سبيل الله) .

* * *

والشيخ عامل بالدين لا مجرد عالم أو عابد أو زاهد . ومن عمله بالدين كان الجهاد .
فالصحابة حاربوا المرتدين لمجرد امتناعهم عن الزكاة مع أنهم يشهدون شهادة التوحيد كما أسلفنا
عنه فى مختصر سيرة الرسول أو كما يقول فى كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة محتجاً بعمل
الصحابة :

(ولقد جرّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم
أراد الدعاء جعل ظهره إلى جوار القبر ، ثم دعا . . .

فيقول أهل البديع والشرك قولاً غير الذى قيل لهم ، فبدلوا الدعاء بدعائه نفسه والشفاعة له
بالاستشفاع به ، والزيارة التى شرعت إحساناً إلى الميت إلى الزيارة بسؤال الميت ، والإقسام به على
الله ، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذى هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه
فى المساجد . . . وقد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير ، فقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه
الشجرة التى بويح رسول الله ﷺ تحتها ، ولما رأى عمر الناس يذهبون . . . سأل عن ذلك ،
ف قيل : مسجد صلى فيه رسول الله يصلون فيه . فقال : إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا . كانوا
يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً . فمن أدركته الصلاة منكم فى هذه المساجد فليصل
ومن لا فليمض ولا يتعمدها .

وقد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه شجرة يعلقون عليها أسلحتهم . . . وهذه
الأمور المبدعة عند القبور أنواع :

(أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة كما يفعله كثير ، وهؤلاء من جنس عباد
الأصنام . . .

والنوع الثانى أن تسأل الله به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة إجماعاً .
والنوع الثالث أن يظن أن الدعاء عنده مستجاب وأنه أفضل من الدعاء فى المساجد ، فيقصد
القبر لذلك ، فهو أيضاً من المنكرات إجماعاً وإن كان كثير من المتأخرين يفعله ومن هؤلاء من
يرجع الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت فيقول أحدهم : إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً
كان كحجة ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات يسافرون إليها وقت الموسم) .
والشيخ ينقل من صحيح البخارى عن أم الدرداء : (دخل على أبو الدرداء فقلت : مالك ؟
فقال والله ما أعرف منهم شيئاً من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً) .

وإذا كان ذلك شأن أبي الدرداء ، في عهد الصحابة - فما بالك بالمسلمين بعد أحد عشر قرناً حيث أصبح الكثيرون منهم على هامش الإسلام ، ومنهم من يلحدون وهم لا يشعرون أو يشعرون . ولم يكن لهم مغدى عن ضدمة كهربية تنجيهم من ثقاله الدجاجلة ، وتوقظهم من سبات كأنه الموت في عقولهم ، تحدثها فيهم جماعة حق مسلمة علمها الشيخ حقائق التوحيد ، وأن الموت في سبيله حياة . وضرب لها الأمثال في الكثير من فعل الرسول أو قوله عليه الصلاة والسلام مثل : (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) . وقوله :

(من اغبرت قدماء في سبيل الله حرمها على النار) وقوله : (عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) وقوله ﷺ : (رباط أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) ، ويقودها أمير جادت به السماء فكان بحيث قال عليه الصلاة والسلام : (إنما الإمام جنة ، يقاتل من ورائه ويتقى به) يقتنى آثاره ﷺ ، كما قال علي :

(كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو) .

ويا له من مثل أعلى في السيرة العطرة . ومن نجاح محقق للأسلحة المحاربة ، إذ يذكر الشيخ رجالها وأمراءها ما يرويه الواقدي : (أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى صارت شظايا . . . وياشر القتال فرمى بالنبل حتى فني نبله وتكسرت سية قوسه . وقبل ذلك انقطع وثره ، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سية القوس) .

هكذا ارتبطت دعوة الشيخ بالدرعية وأميرها وجندها ، وأمست دعوة ابن عبد الوهاب ودولة ابن سعود وحدة لا تقبل التجزئة ، وأصبحت الدعوة للدين الصحيح قانون الدولة وسبب وجودها . تموت إذا لم تعمل به وتحيا وتقوى قدر ما تعمل له ، وغدت الحرب ضرورة للدفاع . ومن الهجوم وسائل دفاع .

* * *

هنالك كان الأمير كفتاً للشيخ ، ولما تكافأ الشريكان بلغت الدعوة غرضها ، بالجماعة التي تعبد الله عن فهم ، فتستشهد عامة أن مواقع المعارك كمجالس الدروس كلها طرق إلى الله . ومن ذلك كانت المعارك والبطولات كالعبادات .

وكان أعظمها وأدامها «معارك الدرعية» في نجد وما جاورها مع «الرياض» وأميرها علي مر السنين :

بدأت المعارك بعد سنة من بيعة الأمير للشيخ ، ثم أصبحت حريماً والعينة والدرعية محوراً لتحالف ثلاثي من المؤمنين بمبادئ محمد بن عبد الوهاب . يتعاضد أمره يوماً فيوماً ، ويتبادر الناس

آحاداً أو ثباتاً أو أفواجاً إلى الدرعية فإما استقروا في جوار الشيخ ، وإما رجعوا إلى أقوامهم يدعون للدين الصحيح ، ويزرون بما يمارسونه من بدع منفرة أو مكفرة .

فالذين يقومون في جواره كهيئة أهل الصفة في جوار الرسول إيماناً واحتساباً ودربة وأهبة للقاء العدو . والذين يعودون أدراجهم ليسوا أقل تأثيراً في نشر الدعوة وإصلاح العقيدة .

وطوت أنباء الدعوة هضاب نجد ووديانها ، فكان لزاماً أن يتألب عليها شرار الأمراء والأدعياء من المسمّين بالعلماء ، والمرترقة من سوق « الكرامات » وصناديق النذور عند القباب والأنصاب والمغارات ، ومن أحاييل السحرة وأعاليل الكهان ، وأضاليل المتعلمين . فلقد كانت كل هذه الضلالات غذاء يومياً للناس في المجتمع . ولا شفاء لداء الكفر إلا السيف .

كانت المعارك الأولى مع الرياض سنة ١١٥٩ هـ ، ١٧٤٦ م لكن الحروب لم تلبث أن اشتعلت في أنحاء نجد وأطرافها على مدى أعوام عشرين حتى إذا مات محمد بن سعود سنة ١٧٧٩ ولى ابنه عبد العزيز فتابع أعماله الحربية على رأس الجيش إما بنفسه أو بقيادة ابنه سعود - والعرب تسميه سعوداً الكبير - وفي سنة ١١٨٧ توجت الانتصارات بالاستيلاء على مدينة الرياض بعد نحو عشرين عاماً من المعارك . وتعاقبت أيام الجحد بعد فتح الرياض :

فالجيش في سنة ١١٨٨ يغزو بلاد الدلم وينازل قبائل « وادي بني حنيفة » قريباً من الخرج في قتال مرير . وينتقل من ضربة إلى سدير والخرج والجمعة حتى إذا كانت سنة ١١٩٥ دخل قرية « اليمامة » وفي سنة ١١٩٦ دخل القصيم .

وفي سنة ١١٩٨ غزا إقليم الأحساء ، وفي سنة ١١٩٩ عاد يغزو الخرج ، ثم انطلق في سنة ١٢٠٢ إلى إقليم قطر في مقابل البحرين .

وفي سنة ١٢٠٢ أمر الشيخ بالبيعة لسعود بولاية العهد ، فالشيخ يحتضن الدعوة ويحنو على الشباب ، ويرنو إلى المستقبل .

وشهد عام ١٢٠٢ تطوراً في تاريخ الحروب ، فلم يكن صوت الدعوة أو صيت أسلحتها في شرق جزيرة العرب إلا تهديداً شديداً للأتراك وأشياعهم ، فأقبلت إلى نجد قوة حربية جديدة بأسلحة لم يألّفها العرب يقودها شريف مكة عدتها عشرة آلاف ومعها عشرون مدفعاً تركياً .

والتحم الجيشان . فكان المغيرون ينهزمون وأهل نجد يلهبون ظهورهم ويغذّون السير في آثارهم ، وكانت نهاية جيوش مكة في وقعة العدو .

ودخل الجيش السعودي . مكة وأمر بتدريس كتاب « كشف الشبهات » للشيخ في الحرم ، وكان الشيخ يدق أبواب التسعين من عمره ، فكان دخوله مكة بُشريات للجنة .

لكن مكة في أرض الطبيعة الإسلامية بداية لا نهاية ، فمنها خاطب صاحب الرسالة الوجود

الإنساني كله وأضغت الأسباع لمبادئها مرحلة بعد مرحلة ، بالهجرة ، وبالسرايا والغزوات والفتح المين .

ولذلك لم تنه عزمات الشيخ ولا جيوش عبد العزيز . فهو في عام ١٢٠٤ يغزو الأحساء ، ثم يعود ليغزو الأحساء والقصيم سنة ١٢٠٧ ، وفي سنة ١٢٠٨ ثقيف وجبيل وفي سنة ١٢٠٩ الخرج وفي سنة ١٢١٠ سارت الجيوش إلى قرى الحجاز تهزم جيش الشريف ناصر بالجمانية .

* * *

وفي سنة ١٢١١ أعاد التاريخ نفسه بمكة ، فأنفذ الشريف غالب رسلاً إلى عبد العزيز يطلب علماء للمناظرة كما يروي ابن غنام فبعث إليه وجرت المناظرة في مسألة قتال الموحدين للناس ، ودعوة الأموات فكان حمد بن ناصر (تلميذ الشيخ) مبعوث عبد العزيز - يأتي بالدليل القاطع من كتاب الله وأحاديث الرسول ، فاضطرهم للتسليم في المسألة الأولى ، أما ما نسب إليهم من الشرك فقد قال فيه كبيرهم لحمد بن ناصر : (إني لا أطالبك بما قاله علماء المذهب سوى ما قاله لي إمامي أبو حنيفة ؛ لأنني «مقلد» فيما قال فلا أسلم لسوى قوله - ولو قلت : قال رسول الله أو قال ذو الجلال - لأنه أعلم مني ومنك بذلك) . وطلب منه حمد بن ناصر تأصيل براهينه وحججه فعجز . وكتب حمد بن ناصر في ذلك رسالة مفيدة .

وكان اعتذار عالم الحجاز من التقليد عن غير فهم قبيحاً قبح الذنب ذاته ، لكنه كان صريحاً في أسباب مرأته وميحال نظرائه .

وفي سنة ١٢١٢ هبط نابليون بونابرت بجيش فرنسي أرض مصر ليثب منها إلى الهند ، فيضرب إنجلترا في موقع القلب من رقعتها العالمية . وإذا كانت جيوش عبد العزيز تسيطر على الجزيرة العربية فقد أرسل إليه «نابليون» بعثة برياسة «لاسكارى» للاتفاق على محاربة الأتراك . لكن الذى حدث أن قوة من ألفى مقاتل بقيادة الشريف حسن - كما يروي الرافعى - وبقيادة على الكيلاني - كما يروي الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٣ - عبرت البحر الأحمر من الحجاز إلى القصير بصعيد مصر وانضم إليها عرب الهوارة من أهل الصعيد والمغاربة والترك والمصريين فحاربوا الفرنسيين في مناطق الصعيد - القصير - جرجا - المنيا - وهذا أول إرهاب في التاريخ الحديث بالوحدة العربية أمام غزو أوربي .

وفي سنة ١٢١٤ ، سنة ١٢١٥ حج سعود بن عبد العزيز حجته الأولى والثانية مما يدل على أن الحجاز قد أصبح سلباً له ولأبيه .

واستعدى أشرف مكة مرة أخرى سلطان تركيا لحمايتهم ، منبهين على خطر الدعوة الوهابية على الأتراك .

وفي سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) غزا الأمير سعود الكويت ، وأقام جيشه أياماً بقرية الجهرة ، وهي الآن جزء من مدينة الكويت ، وعرض الإنجليز على أمير الكويت حمايتهم ، فأبى الأمير حفاظاً على استقلاله .

* * *

كان طبيعياً بعد أن استقر أمر الجزيرة العربية ، أن تسير الفتوح السعودية سيرة الفتوح الإسلامية ؛ ولهذا رأينا الدولة الفتية من فاتحة القرن الهجري تنطلق من نجد وتتجه إلى الشمال والشرق : في العراق والشام - نفس المنطلق والاتجاه اللذين سارت عليهما في عصر الخلفاء الراشدين وبالترتيب ذاته : الجزيرة العربية أولاً ، ثم أرض العرب في العراق ثم في الشام . أما العراق فقد استرعت أنظار السعوديين إليه كثرة المزارات والأضرحة والقباب التي يقيمها الشيعة ، ويعتبرها السعوديون إحياء للوثنية ؛ ولذلك أرسل عبد العزيز إلى الوالي التركي على العراق نسخة من كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وطلب منه أن يجمع علماء بغداد للنظر فيما جاء بالكتاب والعمل بما جاء فيه .

وأسند الوالي دراسة الكتاب إلى أحد العلماء ، وقدم العالم تقريراً للوالي يقول فيه : (فبعد أن طالعناه وفهمنا فحواه وجدناه كتاباً جامعاً لشتات المسائل مشتملاً على عدة رسائل لكنه قد جمع بين غث وسمين وقوى ووهين ، ووجدنا أحواله أحوال من عرف من الشريعة شطراً ولم ينعم فيها نظراً ، ولا قرأ على أحد ممن يهديه إلى النهج القويم ، ويدله ويوفقه على العلوم النافعة التي هي الصراط المستقيم) .

واستمر التناوش من قريب وبعيد ، فأخذ الوالي التركي في تأليب القبائل العراقية لمناجزة أهل نجد فصنعت ، ورد سعود عدوان العراق باقتحام حدوده سنة ١٢٠٣ (١٧٨٨) وتأديب قبائله .

وفي سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٤ قاد سعود غزواً ضد بني ظافر في أرض العراق ، فغنم كثيراً من المال ، وفي سنة ١٢١٠ (١٧٩٥) وصلت العمليات الحربية السعودية إلى ضواحي البصرة . وأصدر السلطان العثماني أمره إلى والي البصرة ليغزو الأراضي السعودية ، واتجهت حملة عراقية إلى الدرعية ، فقتل قائدها بين جنده . . وردت الدرعية بهجوم الأمير سعود على القبائل بوادي شمر وغيرها فوصل إلى منطقة السماوة .

وأدرك الوالي التركي أنه لا معدى له عن الحرب الشاملة مع الدولة السعودية ، فبدأ بتوجيه جيشه إلى الأحساء حيث للشيعة قوة لا يستهان بها ، وصمد السعوديون فلم يحقق أهدافه الحربية ، ورجع جيشه أدراجه بعد أن أوقد الفتنة في نفوس الشيعة ، فقتلوا من ظفروا به من رجال الدولة السعودية ، فشن السعوديون هجوماً خاطفاً على المزارات الشيعية وهدموها في عشرين أبريل سنة

١٨٠١ (١٢١١ هـ) وظهر الأمير سعود فجأة أمام كربلاء (المدينة المقدسة لدى الشيعة) ، فهدم مشاهدتها ، وأزال القبة المرفوعة على قبر الحسين رضى الله عنه ، وقتلت قواته كثيرين من أهل كربلاء ، ورجعت بما فى المشهد الحسينى من مجوهرات ومصاحف ثمينة مهداة من الملوك ومن الشيعة فى الهند وإيران وغيرها .

واشتعلت النار فى قلوب الشيعة ، فدخل على عبد العزيز بن سعود فى سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ رجلٌ فى زى الدراويش فقتله ، وهو فى السادسة والثمانين ، فبوع لابنه سعود . واستمرت الدولة السعودية فى تسيير حملاتها إلى مدن العراق عاماً بعد عام نجوس خلال الديار ، وتداهم كربلاء .

وفى سنة ١٢٢٣ = ١٨٠٨ بلغ الجيش السعودى فى غزواته قريباً من بغداد .

* * *

أما الشام ومصر فكان مقدم حجيجها متخذاً كل مظاهر الاستعلاء التركى على مصر والشام والحجاز ، وطقوساً لا يحيز بدعتها السعوديون - كافياً لإشعال نار الخصام .

فنع الأمير سعود فى سنة ١٢٢١ = ١٨٠٦ أمير الحج الشامى عبد الله باشا من الوصول إلى الحرمين ، واكتفى السلطان فى القسطنطينية بغزل الباشا ، وولى مكانه يوسف باشا كنج وأصدر إليه الأوامر بغزو الدولة السعودية ، فكان يزداد مطالاً كلما زاده استعجلاً . إذ لا حول له ولا طول : وفى الوقت ذاته كان سعود يبعث إلى أهل الشام جيشاً بعد جيش ليدخلوا فى طاعته ، وكان يرسل سراياه إلى داخل البلاد ، ولكن استغلال الأتراك لمنع الحجيج ثبط أهل الشام ومصر عن الدخول فى دعوة سعود .

أخذت الدولة تستقر والدعوة تنتشر ، والأمير سعود يتابع الحج عاماً بعد آخر ، حتى اكتملت له حجرات خمس سنة ١٢٢٣ ، وكسا الكعبة وعمت الدعوة جزيرة العرب بما فيها الحجاز ، وانقطعت الموبقات وامتنعت البدع ، وعم نقاء الاعتقاد وإخلاص الدين لله جزيرة العرب ، حتى التدخين امتنع من الطرقات لما فيه من بدعة ضارة ^(١) وأرسل سعود سراياه إلى بعيد تعلم الناس التوحيد فى عمان ثم فى اليمن وعسير وتهامة والهاتف . وبلغ جيشه النظامى خمسين ألفاً . ومنذ عام ١٢٢٣ لم يخرج إلى مكة حجيج مصر والشام والعراق والمغرب .

(١) ظهر الآن مايعتبر شهادة للمنجح الوهابى فى تحريم الدخان ، فأصبحت الحكومات الأوربية ، والحكومة المصرية تنذر الناس رسمياً بالإصابة بالسرطان ومرض القلب من جراء الدخان وهما أخطر الأمراض فى العصر الحاضر .

وفي عام ١٢٢٣^(١) سير سعود جيوشه إلى عُمان وناصرت السفائن الإنجليزية أهل عُمان ضد جيوش سعود .

وفي سنة ١٢٢٥ سارت الفيالق إلى البحرين في الجنوب الشرقي وإلى المزة في الشمال بسورية ، ودانت أطراف جزيرة العرب لسعود . وحج حجته السابعة واحتفلت به رعيته ، وخطب له في حجيج مكة ، وأهدى شريف مكة إليه هداياه رمزاً للخضوع لسعود (الكبير) .

(١) في هذا العام توفي حسين بن الغنام واضع كتاب تاريخ نجد . وهو أصدق المراجع لذلك التاريخ ، فهو تلميذ الإمام محمد بن عبد الوهاب وقد كلفه الشيخ وضعه . يقول في مقدمته (أردت أن أصنف فيما أشرق ضياؤه وشاع في غالب الأقطار واشتهر من الغزوات التي هي في مجد الدهر كالغرر . . . والإمام أبيده الله يعزم على في ذلك ويشير . . . فشرعت فيه حتى أتقنته . . .)

الفصل الثاني

الملحمة

كانت هزائم وإلى العراق وعجز وإلى الشام مظهرين من مظاهر الشلل الذي أصاب الإمبراطورية التركية من قرون ، وازداد تفاقمًا في القرن الثاني عشر للهجرة ، وكانا مظهرين محليين . لكن انقطاع الحجيج التركي عاما بعد عام جرح دائم التزييف في قلب دولة الخلافة . وامتناع الحجيج من مصر والشام والعراق وسواهما إعلان عالمي عن عجزها ، فوق ماله من آثار محلية في هذه الأقطار العربية الخاضعة للأتراك ، والتي صحت على مدافع الحملة الفرنسية وما جاءت به إلى الشرق من مبادئ تغري الشعوب بالحكام ، وعلى كلمات « المطبعة » ذات الأحرف العربية التي جاءت بها الحملة ، فكان للمطبعة أعظم الأثر في نشر العلم ، فأحدثت صحوة العالم العربي ، وهباته الصحوة لقبول الأفكار الصحيحة على طول القرن الثالث عشر للهجرة في كل بلاد الإسلام ، لتنتهي بتحرير العرب من نير الأتراك ابتداء بمصر في القرن الثالث عشر وانتهاء بالعراق والشام في القرن الرابع عشر .

ولم يمنع السعوديون الحجيج ، وإنما منعوا أن يغزو أرض الحرمين ما صاحب الحج من البدع التي افتنّ فيها الأتراك الأفانين فيما يتعلق بالمحمل وجبال المحمل وطقوس المحمل ، تسير وراءها قوافل الحجيج الوافدة من تركيا أو مصر أو الشام أو العراق .

ولقد شهدنا الناس بمصر في النصف الأول من القرن الهجري الحالي - يحتشدون لتبصر أعينهم كسوة الكعبة تحملها إليها كل عام جبال المحمل : مبرقشة هي الأخرى بمرقشة الكسوة ، وعلى الجمل أردية نسجت خيوطها من الذهب والفضة : وكأن جمل المحمل سلطان آل عثمان ذاته ، تتقدمه الطبول بموسيقى السلاطين ، وكل أولئك مُبدّع في الإسلام ، ويصحبه جيش مصغر بأسلحته النارية لحماية الحجيج من سراق البادية . وكانت الحكومات تحتفل رسميا بوداع المحمل . وباستقباله .

والذين لم يحجوا ، كالذين يحجون ، يلمسون بدن « جمل المحمل » ويتبركون ! . أما القوة العسكرية التي تصاحب الحجيج فهي إعلان تركي عن سلطان « حامى الحرمين » في البلد الآمن الذي يجب أن تبعد الجيوش منه .

ولما استولى السعوديون على الحجاز وطبقوا شرائع الإسلام عبد الناس الله وحده ، وانقطع السراق عن السرقة والعصاة عن أى معصية .

غير أن الإمبراطورية العثمانية التى نخرت عظامها تستطيع أن تشن الحرب باستعمال وال تركى طموح أشد أيداً من والى العراق والشام ، وأكثر توقانا لمرضاة السلطان .

وبهذا فُرض على محمد على - والى مصر للسلطان - أن تكون أولى حروبه ، حرباً على العرب : سير محمد على جيشاً عدته أربعة عشر ألفاً من الترك والمغاربة إلى الحجاز فى سنة ١٢٢٦ بقيادة ابنه طوسن . وتلاقى جيش طوسن والجيش العربى بقيادة عبد الله بن سعود ، وكانت عدته ثمانية عشر ألفاً ، وكتب النصر للعرب وانهزم طوسن بجيشه تاركاً ٧ مدافع وأربعة آلاف قتيل فى أرض المعارك وقتل من العرب ستمائة .

وتعلم المنهزمون أشياء فى أرض المعارك ينقلها عن الجبرى (المؤرخ المصرى) عثمان بن عبد الله بن بشر (النجدى الحنبلى) : إن الأحياء من المنهزمين كانوا يقولون :

(أين النصر وأكثر عساكرنا على غير ملة ، ومنهم من لا يدين بدين ولا ينتحل مذهباً . وصحبنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع فى عرصتنا أذان ، ولا تقام فريضة ولا يخطر فى بالهم شعائر الدين ، والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع . وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر أخرى للصلاة وعساكرنا يتعجبون من ذلك ؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته - انتهى كلام الجبرى) .

وفى سنة ١٢٢٩ مات سعود وولى الإمرة ابنه عبد الله .

كان سعود يحضر مجلس الشيخ فلقد ولد سنة ١١٦٥ ، وكان بطل حروب من شبابه ، وفى إمارة أبيه ، مثلاً كان أبوه عبد العزيز تلميذ الشيخ بطل حروب أبيه محمد بن سعود . أما عبد الله فكان يجلس إلى عبد الله بن الشيخ ويحضر دروسه فى التفسير (تفسيرى ابن جرير الطبرى وابن الأثير) ودروسه فى الحديث (شرح صحيح البخارى) ، وكان مؤهلاً للنصر مرة أخرى على الأتراك ؛ إذ عاد إلى الحجاز جيش جديد يقوده الوالى التركى محمد على بنفسه .

يروى ابن بشر حوادث سنة ١٢٢٩ فيقول : (حصلت الواقعة بين الترك وبين تلك الجنود الحجازية والتهامية قرب حصن نجروش ، فاقتلوا شديداً وانهزم الترك هزيمة شنيعة ، فغنم المسلمون خيامهم وقتل من الترك مقتلة عظيمة) ثم يقول : (وفى حج الشامى والمصرى ، وأبقوا عند محمد على ذخائر وأموالاً أتوا بها من جهة الترك) .

ويقول عن سنتى ١٢٢٩ و ١٢٣٠ : (فى هذه السنة وقعت الواقعة المشهورة بين فيصل بن

سعود وبين الترك وقتل من الأتراك عدد كبير . . . فلما كان في العام التالي أقبل محمد علي صاحب مصر بعساكر كثيرة ووقع كسرة في ناحية جموع المسلمين - ثم رحل فيصل . . . وترك الترك في بلدة تربة . . . ثم سار منها إلى بلدة تباله وهي البلدة التي هدم فيها المسلمون (ذا الخلصة) زمن عبد العزيز ورجع محمد علي إلى مصر

ثم إن الله تعالى ألقي الرعب في قلوب الترك ، فجنحوا للسلم . . . وأظهر التركي كتباً معه وأنه حضر للمصالحة فوقع الصلح بينهم وانعقد بين طوسن وعبد الله على وضع الحرب بين الفتيين ، وأن الترك يرفعون أيديهم عن نجد وأعمالها . . .)

بعث طوسن مشروع الصلح إلى أبيه ورسولين من قبل عبد الله هما عبد العزيز بن حمد وعبد الله ابن ثنيان وأحدهما ابن بنت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان من قضاة الدرعية زمن سعود بن عبد العزيز .

وينقل ابن بشر قول الجبرتي في المجلد الرابع من تاريخه في هذا الصدد :

(لكأن الباشا لم يعجبه هذا الصلح ولم يحسن إنزال الواصلين وانصرفا إلى المحل الذي أمرا بالتزول فيه ومعها أترك ملازمون لصحبتها . ودخلا إلى الجامع الأزهر وسألوا عن أهل مذهب الإمام أحمد بن حنبل وعن الكتب المصنفة في مذهبه فقبل : انقرضوا واشتريا نسخاً من كتب التفسير الحديثة مثل الخازن والكشاف والبغوي والكتب الستة المجمع على صحتها وغير ذلك .

وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت فيهما أنسا وطلاقة لسان واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحسن الأدب والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب - ما يفوق الوصف) .

انتصار الدعوة في معركة الدرعية :

في سنة ١٢٣١ = ١٨١٦ مات طوسن وجهاز أبوه جيشاً آخر في العام التالي يقوده ابن آخر هو إبراهيم باشا .

ونقل القائد المدفعية الثقيلة مع جيش عصرى التشكيل إلى الجزيرة العربية ، يقطعها من الغرب إلى الشرق ، لأول مرة في التاريخ منذ حروب الردة .

ويذكر ابن بشر في حوادث سنة ١٣٣٢ أن الترك رمت الموحدين في ليلة واحدة خمسة آلاف

رمية بالقنابر والقبس وهى أجهزة دمار لا يملكونها بل لم يكونوا يعرفونها .
ودخلت سنة ١٢٣٣ وجنود إبراهيم باشا فى عنيزة وقصد أهل بريدة ونازل أهلها
فأطاعوا وبلدتى أشيفر والعديقية فاستأمنوا له وسار إلى شقرا وصالحوه وكاتبه
أهل المحمل وحرميلا وأعطوه الطاعة) .

وقصد إبراهيم بالترك إلى ضرماء وكما يذكر ابن بشر (أنهم أطلقوا بين المغرب والعشاء خمسة
آلاف وسبعائة رمية ما بين قبس ومدفع وقنبر لم يفجأ جنود نجد إلا الصراخ من خلفهم أن
الترك قد خلفوكم فى أهلكم وأولادكم فكروا راجعين لبلدهم) - .

وفرق الباشا عساكره تجاه أهل الدرعية وكانت مقسمة خمسة أقسام لكل منها أسوار وأبراج
لا يقل محيطها عن ١٢ كيلومتراً : فبدأ فى ١٦ أبريل سنة ١٨١٨ يحفر الخنادق يعاونه ضابط
فرنسى كان فى جيش نابليون يسمى Vaissaire ونصب المدافع على المدينة . ولم يضرهم نار الحرب
إلا بعد أن جاءه مدد من أبيه بقيادة خليل باشا بعد حصار دام خمسة أشهر .

ودامت الحرب سجالات بين القوتين على مدى عشرة أيام متوالية بالمدافع والقبوس والقنابر
والبنادق ، ثم أصبحت هجمات بالسلاح الأبيض .

يقول ابن بشر (ثم وقعت وقعة غبراء فتضاربوا من بعيد وقريب فانهزم السعوديون وتتبعهم
الترك وقتل الترك منهم نحو مائة ، منهم عبد الله بن محمد بن سعود ومحمد بن حمد بن مشارى
ابن سعود . وأمر الباشا العساكر الشمالية من المغاربة والدالتلية أن يقدموا الحرب على أهل الدرعية .
فاشتعلت السماء وحملت عليهم الترك ثم حمل الباشا وعساكره على بطن الوادى
على فيصل ومن معه وإخوته ومن معهم وحملت المغاربة والدالتلية على من فى جبهتهم من
المتاريس الشمالية ، فانهزم أهل الدرعية ، فوقف فيصل وأخوه سعيد وكثير من الأعيان والشجعان
فجالدوا الروم^(١) جلاد صدق حتى ردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم عدة قتلى

وكانت العساكر تتوالى من مصر إلى الدرعية ، فى كل أسبوع وشهر رحلة وقافلة من الطعام
والأمتاع وأهل الدرعية كل يوم ينقصون . وفى أثناء هذه الحرب أيضا قتل فيصل بن
سعود بن عبد العزيز ، ثم تابعت الاشتباكات وطال الحصار ، فلما كانت صبيحة السبت الثالث
من ذى القعدة (١٢٣٣) حمل الترك على مخايئ أهل الدرعية وهزموهم فيها . فلما رأى عبد الله

(١) التعبير عن الأتراك بالروم قديم . استعمله المؤرخون كابن عربشاه ، وهو يتحدث عن سير تيمورلنك لمحاربة الروم قاصداً
بهم الأتراك ، لخلوهم محل الروم فى إمبراطوريتهم ، والأتراك هم الذين سماوا إسطنبول (إسلامبول) بعد إذ فتحوها ، وهى مدينة
القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين إمبراطور «الروم» واستعمله الجبرى فى تاريخه للحديث عن الوعظ التركى ويستعمل أحياناً وصف
الططر (التار) تعبيراً عن الأتراك واستعمله ابن بشر . ويقول فى بعض الأحيان هؤلاء الأروام .

ذلك بذل نفسه للترك في ٨ ذى القعدة = ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ وفدى بها النساء والولدان والأموال ، فخرج إليه الباشا وتصالحا على أن يركب إلى السلطان (سلطان آل عثمان) فيحسن إليه أويسىء) .

ويضيف ابن بشر : (إن كاتب الباشا ذكر أن الذي هلك من العسكر من ظهوره من مصر إلى رجوعه اثنا عشر ألف رجل . والذي قتل من أهل الدرعية في هذا الحصار ^(١) ، عدد كثير قيل إنه أكثر من ١٣٠٠ رجل . . قتل من آل سعود نحو واحد وعشرون رجلا منهم فيصل بن سعود وأخوه إبراهيم وأخوه تركى وتوفى عبد الله بن عبد العزيز آل سعود بعد الصلح وقتل محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب . . ورحل عبد الله ابن سعود من الدرعية إلى السلطان ، وليس معه من قومه إلا ثلاثة رجال أو أربعة ، مع العساكر إلى مصر ، سار من مصر إلى الترك . وقتل هناك . رحمه الله تعالى) .

وعين السلطان التركى إبراهيم باشا واليا تركيا على الحجاز

* * *

يقول الجبرتي في حوادث سنة ١٣٣٤ عن مقدم الأمير عبد الله إلى القاهرة :
(وصل عبد الله الوهابي ، فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا بن الباشا ، فلما دخل عليه (على محمد

(١) زرنا قرية الدرعية في ١٦ من يناير سنة ١٩٧٦ وهي تقع على بعد ٢٠ كيلومتر من الرياض في ملتقى طرق غبراء وسدير وصفا والحريقة والخيف - على هضبة فوق وادي حنيفة وفي شرقها آثار القلعة التي كانت تشرف على الوادي ووراءها آثار سور وبقايا قصر آل سعود وحصن ومسجد للقصر وعلى مقربة منه آثار مسجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومدرسته وداره تتحدو منه الدرجات إلى وادي بني حنيفة .

وفي سائر الجهات آثار بلدة لم يبق منها الا قليل : أظهرها آثار البليدة حيث كانت حصون وأبراج . وكان ذكر النخل الذي تحدث عنه ابن الغنام في كتابه تاريخ نجد فقال : (وفي بليدة الفدا ذكر النخل المعروف بالفحال يأتيه النساء والرجال ويلبسون عنده بالبكور والآصال . وتأتيه المرأة إذا تأخر عنها الزواج ، ولم تأتيا لنكاحها الأزواج ، وتضمه إليها بحضور قلب ورجاء الانفراج وتقول : يا فحل الفحول أريد زوجا قبل الحول ! هكذا صح عنهم القول ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)
وعلى مبعده كيلو متر أو أقل من المباني تبدو أرض النخيل في الوادي يانعة في بسط من الرمال الصفراء ، أما شوارع القرية فأزقة لاتزيد سعتها على مترين أو نحوهما .. يشقها شارع لا يصل عرضه إلى ثلاثة أمتار يقطع القرية من الشمال إلى الجنوب ، وفي جواره قصر الأمير . وللقصر ساحة مسورة مؤدية الى بابه . وفي الجدران فتحات لإطلاق السهام على ارتفاع نحو ثمانية أمتار من الأرض . والقصر أطلال من الآجر . وقريباً من الأطلال تقوم بيوت بعض الأهليين ، ويجوارها بقايا مسجد قيل لنا إنه مسجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وبه محراب في العراء ، في جواره بقايا جدران المسجد .

في الجانب الشرق مساكن حديثة ومرافق للدولة لمكتب التدريب الزراعي ومدرسة محمد بن سعود . وربما بلغ عدد سكان القرية الآن نحو ألف نفس ، وفي بعض المساكن أجهزة إذاعة غير مرئية (راديو) وأجهزة إذاعة مرئية (تليفزيون) وفيها هاتف (تليفون) .

على) . . . قام له وقابله بالبشاشة ، وأجلسه إلى جانبه . وقال له : ما هذه الطاولة ؟ فقال « الحرب سجال » .

قال : كيف رأيت إبراهيم باشا ؟ قال : « ما قصر وبذل همته . ونحن كذلك . حتى كان ما كان من قدر المولى »

قال : أنا إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان .

قال : « المقدريكون » ثم ألبسه خلعة ، وكان بصحبة الوهابي صندوق من صفيح . . . وفي يوم الأربعاء التاسع عشر سافر عبد الله بن سعود إلى الإسكندرية وصحبته جماعة من الططر (التتار = الأتراك) إلى دار السلطنة ومعه خادم لزومه . . . واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٤ وفيه وصلت الأخبار أيضاً عن عبد الله بن سعود أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به في البلدة وقتلوه عند باب همايون . وقتلوا أتباعه أيضاً ، فذهبوا مع الشهداء - انتهى كلام الجبرتي) .

* * *

وترى بادی الرأي :

أن الجبرتي مؤرخ مصر ، وعالم الأزهر في القرن الثالث عشر ، وفي عصر محمد علي نفسه ، قد أعلن رأى المسلمين في الأبطال من آل سعود : أنهم ذهبوا مع الشهداء .
ولسوف نقراً بعد نحو مائة عام رأى إمام مصر (محمد عبده) حيث يقول عن محمد علي :
(فليقل لنا أحد من الناس أى أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين)^(١)

(١) وكما أعلن الجبرتي رأيه صريحاً أعلن معاصروه من العلماء غضبهم بطريقة ضمنية - ذكر الجبرتي أن العلماء قابلوا إبراهيم باشا عند رجوعه من الحجاز فلم يحسن إستقبالهم مما يشير إلى أزمات ثقة منهم فيه وفيهم منه .
وكما أعلن محمد عبده رأيه صريحاً أعلنه مؤرخ عصر محمد علي بطريقة ضمنية . فالتورخ المصرى عبد الرحمن الرافعى لم يملك إلا السكوت عن الحرب في جزيرة العرب وهو يشيد بمحمد علي بعد إذ تخلص من ولائه لتركيا وأعتبر نفسه مصرياً . يقول الرافعى [فهذه الحروب هى إذن من أقوى دعائم الدولة المصرية المستقلة ومن أعظم أركان القومية المصرية وخاصة فتح السودان وجنوب سوريا والأناضول . فإن فتح السودان قد أتم الوحدة القومية وحروب سوريا والأناضول كانت من أقوى المقومات المصرية إذ لا يخفى أنها فتحت أذهان المصريين إلى أن لمصر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن القومية التركية] .

أما إبراهيم باشا فيعتبر نفسه عربياً ، ويفخر بالعروبة بغداد بلغ نضجه السياسى بعد بضعة عشر عاماً ، بما حققته الجيوش المصرية على الأتراك ، فالتورخ المصرى عبد الرحمن الرافعى يذكر في هذا المقام ما جاء في كتاب (حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ - ١٨٣٣) لمؤلفيه كادفلين وبارو ما نصه « بينما كان الحصار مضروباً على عكا سئل إبراهيم باشا : إلى أى مدى ستصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا . فقال ما معناه : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم معهم باللسان العربى . كما يذكر ما جاء في كتاب (مهمة البارون لبو الكونت) - وكان مندوب فرنسا - بعد لقاء له بإبراهيم باشا في أعقاب واحد من انتصاراته » « إن إبراهيم باشا يجاهر علناً أنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم سواء في الإدارة أم في الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً... وقد سأله أحد جنوده : كيف يطمئن في الأتراك وهو منهم ؟ فأجابه إبراهيم باشا على الفور : أنا لست =

وأن عامى ١٢٣٣ - ١٢٣٤ إذا كانا عامين للتراجع فهو تراجع الذى يستجمل ليهمج ؛ فعقيدة الإسلام لا تنهزم ، والأفكار أنوار لا تحجبها الأستار .

وأن مادارين محمد على وابن عبد الله بن سعود دارين عامل للسلطان التركى وبين أمير عربى لا يعمل إلا لله . أبوه وجده وجد أبيه أبطال حرب لم تعرف جزيرة العرب نظراء لهم من نحو قرون عشرة ، حاربوا للآخرة لا للدنيا ولمقاومة خرافات أدخلها على الإسلام آباء هذا السلطان وجدوده ، فى حين حارب الأتراك ، ليقصدوا الخرافات ، ويبقوا الحرمين الشريفين حلية فى لقب الخليفة التركى (حامى الحرمين) لا محل ميلاد للعقيدة الإسلامية الصحيحة ! مع الاستكبار فى الأرض والاستهتار بالشريعة !

ولما قتل حامى الحرمين فى دار السلطنة العثمانية أمير العرب كان حامى الحرمين سفاكاً يشرب دم أسيره كما قد طالمافعل أجداده التتار والأتراك !

وأن الحوار بين الوالى التركى وبين الأمير الشهيد كان حجاجاً من فارس مسلم يؤمن بقضاء الله ، ولجاجة من حاكم غاشم غشم آبائه من الشعوبيين الذين دمروا أوأخروا العرب فى قرون عشرة . ولما سأل الوالى التركى عن قائده فى الحرب كان فى جواب البطل إنصاف للقائد واستدراك على السائل . والقائد لم يقصر وبذل همه . وكمثله كان عبد الله . والله غالب على أمره . ولما أجاب الأمير العربى (المقدر يكون) كان جواب بطل حرب ، علمته الرماح أن الحياة فى خضوع العبيد ليست هى الحياة ، وعلمته العقيدة أن الله بالغ أمره منفذ قدره ؛ فتلك هى الخصيصة الأولى للموحدين .

= تركياً . فإنى جئت إلى مصر صبيّاً . ومنذ ذلك الحين قد مصّرنى شمسها وغيّرت من دى وجعلته عربياً . وفى مقام آخر يذكر المؤرخ ذاته عن البارون « . . . » . وهنا سكّ إبراهيم باشا قليلاً عن الكلام كأنما أستوقفه فكرة طارئة . لم قال : إنى أبحث كثيراً وأتساءل : لماذا تحقد الدول الأوربية كل هذا الحق على الأمم الإسلامية ؟ . قلت إنى لم أفهم كلام سموكم . قال : نعم . . . »

وفى موضع آخر يذكر ما ينقله البارون ليوالكونت عن مصطفى بك ممتاز ياور إبراهيم باشا وزير المعارف فيما بعد قوله للكونت « أنتم معاشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات . أما نحن فقد جئنا إلى مصر قبل أن تتجاوز سن الصبا . فلسنا الآن أتراكاً . ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب . ولقد اندمجنا فى أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية . اندمجنا فى تلك الأمة العربية التى سبقت أوروبا إلى الحضارة . . . » .

فإبراهيم باشا وياوره يردان القومية العربية إلى عناصرها الأصلية وبهايان بها : اللغة العربية والدين . والموقع الجغرافى الذى بمصر وعرب . والموقف التاريخى الذى يجعل أوربة تضمر الحق للأنم الإسلامية . والحضارة الراقية النبيلة الذكية التى سبقت أوربة وفاق الأتراك .

لكن الدمار الذى أنزله الأتراك وأوربة بمحمد على وبمصر فى نهاية العصر جعل بعض أحفاده يلوذون بأخلاق المهزمين ويعودون إلى اعتبار أنفسهم أتراكاً ، فيقضى عليهم المصريون فى سنة ١٩٥٢ .

ولما سأل الوالى التركى عن « المطاولة » كان يخشى أن تحسب عليه من ربه فى إسطنبول الكلمة الصحيحة . وهى « البسالة أو المقاومة التى طالت » . وكان الجواب من عبد الله جواب بطل عليم بمقادير الحروب . « فالحرب سجال » . يوم لك ويوم عليك !

ولو عرف الوالى التركى قول الشاعر العربى (والدهر بالانسان دوارى) لتوقع الهزائم المقبلة للسلطان وله ، وللقوة التى لا تقوم على العقيدة الدينية أو الفضائل الإسلامية فتساوى بذلك والدولة الوثنية ، وتنزل بها صعقات السماء من فساد الحكام واختلال الأحكام واختلاف الرعية . والرعية مؤدية للحاكم ما أدى الحاكم لله .

قالوا : إن « محمد على » نصح السلطان العثمانى ، ولكن السلطان أبى إلا القتل . وكلا الأمرين مفهوم . فصاحب الجيش الذى راعته بطولات الشهداء كان يتحلب لعبه أملاً ، وعرقه خجلاً ، ليستقر له أمر مصر وكى لا يوقع - أكثر مما أوقع - بين البلد العربى الذى حكمه والبلد العربى الذى سفك دمه .

أما السلطان فتركى آخر لا يريد أن يستقر فى العرب أمر .

* * *

وانما تضع الوقائع النبيلة المعارك الطويلة فى إطارها الصحيح فتجعلها تجعل الدليل ، فى طريق الجهاد الطويل ، لنصرة الدين . وفى طليعتها واقعتان صادقتان صدق الغريزة إذا أنطقها الفطرة دون تزويق :

أما الواقعة الأولى : فأمر صدر فى نشوة النصر فى ساحة الحرب ، يوم دخل الجيش السعودى مكة بعد وقعة العدو ، فأمر قائده بتدريس « كتاب كشف الشبهات » فى الحرم المكى . فتلك غاية الحرب وثمرتها النصر .

والأخرى يوم جاء إلى مصر رسولاً عبد الله مع مشروع طوسن للصلح ، فدخلا الجامع الأزهر يسألان عن علماء الحنابلة ، ويشتريان كتب التفسير وصحاح السنة ، ويهران الجبرئى بما يفوق الوصف .

أما سائر الدلائل فيجزئ عن الإسهاب فيها السلوك العام الذى تواترت فى إعلانه الوقائع على مدار ثلاثة أرباع قرن : يؤدون الصلاة وهم يحاربون ، ويقسمون الفئى قسمة المسلمين . ولا يحتلون أرض العدو إذ يتصرون ، مادام قد صحح عقيدته ، فهو عندئذ مسلم داره دار إسلام جديره بالذود عنها كديار الإسلام . ولا يكفون عن الائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر ، ويرفعون مستوى الجماعة التى كانت تحاربهم إلى مستوى جماعتهم فى العلم بأصول الدين والأدب والتهديب والتربيب . بهذا ارتفعت الجماعة العربية إلى ذروة عالية من السلوك الإسلامى آلت إلى الحقب التالية

فضائل إسلامية يزدان بها جيل بعد جيل .

- ١ - والتاريخ إذ يسجل انتهاء معركة الدرعية العسكرية يسجل ابتداء انتصار عقيدتها الدينية واتصالها بالعالم ، وجريان سيرتها على الألسن وعلى أقلام العلماء وفي دروسهم .
- ٢ - أما عن الحرب فالأتراك لم يكسبوا الحرب وإن كسبوا معركة ، وإنما يكون الكسب للشهداء في الدنيا ، كمثل كسبهم في الآخرة ، إذا بقيت رحي الحرب قادرة على أن تعود للدوران في الحياة .

ولا يهزم جيش بقيت لدى شعبه إرادة النصر ونخوض المعارك .
ولقد تكون الغداة في التاريخ يوماً أو عاماً أو أعواماً .

ومن الهزائم ما هو أنبل من النصر ومنها ما فيه دروس للانتصار :
كان عليه الصلاة والسلام يقول : (أُحُد هذا جبل يحبنا ونحبه) ولم يعرف المسلمون هزيمة بعد أحد . وستلاحق الانتصارات على عقيدة الدرعية فيما بعد . وعلى سواعد أبناء هؤلاء الأمراء وهؤلاء الشهداء .

٣ - ولئن كان على النفس أن تجزع إذ تشهد الجيوش المسلمة تغزو أرض الحرمين لتقاتل الموحدين الصادقين ، إن في هذه المعارك دلالة إثبات للجسارة الجبارة التي حارب بها الموحدون ، ولجلال الاستشهاد من ألف وثلثمائة رجل هم كل الذكور القادرين على الحرب من قرية الدرعية حتى ليبلغ عدد الشهداء من الأمراء واحداً وعشرين أميراً بعد أمير ، يتهاوون دراكا كالأنجم المنكدة . وإنما بلغ عدد الشهداء هذه الأرقام لأن أصحابها كانوا يدافعون عن الدين الذي خاض آباؤهم المعارك لنصرته في كل أنحاء نجد والحجاز وتهامة والعراق واليمن والشام وغيرها من بلدان الإسلام .

٤ - وإذا كان عجباً تعظم الظلم من أهل الأرض لأنفسهم ، وطول الحصار وفداحة الدمار الذي لا تزال تنطق به رسوم الدرعية وأطلالها ، وإصرار العدو على مسحها من الوجود بالمدافع ، فليس ذلك غريباً ، وإنما هو لفت للانتظار للوعد الحق عند المسلمين ، أن الذي ستمحوه السماء من الوجود بعد مائة عام ونيف هو :

١ - السلطان التركي وخلافة بني عثمان بتمامها - ٢ - والوالي التركي ودولة محمد علي بتمامها .
أما الذي سترفعه السماء عالياً في الدنيا فهو أسماء هؤلاء الشهداء وأبنائهم وأركان دولة عظيمة تطلع إليها أعناق الأتراك وبقية العالم .

وإنما كانت السماء تتكلم بلغة « القدر » الذي تحدث عنه عبد الله بن سعود بلسان عربي مبين وعمى عنه سلاطين الساعة من محمد علي إلى مولاه في إسطنبول .

وإذا كان التاريخ لا يعرف معركة مات فيها أكثر من أمير أو أميرين من جيش أو جيشين فإن ارتفاع القتلى من الأمراء إلى عشرة أضعاف هذه النسبة دلالة على أنهم يقتفون بدقة آثار الصحابة ، فيستشهد العظماء في الصفوف الأولى هنا وهناك : في عهد أبي بكر على هذه الأرض ذاتها في اليمامة والجيليلة وعقرباء .

في يوم مؤتة قتل أمير الجيش زيد ملاقياً الرماح بصدرة ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضن الراية فقتل كذلك ، فأخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فقتل ، فأخذها خالد واندقت في يده أسياف سبعة ! وفي يوم أحد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : (عليك بابن عمك) ويقول أبو بكر : فأني طلحة بن عبيد الله وقد نزع منه الدم ، فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مغشى عليه ، ثم أفاق فقال : ما فعل الرسول ؟ فقلت : خيراً ، وهو أرسلني إليك ؛ قال : الحمد لله : كل مصيبة بعده (جلل)

فشهداء الدرعية كانوا أبناء لآباء ، يصدق عليهم قوله سبحانه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) آل عمران ١٦٩ و ١٧٠

* * *

وفي الناحية الأخرى تنطق أخلاق الأتراك بمنطق المنهزم ، فيسلك القائد المسلك الدميم في موضع الموعظة ، ويسلك أبوه مسلك سوء !

١ - لقد أحضر إبراهيم باشا إلى مجلسه عقب المعركة عالم نجد ومؤلف كتاب (تيسير الحميد في شرح كتاب التوحيد) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، وأظهر بين يديه آلات اللهو والطرب لينال من دينه إن رضى ، ومن كبريائه إن رفض الموافقة على ما يكره ، ثم أرسله مع عساكره إلى المقبرة حيث أطلقوا عليه الرصاص فاستشهد !

٢ - والغدر شئ شنة يعرفها التاريخ لأبيه ، فهو الذى ذبح ضيوفه الممالك بعد إذ دعاهم إلى طعامه في وليمة ^(١) ، تتقاماً بجوارها ذكريات ولائم السفاحين من بنى العباس ومدابجهم ، ثم تجرع

(١) دعا إلى الوليمة بمناسبة سفر جيشه إلى الحجاز الممالك وأعوانهم فحضروا في ٣١/٣/ ١٨١١ ، فحصدتهم النيران من كل جانب ، ومن قبل ذلك بعامين تخلص من الزعيم المصرى عمر مكرم سنة ١٨٠٩ .

ومن المؤرخين من يقررون أن (محمد على) كان يدبر لجيشه ذاته مذبة في الجزيرة العربية ليتخلص من مواطنيه الألبانيين الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧ . ولم ينشئ محمد على جيشاً مصرياً إلا بعد سنة ١٨٢٠ . . يقول السردار إسماعيل سرهنك باشا . وهو تركى تولى نظارة المدارس الحربية في مصر في القرن الميلادى الماضى (وكان بمصر وقتئذ جيش يبلغ ٢٥ ألف مقاتل جميعهم من «الباشيوزق» الذين كانت الدولة «العثمانية» جمعهم تحت قيادة الصدر الأعظم ضياء باشا لما أرسلته لها لإخراج الفرنسيين من =

كأس السوء حتى الثمالة فترقى من الغدر برعيته التي استأتمته إلى القتل بسيدته : سلطان تركيا ذاته .
والله من صفاته العدل ، بعيد الانحراف دائماً إلى الجادة . وكثيراً ما وعظ الناس بأنفسهم ،
فدمرتهم أعمالهم وغدر بهم من غدروا لهم .

٣- ذلك أن ما هباً للوالى التركى أنه انتصار على العرب بشرزم أرثوطية وانكشارية ومرتزقة
أقنعه فى الغداة بأن يؤلف جيوشا مصرية يقودها إلى الشام صوب القسطنطينية ، فتهمز جيوش
السلطان فى معارك حاسمة ، فيغدر يجيوشه الإنجليز والفرنسيون والروس مخافة أن يهيب النصر للعرب
أن تقوم دولة لهم تقبض على برزخ الدردنيل فى شرق أوربة كهيئة ما قبض العرب على برزخ جبل
طارق بالأندلس فى غرب أوربة .

سيرى محمد على فرنسا وإنجلترا تدمران الأسطول المصرى فى نافرين ، وتولبان عليه أهل الشام
وتهزمانه ومعها الأتراك ، فى معاهدة تنتهى بها أعمال نصف قرن من حياته ، يسرح بعدها الجيش
المصرى الذى أنشأه ، لتحتل إنجلترا بعدها أرض مصر ذاتها وتسترجع شعوب أوربة من تركيا
أراضيها فى البوسنة والهرسك وبلغاريا ، فاليونان ، ويسترجع العرب منها أراضيهم فى مصر والعراق
وسورية وغيرها من البلدان العربية ، ثم تولى تركيا وجهها شطر أوربة فتزداد عجزاً كمجتمع
ودولة .

وفى القرن التالى أزال خلافة بنى عثمان ودولتهم بتمامها قائد تركى رفع من دستور تركيا أن دينها
الإسلام !

* * *

قال بعض إن منع الحجيج كان سبب الحرب ؛ وقال الآخرون : إن أشراف مكة منعوا

= مصر ، فتمكن محمد على من أن يتخبط من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جندياً من المشاة و ١٧٠٧ من الطوبجية
للقلاع والحصون ، وجعل منه أيضاً قوة متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلاً انتخب منها ٦٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الطوبجية
ومثلهم من السوارى للحملة الحجازية المذكورة) .

ويقول سرهنك (لما جهز محمد على جيشاً لفتح السودان بعد حرب الوهايين كان جيشه من الأرثوط . كذلك لم يدخل
المصريين فى الجيش إلا فى الحروب اللاحقة) .

والحروب اللاحقة هى التى دمرت فيها الجيوش المصرية جيوش الترك فى الشام وآسيا الصغرى ، وانفتحت أمامها الأبواب إلى
القسطنطينية عاصمة تركيا ، وهى هى الجيوش التى حاربت ضد اليونان لحساب تركيا كما تجعل الحكم وراثياً فى أبناء محمد على .
ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر محمد على « وكان لمحمد على أغراض أخرى عملية أدركها من الحملة الوهاية
أهمها التخلص من طوائف الجنود الأرتاءوط الذين ألفوا الترد والشغب . فقد رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صار خطراً
على الأمن وعقبة دون إستقرار مملكة الحكومة . فكانت الحملة الوهاية فرصة أنتهزها ليقذف بتلك الطوائف المتمردة إلى الأصقاع
النائية من جزيرة العرب لعله يستطيع فى غيبتهم أن يدخل النظام الجديد فى الجيش المصرى وقد سعى إلى ذلك فعلاً خلال الحملة
الوهاية وإن كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فأرجاه إلى سنة ١٨٢٠ »
والحرب الوهاية انتهت سنة ١٨١٩ .

حجيج نجد من قبل ، فهذا منع بمنع ، لكن الأسباب أبعد . وهى عند الفريقين أسباب من أنفسهم وأسباب من موقعهم .

أما الذى من أنفس الأتراك فردّه إلى فساد عاشت فيه الجماعة التركية أيام إدبار ، من بعد عن الإسلام إلى ظلم الحكام إلى سيطرة الحريم فى قصر الخليفة إلى الوزراء المرتشين فى الحكومة إلى نفوذ التجار الأرمن ، إلى تسلط السفراء الأجانب ، إلى الغرور السلطاني والصلف التركى ، إلى مجتمع لا يفقه ولا ينقه فى العلم الدينى أو الدنيوى . وكانت تركيا فى أعين أوربة : « الرجل المريض » لم تدخل جيوشه حرباً إلا انهزمت فى حين كان السعوديون يتصرفون .

وأما الذى من موقعهم . فكونهم « خلفاء المسلمين » تفترض طاعة الشعوب لهم وثقة المسلمين فيهم فلا يسكتون عن شعب كفر أعمالهم وأذلّ كبريائهم .

وأما الذى من أنفس العرب فهو الشموخ العربى الذى حقق الانتصار تلو الانتصار على مدى نصف قرن كامل .

وأما الذى من موقعهم فإنهم فى مركز النواة للإسلام ، تولى شطره وجوه المسلمين على مدار الليل والنهار . وأن الجيوش السعودية وحدت العرب فى الجزيرة العربية ، وانتقلت بأسلحتها إلى العراق والشام .

والوحدة العربية تثير مشكلة أكبر للأتراك ، لأنها بشرى الفجر الجديد ، فالتاريخ عندئذ يعيد نفسه ضد الأتراك ، بعد إذا أُملى للسلاف منهم ، بويهين وسامانيين وسلجوقيين وخوارزميين وتتار .

والوحدة قانون الإسلام كله . وهى فرع التوحيد الذى جاء به الدين ، وشرط للنصر الذى وعد الله به المسلمين كلما اتحدوا . يقول جل ثناؤه (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . آل عمران / ١٠٣ :

ولا جرم إن أول أثر للحرب العثمانية على يد الوالى التركى كان تأخير قيام الوحدة للأمة العربية بعمله وعمل أبنائه بعده واستعدادهم أهل أوربة على المصريين .

وآية ذلك أن المصريين غداة خلع فاروق سنة ١٩٥٢ = ١٣٧٢ - آخر الملوك من أسرة محمد على - نصوا فى دستورهم أن مصر جزء من الأمة العربية ، ثم نصوا أن الشريعة الإسلامية مصدر التشريع .

وتاريخ هذه الملحمة من البطولات يضع بين يدي القارئ مجموعة من المبادئ .
أولها : أن العقيدة الإسلامية هي الطريق القاصدة للنهوض بالأمة إذا عملت بها عقول
مخلصة وسواعد صادقة وجماعة متضافرة .

وثانيها : أن الوحدة هي النتيجة اللازمة لكل جهد تتأخى به الأمة إثبات ذاتها أو الذود عن
كيانها .

وثالثها : الاعتماد على الذات ، فالشجاعة تنبع من النفس ، ولا تستورد من خارجها أو من
خارج الجماعة ومبادئها .

ورابعها : اقتدار المنهج السلفي ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على أن يحجي الجماعة
الإسلامية حياة جديدة . وأخرى بالقرن التالي أن يشهد اقتداره على أن يوطئ الطريق الفسيح
للتكنولوجيا في العالم المعاصر .

* * *

والتاريخ لا يقف عند يوم الدرعية ؛ بل كان يوم الدرعية موقعةً في سنة ١٢٣٣ = سنة
١٨١٨ . وكان له يوم بعده هو العاشر من رمضان في سنة ١٣٩٣ = السادس من أكتوبر سنة
١٩٧٣ . وقعت فيه الحرب بين العرب وبين اليهود ، ومن كان وراءهم من دول الغرب ، وارتفع
فيه صوت حفيد لمحمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب معاً هو الملك فيصل بن عبد العزيز .
وحنّى العالم ، كله ، هاماته له . وطار رئيس جمهورية الولايات المتحدة إليه . وفيما بين اليومين
مائة وسبعون عاماً من السياسة والحرب يمكن الحديث عنها بكلمات .

* * *

حمل الجيش الغازي الأحياء من آل سعود وأبناء الشيخ وأبنائهم إلى مصر بحريمهم وذرائعهم
سنة ١٢٣٤ ، ولم يبق منهم بالجزيرة العربية إلا من اختفى أو هرب ليعيدوا الدولة من جديد بعد
خمس سنين سنة ١٢٣٩ على يد الأمير «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» (١) .
فحارب الأمير تركي أهل الرياض في سنة ١٢٤٠ ، واستقر له الأمر في نجد .
وفي سنة ١٢٤٣ قدم ابنه فيصل من مصر هارباً من الروم المسيطرين في مصر . وفي سنة
١٢٤٩ قتل تركي بمؤامرة فثار له ابنه فيصل وتولى الإمارة . فأرسل إليه محمد علي قائده خورشيد
باشا فحاصره حتى قبض عليه وأرسله إلى مصر فبقى زمناً ثم هرب من القلعة ، فبلغ نجداً ، واستقر
في عنيزة . وانطلق يغزو البلدان حتى احتل الرياض سنة ١٢٦٣ وفي سنة ١٢٦٤ غزا عُمان

(١) عبد الله بن محمد بن سعود أخو عبد العزيز بن محمد بن سعود وعبد الله رأس الفرع الثاني من حفدة محمد بن سعود .

والقصيم . ثم خلفه ابنه عبد الله وقد عقدت بريطانيا معه معاهدة سنة ١٨٦٦ على ألا يتعرض لها في مشيخات الخليج بعد إذ خيب الله سعيها وأملها وشماتها في العرب .

جاء في تقرير المستر فرانس واردن الذي قدمه لحكومة الهند عقب معركة الدرعية : (هكذا قامت وسقطت ، ويؤمل ألا تقوم مرة ثانية ، تلك الجماعة الشاذة التي شجعت الغارات البحرية في الخليج وبحار الهند بدرجة من النجاح وجرأة وحشية لا تفوقها غير بشاعة الجزائريين في أوربة) . وأعلن القنصل البريطاني في مصر شماته قومه يقوله : (عصابة من اللصوص ثبت أنها أكثر تعصباً وأشد عداوة من أعداء الدين الذين حاولت العصابة أن تحل محلها) (١) .

وفي سنة ١٨٩١ انتفض على السعوديين واليهيم على حائل - عبد العزيز بن الرشيد وكان عثمانى الولاء ، فغادر السعوديون نجد وأميرهم عبد الرحمن بن فيصل ومعه أبناؤه التسعة إلى الأحساء ثم إلى الكويت .

وكان ابنه عبد العزيز في العاشرة فلما ناهز العشرين قاد فيلقاً من ستين رجلاً من الإخوان ، واحتل به الرياض سنة ١٩٠١ م = سنة ١٣٥٩ هـ وأقام الدولة وباع عبد الرحمن لابنه المنتصر . واقتصر على تسديد خطاه ونصحه ، فسارت فيالقه من نصر إلى نصر .

وبدأ بعد العزيز التاريخ العالمي للدولة الجديدة وللدعوة في القرن الرابع عشر للهجرة والعشرين للميلاد (٢) .

(١) انتهت الحروب الصليبية في الشرق وطرده الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١ ميلادية فالتجّهوا إلى الغرب في الأندلس ليجلّوا عنها المسلمين فتم لهم ما أرادوا ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ ميلادية وابتدأ قرن الكشوف الجغرافية ، واتجهت أوربة صوب الهند عن طريق الغرب تفادياً لبلاد المسلمين في شرق البحر الأبيض فاكشفوا أمريكا بالصدفة ، وداروا حول أفريقيا لتصل البرتغال إلى الهند ، وفي سنة ١٥١١ خطب (البوكرك) فأعلن وجوب اقتلاع الإسلام من جذوره في مكة والقاهرة ، وظهر الأسطول البرتغالي في ينبع نجر المدينة المنورة فأغرقه أسطول مصري .

وفي سنة ١٦١٠ تابعت إنجلترا مغامراتها الاستعمارية في المحيط الهندي لتقضى على دولة الإسلام القديمة في الهند ثم أسست لها شركة الهند الشرقية واستعمرتها وأنشأت مركزاً تجارياً في البصرة بالعراق سنة ١٦٤٣ . وفي سنة ١٧٥٠ أنشأت وكالة لها في بغداد . وفي سنة ١٧٩٩ احتلت جزيرة بريم عند مدخل بوغاز باب المندب .

وفي سنة ١٨٠٠ بدأت تدخل الخليج العربي ، فعقدت معاهدة مع سلطان مسقط وكثر نشاط إنجلترا في الخليج في عهد ولاية محمد علي على مصر وسيطرته على البحر الأحمر .

وفي سنة ١٨٣٩ استولت على (عدن) في مدخل البحر الأحمر وفي سنة ١٨٨٢ احتلت مصر ، وفي سنة ١٨٩٩ عقدت معاهدة مع آل الصباح في الكويت .

وكانت دائماً ترقب في حذر نجاح آل سعود .

(٢) أمراء الدرعية الذين ولوا الإمارة قبل محمد بن سعود :

١ - مانع ٢ - ربيعة ٣ - موسى ٤ - إبراهيم ٥ - فرحان ٦ - ربيعة ٧ - فرحان ٨ - رطبان ٩ - ناصر ١٠ - محمد ١١ - إبراهيم ١٢ - إدريس ١٦٩٥ - ١٦٩٦ وكل هؤلاء سعوديون ، ١٣ - سلطان بن حمد القيسي (غير سعودى)

-
-
- ١٤- عبد الله بن حمد القيسى (غير سعودي قتل سنة ١٧٠٨) . ١٥- موسى ١٧٢٠ -١٦- سعود ١٧٢٤ -١٧- زيد ١٧٢٦
- ١٨- مقرن ١٧٢٦ -١٩- زيد ١٧٢٦ -٢٠- محمد بن سعود آخر شيخ وأول أمير .
- أمراء الدولة وملوكها في مراحلها المختلفة ومدة حكم كل منهم .
- ١- محمد بن سعود (١١٥٨ - ١٢٠٨ = ١٧٢٥ - ١٧٦٥) .
- ٢- عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٢٠٨ - ١٢١٨) = (١٧٦٥ - ١٨٠٣) .
- ٣- سعود بن عبد العزيز- مشارى- خالد (١٢١٨ - ١٢٢٩) = (١٨٠٣ - ١٨١٤) .
- ٤- عبد الله بن سعود (١٢٢٩ - ١٢٣٤) = ١٨١٦ - ١٨٢٠ .
- ٥- تركى بن عبد الله ١٢٤٠ - ١٢٤٩ = (١٨٢٠ - ١٨٣٩) .
- ٦- فيصل بن عبد الله (١٢٤٩ - ١٢٥٤) .
- ٧- مشارى بن سعود (١٢٣٣ - ١٢٤١) .
- ٨- خالد بن سعود (١٢٥٤ - ١٢٥٧) = (١٨٣٧ - ١٨٤١) .
- ٩- فيصل بن عبد الله (١٢٤٩ - ١٢٨٢) = ١٨٩٥ .
- ١٠- عبد الله بن ثنيان (١٢٥٧ - ١٢٥٩) .
- ١١- عبد الله بن فيصل (١٢٨٢ - ١٢٩١) .
- ١٢- عبد الرحمن بن فيصل (١٢٩١ - ١٣٠٩) .
- ١٣- الملك عبد العزيز عبد الرحمن (١٣١٩ - ١٣٧٣) (١٩٠١ - ١٩٥٤) .
- ١٤- الملك سعود بن عبد العزيز (١٣٧٣ - ١٣٨٣) (١٩٥٤ - ١٩٦٤) .
- ١٥- الملك فيصل بن عبد العزيز (١٣٨١ - ١٣٩٥) (١٩٦٤ - ١٩٧٥) .
- ١٦- الملك خالد بن عبد العزيز (١٣٩٥ = ١٩٧٥) .

الفصل الثالث

المنهج السلفي يقيم الدولة العصرية

(إننا لا نبغى التجديد الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا .
ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداث التلغراف) .
الملك عبد العزيز

فرضت جيوش عبد العزيز سيطرتها على أقطار الجزيرة العربية فى حزم من لا يريد سفك الدم إلا بقدر، وفى حذر. كان فى مطالع الشباب والنصر فى ركابه ، وفى فترة سبقت الحرب العالمية الأولى ، والإمبراطورية التركية تريد أن تنقض ، وألمانيا تراحم الدول العظمى بمنكب عظيم . فلما دارت رحى الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) - فرض عبد العزيز حياده على عالم لم يألف ذلك من العرب . ولما وضعت الحرب أوزارها حل يوم الحساب لشريف مكة ، وكان إنجليزى الولاء . فسارت إليه جيوش عبد العزيز ، وخلع أهل مكة الشريف (حسين) ، وحملت سفائن إنجلترا ابنه الملك عليا ، فدخل عبد العزيز سنة ١٣٤٣ = ١٩٢٤ مكة المكرمة .

واجتمع العلماء والأعيان فأعلن فيهم جملة الخلاف الذى يحمل السلاح من جرائه :
قال فيما قال : (يقولون إننا ننكر شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة ! معاذ الله أن نقول هذا . وإنما نطلب من الله أن يشفع فينا نبينا : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) البقرة/٢٥٥ ، بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ونقول : (اللهم اجعله فرطاً لأبويه) ولا نطلب شفاعة الطفل . وأما محبة الأولياء والصالحين فنن ذا الذى يبغضهم منا ؟ فإن كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده) .

قالوا : كلنا نبايع :

قال : (أعيذكُم بالله من التقية . لا تكتُموا شيئاً) .

وفاقه علماء مكة علماء نجد ، فاتفقوا على (أن من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعُوهم ويرجوهم فى جلب نفع أو دفع ضرر فهو كافر حلال الدم والمال . وأن البناء على القبور واتخاذ السرج عليها وإقامة الصلاة فيها بدعة محرمة فى الشريعة ، وأن من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً) .

وتكلم عن التجديد فقال : (إن التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا «مرحباً به وأهلاً» وأما التمدن الذي يؤذينا في أدياننا وأعراضنا وشرفنا فوالله لن ندعن له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب) .

وفي غرة ذي الحجة ١٣٤٧ (١٩٢٩/٥/١١) خطب الحجيح بمكة ليعلن التزامه بالمنهج السلفي ويحدد أبعاده فقال : (يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار أنه مذهب خاص . . . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد . فعقيدتنا هي «عقيدة السلف الصالح» التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله . ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، كلهم محترمون في نظرنا ، إننا لا نبغى التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا) .

وفي ٢٠ من جمادى سنة ١٣٥١ = ١٨ من سبتمبر ١٩٣٣ أعلن قيام المملكة العربية السعودية في جزيرة العرب .

وفي حجيح سنة ١٣٥٢ (١٩٣٤) زاد تحديداً فقال : (وقد جعلنا الله مبشرين بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، لا نتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوي في أى مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه وتمسكنا به ، أما إذا لم نجد دليلاً قوياً فنأخذ بقول الإمام أحمد) .

* * *

وكما صنع هذا المسلم العظيم ملكه بالعلم السلفي - صنعه بالمسلك السلفي الذي يهب للمسلم كل القوة ، إذ يدرك من معنى الشهادة ومنطق العبادة : أن الله أكبر . وأن من كان الله معه فهو منصور .

وبالتوحيد الخالص صار بين المسلمين في عصره «المسلم الأول» . وهذا درس في العظمة خليف بكل مسلم أن يتعلمه .

يقول روزفلت - أول وآخر أمريكي رأس أمريكا مدداً أربعاً - لصديقه «برنارد باروخ» أول رئيس للجنة الطاقة الذرية وأمريكا في أوج انتصارها العالمي : (إن هذا الملك العربي ذا الإرادة الحديدية هو الوحيد من بين جميع من عاملتهم طول حياتي الذي لم آخذ منه إلا أقل شيء لبلادي»^(١) .

(١) ورد النص بالفرنسية في كتاب فيصل ملك العربية

Faycal. Roi d'Arable.
Benoist M chin.

مؤلفه بنواميشان
والنص الفرنسي :

Parmi tous les hommes auxquels j'ai eu affaire au cours de ma vie. je n'ai pas rencontré un seul. dont l'ai pu moins tiré que ce cemonarque à la volonté de fer,

فلقد التقى الرجلان على ظهر البارجة كوينسى فى البحيرات المرة (فى أرض مصر) والحرب العالمية الثانية فى عنفوانها . قال روزفلت :

أنا سعيد بلقائك . ماذا أستطيع أن أصنع لك ؟

قال ملك العرب : إنك دعوتنى للقائك فأنا أتوقع أنك تطلب منى شيئاً .

واستطردا إلى السياسة ، فأعلن الملك وجوب جلاء الإنجليز والفرنسيين ، المنتصرين فى الحرب والمتحالفين مع روزفلت ، عن كل بلاد العرب التى يحتلونها فى آسيا وأفريقية .

وهذا الذى أعلنه لرئيس أمريكا سنة ١٩٤٥ فى الحرب العالمية الثانية عالن به القائد التركى (أنورباشا) قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) ليجلو الأتراك عن أرض العرب .

وفى اللقاء ذاته طلب إليه رئيس أمريكا أن يوافق على زيادة هجرة اليهود إلى فلسطين فأجاب : (إننى - على النقيض من ذلك - أطلب أن يقل عدد الموجودين منهم فيها) .

وفى ١٥ نوفمبر من العام ذاته خطب الحبيب فيما صار قضية الإسلام كله . فقال لممثليهم المجتمعين بمكة .

(إن مسألة فلسطين أهم ما يشغل أفكار المسلمين هذه الأيام ، وقد سبق أن تكلمت مع أركان الحكومة البريطانية ، كما تحدثت مطولاً مع الرئيس روزفلت) .

ومن أجل فلسطين حاربت الأمة العربية حروب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ وستحارب .

ولما نشرت الوثائق السياسية فيما بعدُ ظهر أنه كتب إلى روزفلت فى ٧ شوال سنة ١٣٥٧ = ١٩٣٨/١١/٢٩ : (لقد ظهر من البيان الذى نشر عن موقف أمريكا من قضية فلسطين أنه قد نظر إليها من وجهة نظر واحدة هى وجهة نظر اليهود والصهيونية وأهملت وجهات نظر العرب ، وقد رأينا من آثار الدعاية اليهودية الواسعة النطاق أن الشعب الأمريكى الديمقراطى قد ضلل تضليلاً عظيماً أدى إلى اعتبار مناصرة اليهود على سحق العرب فى فلسطين عملاً إنسانياً . . . وأنا على ثقة بأنه إذا اتضح لفخامتكم وللشعب الأمريكى حق العرب فى فلسطين فإنكم ستقومون بنصرته حق القيام) .

وأتبع هذا الاحتجاج بالتحذير الذى أثبت الأيام صدق بصير صاحبه بالأمر ، فى رسالة مؤرخة فى ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٢ = ١٩٤٣/٤/٣٠ يقول فيها : (. . . لقد سبق أن كتبت لفخامتكم . . . كتاباً أوضح فيه حقيقة الأمرين العرب واليهود فى فلسطين ، وكنت بعد كتابى المشار إليه لفخامتكم أعتقد أن حق العرب فى فلسطين أصبح واضحاً لفخامتكم . إننا لا نريد محو اليهود ولا نطالب بذلك ، ولكننا نطالب ألا يحى العرب من أرض فلسطين من أجل إسكان اليهود فيها !

إنه - لا سمح الله - لو أعطى اليهود بغيتهم في فلسطين لظلت فلسطين مقر الفتن دائماً ، كم حصل في الماضي ، تسبب المتاعب للحلفاء عامة ولحكومة بريطانيا خاصة ، واليهود بما أوتوا من قوة في المال والعلم قادرون على إيقاع الشقاق بين العرب والحلفاء في كل وقت - حرر في مخيمنا بروضة خريم في اليوم) .

وبعث إليه روزفلت مبعوثاً شخصياً (الكولونيل هارى هوسكتر) يستطلع : ما إذا كان الملك يقابل (حاييم وايزمان) - أحد مؤسسي إسرائيل؟ فوضح الملك الكبير الجميع مواضعهم . فكتب إلى روزفلت في رجب سنة ١٣٦٢ (يوليو ١٩٤٣) يشير إلى الخطأين السابقين ثم يقول . . . (أما الشخص الذي هو حاييم وايزمان فهذا الشخص بيني وبينه عداوة خاصة ، وذلك لما قام به نحو شخصي من جرأة مجرمة ، بتوجيهه إلى دون جميع العرب والمسلمين تكليفاً دينياً لأكون خائناً لديني وبلاد ، الأمر الذي يزيد البغض له ولمن يتسبب إليه ، وهذا التكليف قد حدث في أول سنة من الحرب إذ أرسل إلى شخصاً أورياً معروفاً يكلفني أن أترك مسألة فلسطين وتأيد صفوف العرب والمسلمين فيها ، ويسلم إلى عشرين مليون جنيه مقابل ذلك ؛ وأن يكون هذا المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه ! فهل من جرأة أودناء أكبر من هذه . . . ؟ وهل من جريمة أكبر من هذه الجريمة ؟) .

* * *

لم تكن الانتصارات في ميادين المعارك ولا إقامة الدولة بتامها إلا كهيئة الصعود إلى قمة الجبل . والاستقرار فيها أشق من الصعود إليها . وأشق منها أن يجارى الصاعد المستقر رياح التغيير وأن تصدر مبادرات التغيير عنه .

والعمل للإصلاح الداخلي كهيئة إصلاح النفس أشق من إصلاح الغير وأدق . وفي هذا الميدان الخطير كان عبد العزيز كدأبه غزاة ميادين وبناء دول ؛ فخاض معركة التجديد ببراعة وورع ، وآتاه الله الزمن فأحسن استعماله : فلقد لبث في قومه عشر سنين ينصحهم باستعمال التليفون .

وفي سنة ١٩١١ اعترض البعض لاستعمال البرق (التلغراف) فكان جوابه من صميم الأصول الفقهية التي يعلمها ابن عبد الوهاب : ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداثه : أي أنه يستعمل «أصل الإباحة» .

وكذلك كان شأن السيارات والدراجات وأمثالها من وسائل الحضارة ، فها دام لا يوجد نص يقطع بالمنع فعلياً أن نجتهد لاستخلاص حكم الشارع فيما تصلح به الدنيا كما يأذن لناها الدين . وفي سنة ١٣٤٥ = ١٩٢٧ اجتمع رؤساء الإخوان في الأرطاوية وأنكروا عليه أموراً .

- ١ - إرساله ولده سعوداً إلى مصر .
- ٢ - إرساله ولده فيصلًا إلى لندن .
- ٣ - استخدام السيارات والتلغرافات والتليفون .
- ٤ - فرض الضرائب في الحجاز ونجد .
- ٥ - منعه المتاجرة مع الكويت .
- ٦ - إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعى في بلادهم .

وعجل بجمعهم للمشورة ، فاجتمعوا في الرياض وأصدروا فتواهم المشهورة (١) .
وفي العام التالي جمعهم في بريدة ١٣٤٧ = ١٩٢٨ وجمعهم مرة ثالثة لمناقشتهم في تعلم الرسم

(١) (من محمد بن عبد اللطيف و إلى من يراه من إخواننا المسلمين سلك الله بنا وبينهم الطريق المستقيم وجنبنا وإياهم طريق الجحيم آمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد ورد علينا من الإمام سلمه الله تعالى سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب فأجبناه بما نصه :
أما مسألة البرق - التلغراف غير السلكى - فهو أمر حادث في آخر الزمان ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأهل العلم ، نتوقف في مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم .

وأما مسجد حمزة وأبى رشيد فأفتينا الإمام - وفقه الله - بهدمها على الفور .
وأما القوانين فإذا كان منها شيء بالحجاز فيزال فوراً ولا يحكم إلا بالشرع المظهر .
وأما دخول الحاج المصرى بالسلاح والقوة في بلد الله الحرام فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة من إظهارهم الشرك وجميع المنكرات .

وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ومن تمكن أحد أن يتمسح به ويقبله . وما يفعله أهله من الملاحى والمنكرات يمنعون منها وإنما منعه من مكة بالكلية فإن أمكن بلامفسدة تعيين وإلا فاحتمال أحد المفسدين • لدفع أعلاهما سائغ شرعا .
وأما الرافضة فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ومنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل . وعلى الإمام أيضا أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر . ويبايعون على دين الله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم . وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على ماتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ومنعون من زيارة المشاهد . ولذلك يلزمون الاجتماع للصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد . ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة ويلزمون تعلم ثلاثة الأصول وكذلك فإن كانت لهم محال معينة لإقامة البدع تهدم ، ومنعون إقامة البدع في المساجد وغيرها من أى قبول مذكر ينشئ من بلاد المسلمين .
وأما الرافضة من أهل القطيف فيلزم الإمام أيده الله - الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم ما ذكرنا .
فأما البوادي التى دخلت في ولاية المسلمين فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين ويلزم نوابه من الأمراء في كل ناحية مساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام ومنعهم من المحرمات

وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مواقع المسلمين وأرضهم .
وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فإن تركها فهو الواجب عليه ، وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته لأجلها .

وأما الجهاد فهو محمول إلى نظر الإمام وعليه أن يراعى ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء .
ونسأل الله لنا ولكم ولجميع المسلمين التوفيق والهداية

ونفذ الإمام فلم يقبل المحمل . وهدم مسجد حمزة . وعطل التلغراف . ثم فرضه الزمان على الجميع في حياة عبد العزيز .

واللغة الأجنبية والجغرافيا . فلقد كانوا ينكرون كروية الأرض مع أن هذا كشف عرى قديم . فلم يجيئوا بدليل ضدها ، بل أجابوا بما يمكن إجماله في العبارة التالية : (لقد أدلينا برأينا فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله ، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها) .

وهكذا عمل العلماء بأصل طاعة الإمام إذا لم يأمر بمعصية ، وساروا وراءه في أصل الإباحة . وهم العليمون باقتداره في اجتهاده وإخلاصه لله وورعه . وهم سلفيون يحفظون حديث عبادة بن الصامت - وكان أحد النقباء : (بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا . وعلى ألا ننازع الأمر أهله . قال إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) .

وبارك الله في الأرض التي يُعبد فيها الله وحده . فتفجرت فيها ينابيع البترول في حياة عبد العزيز . فضلاً من الله ونعمة ، وإيذاناً بعصر جديد تعلو فيه كلمة المملكة السعودية ، ومعها كلمة الأمة العربية ، أي كلمة الإسلام .

وفي سنة ١٩٥٣ صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى فتتابع على الملك أبناؤه سعود ففصل فخالد .

الملك فيصل بن عبد العزيز :

لن مثل عبد العزيز وابنه فيصل روح الدعوة الوهابية وهو إحياء العقيدة الصحيحة وإيقاظ المسلمين - إن لفصيل شأناً خصته به السماء هو أن يثبت حضور ابن عبد الوهاب في عصرنا الحاضر ، في فترة حاسمة كل الحسم في تاريخ المسلمين : ففي فيصل تجتمع دماء (محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود) فأمه بنت عبد الله بن حسن قاضي قضاة نجد وحفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

قرأ القرآن على جده . وسقى الورع منذ الحداثة . وقاد جيوش أبيه وهو في مطلع شبابه ، ففتح عسير سنة ١٣٤٠ . واختص بتمثيل أبيه في محافل السياسة . فلما جاء إليه الملك جاءه في ميادين السياسة والشجاعة والورع والزهد وعلوم السلف .

وكان ابن عبد العزيز حقاً ، وحفيد محمد بن عبد الوهاب صدقاً . حي حياة زاهدة لا طاقة بها للملوك ، ولعت في أفعاله ومضات فكر أخلص صاحبه لله وللناس ، فسار سيرة السلف الصالح ، فكان كما عبر عنه بعض الفرنجة رجل عالين : الدنيا والآخرة !

تخضل عينه بالدمع أو ينهل من مأقيه القطر إذ يستمع إلى خطبة الجمعة ، - في حين يدفع بساعدين قوين جزيرة العرب في ميادين الحضارة العصرية التي يأذن بها الإسلام . ويشيد

الجامعات الدينية والعلمية والصناعات الحديثة والزراعات المختلفة ، ويعلم المرأة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويفتح الميادين لشعبه ، ويمد يد المساعدة لأهل الإسلام في أكثر من مكان . ولما دنت ساعة العسرة حمل مسئولية الإسلام كله على عاتقه . فجالد الدول العظمى جلاد رجل عرك السياسة العالمية ، فجعلها أسمع للحق وأنطق بالصدق ، وأبصر بحقوق العرب . يومئذ دخل فيصل التاريخ مدخل صدق : إنه الرجل الذي صير البترول - عصب الحرب والسلام - مصدر قوة للعرب بعد إذ كان منشأ خوف لهم

والله الذي يرسل السحاب والغيث حيث يشاء ، ويخرج الخير من الأرض حيث يشاء - ينصر بالقيم الدينية التي تقيم الأمم ، وبالقوة المادية التي تلزم للانتصار .

فلم يك صدفة ، وإنما كان حساباً من حسابات السماء - أن تفتح بركاتها في حياة الملك الصالح فيصل بن عبد العزيز ، فتدر آبار البترول من باطن الأرض على جزيرة العرب لتبقى على مكانة الإسلام .

وصدق فيصل عهده لله وللمسلمين يوم أعلن (إن كبرى أمانى أن أصلى في بيت المقدس قبل أن أموت) ليبقى استرداد أولى القبلتين صيحة للحرب ، وغرضاً للسلام ووصية لأهل الإسلام ، من ابن محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب .

ولئن كانت إشارة عبد العزيز إلى «مخيمنا بروضة خريم إذ يكتب إلى «روزفلت» تمسكاً بالعروبة وفحولة بساطتها ، إن شجاعة فيصل وإيمانه بصنيع السماء في الانتصار العربى في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ - أعادت للمسلمين ذكريات صلاح الدين في حطين وفي بيت المقدس ، وأمكنته أن يقول لرئيس أمريكى آخر يوم طار إليه (الرئيس نيكسون) في جزيرة العرب : (لقد ولدنا وولد آباؤنا في الصحراء ونحن من أجل أمتنا على استعداد للعودة إلى الصحراء) .

وفسر بعض ذلك المقال بأنه التهديد ، وفسره بعض بأنه إعلان بالاستعداد أو الجهاد . وصدق رسول الله ﷺ : (مثل أمتى كالمنطق لا يدرى أوله خير أم آخره) .

ولقد شاءت السماء لفيصل أن يموت ميتة الشهداء ، برصاصة مجنون سنة ١٣٩٥ = سنة ١٩٧٥ . فلما صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ترك المملكة العربية السعودية عاشر دولة في العالم من حيث المساحة - تزيد مساحتها مرة ونصف المرة على مساحة دول السوق الأوربية المشتركة التسع ، جماع سياستها في الداخل : تطبيق الشريعة بالفعل أما سياستها الخارجية فالدعوة للإسلام ، والدفاع عن مبادئه في كل مكان .

وأورث فيصل المسلمين جميعاً قوة البترول بعد أن كان إحدى تبعاتهم ! فما أعظم ما قدم للمسلمين حفيد ابن سعود وابن عبد الوهاب .

الفصل الرابع

صعود الشمس في السماء

(ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حل ولا حرم
إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخير من الكتاب أو السنة
أو الإجماع أو القياس) .

(والاجتهاد القياس) الشافعي

كانت حروب الجزيرة العربية صدى الصوت المهيّب الذي أيقظ المسلمين ووجد جزيرة العرب . وكانت بطولات الدرعية بُشريات بانتشار ضوء النهار ، ولما لم يُلقِ العرب السلاح كان انتصار دعوتهم مسألة زمن . وطريق التاريخ طويلة ليست الأحداث أو الأشخاص فيها إلا علامات طريق .:

لقد انتصر الأتراك مراراً على المسلمين ، لكنهم كانوا يهزمون أمام الإسلام فيسلمون . وعندما ينتصر الإسلام ينتصر العرب كمثل ما ينتصر العرب كلما انتصر الإسلام .
والإسلام يخدمه أهله إذا عملوا به ، وكثيراً ما يخدمه أعداؤه إذا فهموا مبادئه .
لقد انسحب « نابليون » من مصر وخلف على جيشه « كليبر » . فلما قتل « كليبر » تولى قيادة الجيش الفرنسي بعده (مينو) . وهدى الله (مينو) للإسلام فأسلم .

وانهزم نابليون عن مصر ، فراح يطير في آفاق أوربة من نصر إلى نصر ، ويهز عروشها وهي متفرقة ، حتى إذا قهرته وهي مجتمعة - بدأت مبادئ الثورة الفرنسية في الانتشار بعد إذ انهزمت جيوشها . أن كانت تحمل مع عتادها الحربي مبادئ ينادي بها الإسلام هي الحرية والإخاء والمساواة وحق تقرير المصير . ثم تتابع ثورات التحرير في أوربة . وكانت تركيا أول الخاسرين ، فاستقلت اليونان عنها ، وتتابع انفصال الدول منها مملكة مملكة في أوربة .

وكان شروق الدعوة الوهابية من جزيرة العرب خسراناً مبيناً للأتراك قبل قيام الثورة الفرنسية ، وفيما بعدها ؛ فهي قد شرقت وغربت كهيئة انتشار الإسلام من جزيرة العرب ، وكانت شرارتها تشعل الضوء والدفء ، وتحدث القوة المحركة في بلدان تدين بالولاء لتركيا فأنتهى أمرها بالاستقلال عنها . وصاحب انتشار الدعوة ظهور أثر المطبعة وتعليم الناس ، فتتابع على مبادئ الدعوة رجال لا يكتفون بمجالس العلم ، بل يعملون ، ويجاهدون في شتى الميادين ، فكرية ، أو سياسية ، أو

عسكرية . وتعمل الانتصارات والهزائم في خدمتهم ، لنشر المبادئ التي نادى بها محمد ابن عبد الوهاب .

والذين يعلمون ولا يعملون يخعون أنفسهم (١) .

* * *

١ - لقد علمت تجارب الدعوة المسلمين على مدار قرون ثلاثة أن الوسيلة القاصدة للإصلاح هي البدء بتطبيق الشريعة وتنقية عقائد المنحرفين ، لإقامة الجماعة الصالحة التي تنبت الرجال الصالحاء ، وإن احتاجت إلى سنوات . وما السنوات في عمر الإسلام إلا سويغات . ودرس الدعوة قائم كذلك للعالم . فالشرق والغرب الآن يرجعان البصر بمنة وبسرة يبحثان عن مخرج من شرالك أوقعتهما فيها عبادة المادة والإحساس الذي يستبد بضماير الناس كلما حققوا نصراً علمياً أو اقتصادياً ، لا يقابله نصر على أنفسهم ، إذ يتجلى لهم أنهم يظفرون بفراغ لا يملؤه إلا القيم الدينية التي تهب معنى للحياة . فالطريق مفتوحة أمام رجال الدعوة الإسلامية إلى القلوب في الشرق والغرب . يقول جورج سارطون ما يردده الآن كثيرون :

(لقد سبق للعرب أن قعدوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفي سنة قبل أيام اليونان ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم في المستقبل القريب أو البعيد) .

٢ - أما المذبح السياسي المحض للإصلاح فقد سار عليه الأتراك في القرن التاسع عشر ، وانتهى بهم في القرن العشرين إلى دولة علمانية حرص دستورهما على رفع الدين من نصوصه ، فلم اطرح مجلة الأحكام العدلية المستقاة من الفقه الحنفى واستوردت قوانينها من تشريعات سويسرية فصنعت في نفسها ما حاول أن يصنعه نابليون ، إذ كان بمصر ، فعرض في أول جلسة للديوان استبعاد الشريعة لاستيراد قوانين فرنسية فيما بعد فرفض علماء الأزهر . وكهينة نابليون اختط محمد على للإصلاح خطة استيراد « عقلية أوربية » وانتهت خطته بحفدته إلى استيراد التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة ! .

فلما احتلت الجيوش البريطانية مصر في سنة ١٨٨٢ كان من انتصارات البريطانيين على المصريين

(١) عاصروى الله الدهلوى في الهند (١١١٤ - ١١٧٦) محمد بن عبد الوهاب من مطلع حياته وكان علماً يشار إليه بالبنان في مذهب أبى حنيفة ، يستنكر الكثير من الانحرافات التي تحاربها الدعوة ومع ذلك لم يتأثر به المجتمع الإسلامى إلا كهينة تأثير الفقهاء في الدارسين عليهم ، لأنه اكتفى بالعلم دون العمل ولم يجاهد في سبيل فكره في حين أحدث السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) - إصلاحاً كبيراً في الهند يجهاده ، ولم يكن حظه من العلم حظ الدهلوى .

خاصة والمسلمين عامة - أن قرر مجلس وزراء الاحتلال العدول عن قرار مجلس الوزراء في سنة ١٨٨١ بتقنين الشريعة الإسلامية ، وأقر الإنجليز استيراد قوانين أوربية لتطبيقها على المصريين فلم تقدر القوانين على أن تجعل المصريين أوريين ، ولم يقدر المصريون مع وجود هذا القانون أن يطبقوا الشريعة إلا فيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية .

٣ - وأما المنهج التعليمي فنهج تجريبي يستعمل الزمن إذ لا تسعفه القدرة ، ويفت في عضده خذلان السلطة له ، مع تعويله عليها . وقد سلكه كثيرون في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلاد - أظهروهم عالمان مصريان من أشهر علماء الأزهر أولها رفاعة الطهطاوى (١٧٩١ - ١٨٧٢) وقد أبعده السلطان إلى السودان ، فلما رجع انكب على التأليف والترجمة والتعليم وسار محمد عبده أشواطاً بعيدة على المنهج ذاته . وقد نفته من الوطن محكمة عسكرية ، فلما عاد سار على دربه وأيده الشعب فيه .

والمنهج أكثر اقتراناً بمحمد عبده لأنه «جاهد» الإنجليز والأتراك والخطبيين والعلماء المعممين ، وتوجه طول حياته وجهة إصلاح الأزهر ، وفي الإصلاح الديني إصلاح الجماعة . فالمنهج التعليمي يمشى بساقيين هما القيم الدينية وتأييد السياسيين أصحاب السلطة . ومن ثمة عثرات أصحابه كلما أصاب الوهن ساق السياسة .

* * *

من أجل ذلك كثرت خلاف دعاة الإصلاح مع الساسة ، واختلط كل من تلاميذ محمد بن عبد الوهاب للإصلاح خطة تنجحه : فكان المهدي في السودان أقدر على الإصلاح ؛ لأنه «حارب» وانتصر وقاد المجتمع . وعاش السنوسي بدعوته بعيداً عن مجال السلطة في زوايا أقاليمها بالجبل أو في الصحراء التي تعيش فيها القبائل . واقتصر الشوكاني وهو في سدة الحكم على القضاء والتأليف في محاربة البدع . وسار الألوسي بالعراق والكواكبي في الشام على الدرب ، أما السيد أحمد في الهند فقد استعمل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وتلمذة هؤلاء لابن عبد الوهاب لا يستبعدا عدم اللقاء أو انصرام الزمان ؛ فلقد تصارمت الأجيال بين العُمَريين . وعمر بن عبد العزيز نخبه المدرسة التي تعلقت بأسباب عمر بن الخطاب وإن لم يلقه .

الشوكاني : محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٢ هـ) أفتى في العشرين من عمره وولى القضاء بصنعاء باليمن حيث الأئمة - الحكام - شيعة . والشعب قسبان فسكان المرتفعات شيعة وسكان تهامة شافعية .

وانضافت إليه الوزارة بعد سنوات ، فتمرس بمسئولية الحكم . وخلع ربة التقليد ، فلم يحصر

نفسه في دائرة المذهب الزيدي ، بل بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق .
وقد ترجم حياة آل تيمية في خطبة كتابه (نيل الأوطار في شرح «منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار» لابن تيمية «مجد الدين» .

بهذا يلتقي هو وابن عبد الوهاب في منبعها العلمي وفي سلفية آل تيمية . ولما مات ابن عبد الوهاب رثاه الشوكاني أكثر من مرثية .

يقول في نيل الأوطار كلاماً قاله من قبل ابن تيمية «تقى الدين» وابن القيم وابن عبد الوهاب (وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفسد يبكى لها الإسلام . منها اعتقاد الجهلة كاعتقاد الكفار للأصنام ، وأعظم من ذلك ظنهم أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً يطلب لقضاء الحوائج ، وملتجئاً لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم . وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً كانت الجاهلية تفعله إلا فعلوه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حميةً للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ولا وزيراً ولا ملكاً .

وقد توارد علينا من الأخبار ما لا يشك فيه أن كثيراً من هؤلاء «القبوريين» أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعم وتلكاً وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة ! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين ، أى رزء للإسلام أشد من الكفر وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون مثل هذه المصيبة ؟ وأى كفر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المين ؟

وأكثر الشوكاني من التأليف في أسباب تأخر المسلمين ويدع الصوفية الفلاسفة . ومن تأليفه

(١) يقول في بعض مرائيه عن محمد بن عبد الوهاب :

لقد مات طود العلم قطب رحي العلا	ومركز أدوار الفحول الأفاضل
أفق يامعيب الشيخ ماذا تعيه	لقد عبت حقاً وارتملت بباطل
أفيقوا أفيقوا إنه ليس داعيا	إلى دين آباء له وقبائل
دعا لكتاب الله والسنة التي	أتانا بها طه النبي خير قائل

ويقول في آل سعود :

هم الناس أهل الفضل يعرف فضلهم	جميع بني الدنيا فما للمجادل
لقد جاهدوا في الله حق جهاده	إلى أن أقاموا بالطغي كل مائل

كتاب (قطر الولي على حديث الولي) ، وفيه ينقى معرفة أي ولي للغيب ، ويقرر مذهب ابن تيمية في أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وأن الولاية لله ومن الله ، ينالها من يعمل عملاً صالحاً في الفروض والنوافل .

وكمثله يوجب الاجتهاد ويندد بالتقليد يقول .

(والذي أدين به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائله واحداً أو جماعة الجمهور) .

وفي كتابه (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) نبه على «أن الفتنة لا تنزل بالامة ويتغلب عليها العدو إلا لما ترتكبه من المعاصي عقوبة من الله لها مثل عقوبة الخوارج ثم القرامطة والباطنية ثم الترك ، وكما يقع كثير من تسليط الفرنج وغيرهم» .

وانتشر علم الشوكاني في الهند - وباكستان الحالية - وفي سائر ديار المسلمين ومصر خاصة ومن كبار تلاميذه محمد صديق خان (١٢٤٨ - ١٣٠٧) أمير مملكة بهيال .

السيد أحمد : حج السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) من الهند في سنة ١٨٢٢ ، والسعوديون منهزمون من بضع سنين لكن أنباءهم تذيب أسباب الدعوة للمذهب ، ثم عاد إلى البنجاب ينشرها في رقعة كبيرة في شمال القارة الهندية حتى البنجاب .

وكثر أتباعه واستعملوا القوة لمقاومة البدع ، وخشيت بأسهم الحكومة الإنجليزية واعتضت طريق الإصلاح التي سلكوها .

وظهر أثر السيد أحمد بالإصلاح التعليمي والاجتماعي بين أسباب النهضة التي نهضتها الهند وباكستان في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد .

السيد محمد بن علي السنوسي : (١٢٠٤ - ١٢٧٦ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩) من ذرية المثنى ابن الحسن بن علي .

قضى بواكير حياته في خواتيم الملحمة التي صنعتها دعوة ابن عبد الوهاب ، وتنقل بين صحراء مستغام بالجزائر ، وبين جزيرة العرب ذهاباً وجيئة .

طلب العلم في فاس بالمغرب ، ورحل إلى مكة فالتقى العلم على علمائها ، وبني زاوية للتعليم في جبل أبي قبيس بمكة ، ثم قفل راجعاً إلى الجبل الأخضر في ليبيا سنة ١٢٥٥ ، فأكثر من بناء الزوايا هنالك ، ثم رجع سنة ١٢٦٣ إلى مكة يقيم في الزاوية ، ويحدث الحديث ويفقه الطلاب ثم قصد إلى مصر سنة ١٨٤٠ ليبقى بها عامين ، فألقى دروساً بالأزهر ، وأصبحت القاهرة بعد ذلك ملجأ

لبنيه كلما أهدق بهم خطر ، بعد إذ صار إليهم ملك ليبيا .
ومن القاهرة بعث إلى واحة جغبوب بالصحراء في وسط أفريقية ، فبنوا له زاوية انتقل إليها
سنة ١٢٧٣ لنشر طريقته إلى أن توفي سنة ١٢٧٦ .

وفي سنة ١٣١٣ انتقل مركز الدعوة من جغبوب إلى واحة الكفرة .
والسنوسيون يركزون على التعليم وتحفيظ الكتاب الكريم وتضييف ابن السبيل ، ليعلموه العقيدة
الصحيحة ، وشراء العبيد وتحريرهم ، وإنكار التضرع للأولياء وزيارة القبور للتوسل ، وشرب القهوة
والتدخين ، ويحضون على السعي للرزق ، فالسنوسية منهاج حياة حجر الأساس فيها هو التعليم ونشر
الإسلام على أساس التوحيد الخالص .

محمد بن أحمد «المهدى» ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٨٨٥ . من أسرة قيل : إنها من الأشراف
الحسينية أصلها في مصر بمحافظة أسوان . حفظ القرآن ودرس التفسير وصار عضواً في الطريقة
السمانية التي قامت في السودان في أوائل القرن . وانتقل إلى (جزيرة أبا) ، فأقام خمسة عشر عاماً
يهدى الناس إلى الدين الصحيح ، ويمنع الأذكار وينهى عن التبرج والإقبال على الملذات ويأمر
الناس بالزهد .

وفي سنة ١٨٨١ أعلن أتباعه أنه المهدي المنتظر ، مع إلحاح الرجل في الإفصاح عن أن مهمة
حياته هي إحياء السنة وتعليم العقيدة الصحيحة .
ولما نجحت دعوته أعلن أنصاره الثورة على الحكومة ، وكانت مصر والسودان دولة واحدة ،
فحارب جيوش الحكومة - وكان يقودها إنجليز يضمرون لها الشر بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة
١٨٨٢ - واستولى على الخرطوم سنة ١٨٨٥ . وأعلن أنه يريد أن يأسر القائد الإنجليزي في الخرطوم
حيّاً ليفك به أسر القائد المصري أحمد عرابي الذي نفاه الإنجليز إلى إحدى جزرهم بعد هزيمة
الجيش المصري سنة ١٨٨٢ في معركته مع الإنجليز .

انتصر المهدي فأقام دولة بالسودان ، وأصدر التشريعات لمقاومة البدع والعادات التي لا تقرها
الشريعة . وأقام الحدود . ومد حد القذف فعاقب بنفس العقوبة على كل لفظ شوه وجه الأدب ،
وطبق حد الخمر وجلد على التدخين ثمانين جلدة مع حبس أسبوع . وعزر على الرقص والقمار ،
وقلل المهور فللبكر عشرة ريات وللثيب خمسة . وأباح طلاق زوجة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم
يترك لها ما تنفقه إلا أن يكون في جهاد .

واختار مذهب أبي حنيفة في فقه المعاملات .

ويضع المهدي وثورته في مكانها الصحيح في التاريخ تصريح من الشيخ محمد عبده حينما

قصد إلى لندن بعد نفيه من مصر فقال للحكام الإنجليز : (لاخطر من حركة المهدي ؛ إنما الخطر على مصر من وجود الإنجليز فيها ، فإذا غادر الإنجليز مصر فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ، وهو الآن محبوب من الشعب المصري ، لأنهم يرونه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي ، وينضمون إليه عند حضوره) .

محمود شكرى الألوسى : (١٢٧٣ : ١٣٤٤) الألوسيون أشراف في العراق . أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسى صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) ١٢١٧ - ١٢٧٠ ، وكان مفتياً حنفياً للعراق ومن أبنائه عبد الله (١٢٤٨ - ١٢٩١) جلس للقضاء على مذهب أبي حنيفة بعد إذ كان شافعيًا . ومن أولاد عبد الله محمود شكرى الألوسى المعروف بجمال الدين أبي المعالى الألوسى .

تعلم محمود شكرى الألوسى في حدائته على أبيه ، فلما مات كفله عمه السيد نعمان خير الدين الألوسى (١٢٥٢ - ١٣١٧) مؤلف كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمديين) : أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية . ومن تأليفه كذلك مختصر ترجمة ابن الجوزى لأحمد بن حنبل . وكان يستنسخ مريديه وتلاميذه كتب ابن تيمية ليتدارسوا مبادئه ، ويؤلف الكتب في ذم الذين يستغيثون بغير الله والمعطلين والمشبهين من المتصوفة والقادحين في فقه ابن تيمية .

كما ألف كتاباً أسماه (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وكتاباً أسماه (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع) . وكان مدفعاً من بقايا عتاد حرى ، نصبه الأتراك في بغداد سنة ١٠٤٧ فأصبح وثناً يحج إليه العامة ويقدمون النذور له !

وفي مؤلفه (تاريخ نجد) شرح العقيدة السلفية وشمائل الناس ومعايشهم ، فتحدث عن أمراء

(١) صار محمود شكرى رئيس المدرسين في إحدى مدارس بغداد ، وظفر بجائزة لجنة اللغات الشرقية في « استوكهولم » بالسويد لكتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) سنة ١٨٨٣ ، ثم نفاه الأتراك من بغداد زماناً ، ثم أطلقوا سراحه فزاد عزاً في قومه .

ولما هجمت الجيوش البريطانية على العراق بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) استغاثت تركيا بأمير نجد (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) واستعانت بواحد من محبيه هو محمود شكرى الألوسى ليفاوضه ، فأبدى الأمير له معاذيره ورفض الإسهام في مناورات دول تغتصب أرض العرب .

وفي سنة ١٣٣٥ سقطت بغداد في أيدي الإنجليز فعرضوا على محمود قضاء بغداد فنصب الإفتاء فشيخة الإسلام فلم يقبل ، فلقد كان يستصحب قول أبي ذر لمسلمة : (يا مسلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه !)

آل سعود وجهادهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأرخ لعلماء نجد ، وخص منهم محمد بن عبد الوهاب (١) .

محمد عبده : - (١٢٦٦ - ١٣٢٣ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥) .

تلمذ محمد عبده لجمال الدين الأفغانى ، وكتب فى الصحف وألف رسالة الواردات ثم حاشية على شرح الدوانى ثم تخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧ ، فعين مدرساً به ، فدرساً بدار العلوم ، فحرراً بالوقائع الرسمية سنة ١٨٨٠ ، ثم اشترك فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وحوكم وتنبى فى العام ذاته . وأنشأ فى منفاه مع جمال الدين جريدة العروة الوثقى فى باريس لإيقاظ أهل الإسلام وعاد إلى مصر فعين قاضياً سنة ١٨٨٩ ، فمستشاراً بالاستئناف فعضواً بمجلس الأزهر سنة ١٨٩٥ ، ففتياً للمسلمين سنة ١٨٩٩ ، ف رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠ ، فتتابع على رياستها بعده سلطان مصر حسين كامل ، والأمير يوسف كمال . فعلى يكن فمحمد محمود من رؤساء الوزارة فشيخا الأزهر المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وفى سنة ١٩٠٥ استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على الخديو وبعد أشهر وافته منيته ، فلم يشغل أحد مكانه فى أمة الإسلام حتى هذه الساعة . وهو أكبر علماء الأزهر أثراً فى الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر ، والكلام عنه كلام عن واقعنا ؛ ولا تزال كلماته فى العروة الوثقى برامج إصلاح لعالمنا المعاصر . وكلامه فى البدع كلام السلفيين والمتكلمين ، وطريقته فى الإصلاح طريقة «الأصوليين» و«العمليين» جميعاً .

يقول إثر عودته من منفاه عن أصول منهجه للإصلاح : (إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن

(١) قال عنه المستشرق ماسنيون وهو يرثيه : (كتب ليحجب للمسلمين المذهب الحنبلى على الطريقة الحديثة الوهابية ، وقد نشر كل هذا باسم مستعار) ولا شك خفيت بعض الكتب على ماسنيون فالألوسى قد كتب كتاب (فضل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وقال فى تقديمه (الإمام محبى السنة ، ومجدد الشريعة النبوية أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدى الحنبلى تغمد الله برحمته . . .)

فلم يكن الألوسى ليخفى أو يخاف أو يكتب باسم مستعار .

وأجمل الأب أنستاس الكرملى حياة محمود شكرى الألوسى وشخصيته فى الكلمات التالية عند مآثره : (كانت كتاباته غارة شعواء على الخرافات المتأصلة فى قلوب الجهلة والتقاليد الموهومة التى لانصيب لها من الدين . . . وكان قد وصل إلى حالة قاسية من الحاجة إلى المال فى عهد الاحتلال البريطانى ، لأن الأتراك أفقروا البلاد ، فلما عرف ذلك المعتمد السامى (البريطانى) برسى كوكس أهدى له ثلاثة دینار ذهباً إنجليزية وكلفنى تقديمها إليه . فلما أتيت بها رفضها بتاتا وقال : (خير لى أن أموت جوعاً من أن آخذ ما لم أتعب فى كسبه) إلا أن فاقت كانت وقرا على وعلى محبيه فتكلمت مع أولى الأمر وتمكنت من أن يعين قاضى قضاة المسلمين فى العراق ، فلما وقف على تنصيبه أبى وقال : (إن هذا المقام يستلزم علماً زاخراً وذمة لا غبار عليها ووقوفاً تاماً على الفقه . وأنا لا أشعر بذلك . ووجدانى يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاة المسلمين) .

مراقبة الحكومات فنعلم ونرى من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار؛ فقال : أنت مشبط !) . . .

وسنراه رجل قول وعمل بلغ في كل منها الذروة : يلي الوظائف الكبرى ويخوض فيها المعارك الضخمة ، ويتعلم الفرنسية . ويفهم بكتاباته أخبار المسيحية وفلاسفتها أمثال هانوتو ويكتب في الصحف . ويفسر القرآن ، ويصب اللعنة على السياسة الإنجليزية وهو في العاصمة الإنجليزية . وسنراه الشيخ الكبير لمدارس المصلحين والسياسيين المصريين كافة ، وفي طليعتهم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، وقاسم أمين قائد حركة تعليم المرأة ، والشيخ والعلماء الأحرار في الأزهر محمد مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق وعلى سرور الزنكلوني وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ، كما رأس ، وهو في الوقائع الرسمية ، سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى^(١) ووفاز زغلول وعبد الكريم سليمان وتعلم في رياسته رؤساء الوزارات سعد وعدلى ورشدى وثروت ومحمد محمود والزعيمان محمد فريد وطلعت حرب والشيخان المراغي ومصطفى عبد الرازق .

وظل على ما بدأ به حياته في عهد الطلب متقشفاً زاهداً يقاوم الخرافات والجهالات في كل موقع شغله أو اطلع على عيوبه أو استعان به أصحابه لإصلاحه .

* * *

ولما كرثت مصر كارثة الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ واجتمع عليها الحكم التركي يمثلها الولاة من أبناء محمد على والاستعمار البريطاني كتب عن محمد على - وحفيده الخديو عباس حلمي الثاني على عرش مصر يحتفل بمرور مائة عام على تأسيس دولته - فقال : (ماذا صنع محمد على ؟ . . . لم يستطع أن يُحيى ولكن استطاع أن يميت ! . . . اشربت نفسه لأن يكون ملكاً غير خاضع للسلطان العثماني ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة !

. . . وانقلب الوطني غريباً في داره غير مطمئن في قراره . فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبي إياه ليضلل إلى ما يريد منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة . . .) .

وقال عن محاربة محمد على للدين : (لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول : إن (محمد

(١) أول النقباء وأشهر المحامين في العالم العربي - انظر (المحامون وسيادة القانون) للمؤلف طبعة ١٩٧٦ ص ١١ الى

(على) جعل جدران سلطانه بنيةً من الدين^(١) . أى دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصيل ! دين الكرباج ! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا « مسألة الوهابية » وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين) .

ولا عجب - وهذا رأيه فى محمد على وفى (المسألة الوهابية) - أن يقول فيه أنصار محمد على وأعداء ابن عبد الوهاب : (إن مبنى أصول محمد عبده فى ضلالتة على أصول ابن عبد الوهاب) (٢) .

* * *

(١) كان فهم محمد على وأسرته للدين مجرد إقرار بالإيمان دون القيام بعمل صالح أو إدراك صحيح لحقائق التوحيد . ومن أمثال ذلك دعوة حفيده إسماعيل علماء الأزهر ليقروا صحيح البخارى إبان هزائم جيشه فى حرب بالحشة لينصر الله الجيش ، فكانوا يقرءون فى القصر وكانت الجيوش تنهزم فى الميادين فقال لهم : إما أنكم لا تقرءون وإما أنكم لستم بعلماء ! فأجابوا واحد منهم : إن النبى ﷺ يقول : « لتأثرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

(٢) عبر محمد عبده عن المنهج السلفى بسيرته فى الكفاح وبمؤلفاته أصدق تعبير وواجه الملحدين والدهريين والمشككين . يقول فى كتابه رسالة التوحيد :

إن الله وهب لنا الحواس وعرز فينا من القوى مانصره فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه ، لها أو عليها . وأما ماتتخير فيه مداركنا وتقصير دونه قوانا فذلك إنما يرد إلى الله وحده . فلا يجوز أن نخشع إلا له ولا نطمئن إلا إليه لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله . . . فهو وحده مالك يوم الدين . . . اجتثت بذلك جذور الوثنية وماوليا بما لو اختلف فى الصورة والشكل أو العبارة أو اللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة ، فتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة وتخلصت تلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وغيرهم . وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض قاهر الناس أجمعين سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هي : كإرادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما ظن فى القبور والأحجار ، والأشجار والكواكب ونحوها وانفكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم وسيلة النجاة

صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة ، حراً من العبودية لكل ماسواه ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا يفرقهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه . ويقول فى الاجتهاد والتقليد : (أنهى الإسلام على التقليد وأقتلعت أصوله الراسخة وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام . ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون إلى طريق البحث هادون .

عاب أرباب الأديان فى اقتنائهم أثر آبائهم فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده . يقضى فيه بحكمته وحكمته

بهذا وماسبقه م للإسان أمران عظيمان طالما حرم منهما : وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر . وبها كملت له إنسانيته وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين ولم =

أعلن محمد عبده - بعد تقلبه في الوظائف وأسفاره في الممالك وكفاحه لإصلاح الجماعة أنه في طول حياته كان يتأخى « المنهج السلقي » الذي يستعمل العقل ويتسع للاجتهد ، فقال في مذكراته التي كتبها في خواتيم حياته :

(ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف بالرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله . . . وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا الدهر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الآخر فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير . . .

وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في أمرين : كليهما يمجج الذوق وتنكره لغة العرب . . . وأضاف أن الحكومة العادلة هدفه ، وأن الوسيلة إليها هي بذور بذور التعليم وتربية غراسها في الأمة . قال :

(وهناك أمر ثالث كنت من دعائه والناس جميعاً في عمى عنه وعن تعقله ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ؛ وما أصابهم الدهر بالضعف والذل إلا بسبب نخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على

= يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد السيد المسيح ، وقرر هذا الحكيم أن هذا الإشعاع سلط عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان . . . ١) .

ويقول : (واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوق وقفة القائد خذله الأنصار . . . لكن الله بالغ أمره ، فأنحدرت إلى ديار المسلمين أم التار يقودها جنكيز خان ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين . . . ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً . جاءوا لشقوتهم فعادوا لسعادتهم . . .)

ويقول في الصفات : (ويجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني ، وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين . فإن ورد ما يوهم ظاهره وجب صرفه عن الظاهر : إما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد وإما بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة) . ثم يقول : (إن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة ، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا يبصر يختص الله به أهل الدار الآخرة) .

ويقول في خوارق العادات والكرامات على يد غير نبي : (وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه يجب عدم الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي الله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي ، ولا يكون إنكار هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة . أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليأؤه وأهل العلم أجمعون) .

الحكومة . . . جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قائم على صولجانه . . . ! نعم إني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع ، ولكنني كنت روح الدعوة ولا أبرح أدعو دعوتي في الدين ، وأطالب بالإصلاح في اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبيره ؛ لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنبها الأمم من غرس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . . .)

المنهج الإسلامي منهج علمي :

كان كل واحد من المصلحين الذين أسلفنا ذكرهم مع اختلاف مذاهبهم ومواقفهم أبرز مفكر في جيله ، وكان إجماع طرائقهم على الأخذ بالمذهب السلفي ، ومبادئ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، واتباع الأمة لكل منهم في مكانه وزمانه ، وتحقيق بعض الإصلاح الذي دعا إليه كل منهم : إن بالأمر بالمعروف وتغيير المنكر كما صنع السيد أحمد ، وإن بالسلاح كما صنع المهدي ، وإن بالعلم كما صنع الشوكاني والألوسي ، وإن بحب الآفاق والتربية كالسنوسيين ، وإن بالتعليم والتربية والمشاركة في إصلاح مرافق الحياة كمحمد عبده ، كان كل أولئك دلائل على أن « هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما يصلح به أوله » وهو العودة إلى الأمر الأول .

ولا جرم إن أظهر ما يستوقف النظر من دعواتهم :

١ - أنها تعيد الفكر الإسلامي إلى صفائه من تخليط الحشويين ، وتهدم الأفكار الباطنية والدعاوى الغيبية والعلوم الدنيوية والانحرافات التي تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والإرادة الفردية بالغيوبة الكاملة أو الناقصة .

٢ - أنهم جميعاً واجهوا تحديات العصر بمنهج علمي يحارب عدوين للأمة :

الأول : عدوها من نفسها هو انعدام الثقة في نفسها والاستكانة أمام الطغاة ، والتواكل في انتظار السماء أن تمطر الذهب والفضة ، أو أن يساقط عليها الأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النعمة أو اللقمة .

والآخر : عدوها من خارجها - تردها جيوشه ، كلما رفعت رأسها ، إلى مجتمع الخرافات والغيبيات ، وتفرض عليها الشحناء والشقاق كهيئة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطي الأفيون على شعوب الصين .

ولقد كان عدواً سافراً لكل المصلحين : بجيوشه حيناً ، وبفتكه وسفكه أحياناً ، وبأعوانه السافرين والمتوارين على الدوام .

٣ - أن أقرب سلف منهم كانت سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وكان لها

الأثر فيهم ، فتقشّفوا كتقشّفهم ، ودعوا الناس صراحة للاقتداء بهم في منهجهم .
 ٤ - أنهم مجمعون على إيجاب الاجتهاد ودم التقليد ، والتفكير بحرية ، مبتدئين بالقرآن والسنة ،
 ومنتهين إليهما . وما هو إلا منهج السلف الصالح ، إذ يأخذ العلم من مصادره ، ويتنفع بنعمة العقل
 الذى ميزنا الله به ، وأمرنا باستعماله ، والاعتبار بواقع الكون وعجائبه التى أمكننا الله منها وأظهرنا
 عليها ، وأمرنا بالنظر فيها بحرية ، واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى . وعلى
 هذه القواعد - النزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتباط المعلول بالعلة - يجرى
 الاستخلاص فى سائر العلوم .
 وهذا هو المنهج العلمى الذى أمر به القرآن وعلمته السنة .

* * *

يقول الشافعى فى «رسالة الأصول» : (وليس لأحد أبداً أن يقول فى شيء حل ولا حرم إلا
 من جهة العلم . وجهة العلم الخبر فى الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) ويتكلم عن القياس
 فيقول : (أهو الاجتهاد أم هما مفترقان ؟ قلت : هما اسمان لمعنى واحد) (. . .) والاجتهاد
 القياس .

(ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها ، وهى العلم بالأحكام بكتاب الله ، فرضه
 وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده . ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول
 الله ، فإذا لم يجد سنة فيإجماع المسلمين . فإن لم يكن بإجماع فبالقياس . ولا يكون له أن يقيس حتى
 يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا
 يكون لأحد أن يقيس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يعجل بالقول دون
 الثبوت ، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد فيما اعتقد
 من الصواب .

وعليه فى ذلك بلوغ جهده ، والإنصاف من نفسه ، حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما
 يترك . ولا يكون بما قال أعنى منه بما خالفه ، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، إن شاء الله) .
 ويستطرد فى بيان أساس طريقة التجربة والتزام الواقعية والموضوعية ونزاهة التقدير والتقرير
 فيقول :

(. . .) ولا يجوز أن يقال لفقهاء عدل غير عالم بقيم الرقيق أقم (قوم) هذا العبد ولا هذه الأمة
 ولا إجارة هذا العامل ؛ لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً) .
 ويقول فى «الأم» لينهى عن الوهم والتخيل وليأمر بالتزام الواقع : (وإن زعمتم أن واسعاً لكم
 ترك القياس والقول بما سنح فى أوهامكم وحضر فى أذهانكم واستحسنته مسامعكم حججتم بما

وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع) .

ويقول : (. . . فإن عدم واحدا من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياساً . . . كما لا يجوز أن يقال قس لأعمى وصفت له . . . وهو لا يبصر ما قيل له . . . أو يقال سر بلاداً لم يرها قط ولم يأتها قط . . . وليس له فيها علم يعرفه . ولا يثبت له فيما قصد سمت يضبطه ، لأنه يسير فيها على غير مثال قويم . وكما لا يجوز لعالم بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له قوم . . . ؛ لأن السوق تختلف . . . ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه . . . قوم كذا ؛ كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء . !) .

* * *

ويقول في « الرسالة » عن وجوب الأخذ « بالظاهر » . (العلم من وجوه . منه إحاطة في الظاهر والباطن ، ومنه حق في الظاهر ، فالإحاطة منه ما كان نص حكم الله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة ، فهذان السيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل الله أنه حلال وفيما حرم أنه حرام . وهذا الذي لا يسع أحد عندنا جهله أو الشك فيه . وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم . . . وهي فيهم أو بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه . . . وهو الحق في « الظاهر » كما نقتل بشاهدين . وذلك حق في الظاهر . وقد يكمن في الشاهدين الغلط ، وعلم إجماع وعلم قياس . . .) . ويقول : (وأيهما كان فقد فرقوا بين حكم الظاهر والباطن ، وألغوا المأثم عن المجتهد على الظاهر ، وإن أخطأ عندهم ، ولم يلغوه عن العامد) .

وحجة الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات قوله عليه الصلاة والسلام : « إنكم بشر وإنكم تختصمون إلي فليحل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه منه شيئاً ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار) . وبينى الشافعي على ذلك : (فمن قضى بتوهم منه على سائله ، أو بشيء يظن أنه خليف به ، أو بغير ما سمع من السائلين - فخلاف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب وادّعى هذا علمه .) .

وفي تفسير العقود وإنزال الأوصاف عليها من الصحة والبطلان يستبعد أي شيء « باطن » ، ولا يقبل إلا « الظاهر » .

يقول في الأم : (يبطل حكم الإزكان (الفراسة لمعرفة كون العقد ذريعة لمحرّم) من الذرائع في البيع وغيرها . ونحكم بصحة العقد . وإذا أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يمسه إلا يوماً أو عشرة وإنما نوى أن يقضى منها وطراً ، وكذلك نوت هي منه ، غير أنها عقداً النكاح مطلقاً على

غير شرط) . ويقول (لا يفسد عقد أبداً إلا بالعقد نفسه . لا يفسد بشيء تقدمه ولا تأخر ولا بتوهم ولا بأغلب . وكذلك كل شيء لا يفسده إلا بعقده) .
ولئن كانت المعاني هي المقصودة لا المباني ، وإرادة المعنى أكد من إرادة اللفظ ، إن اعتبار المعاني لا يرتب الأحكام إلا أن يكون المتكلم قاصداً لها مريداً موجباتها .
والآخذون بالظاهر يتقيدون بكل نية «تظهرها» الدلائل من لفظ أو قرينة . فهي عندئذ أمر ظاهر .

* * *

وهذه الأصول من منهج الشافعي تضع نصوص الكتاب والسنة ومعانيها موضعها من الفكر الإسلامي كافة . وتلزم الناس الاجتهاد وسلوك وسائله وهي :

- ١ - العلم .
- ٢ - الاجتهاد وفحواه بذل الجهد واحترام الواقع الظاهر وإدارة المعلولات والعلل معاً .
- ٣ - النزاهة الكاملة في تقدير وتمحيص العلل وترتيب النتائج .
- ٤ - عدم الاستناد إلى نظريات مسبقة أو حقائق مفروضة والتزام ما يثبت .
- ٥ - عدم الخضوع للميل الشخصي أو التفكير الباطني .

وهذا هو المنهج الذي نقلته أوربة في فاتحة عصر النهضة بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، بعد إذ قاومت الكنيسة المسيحية حرية الفكر وتدرس العلم الإسلامي قروناً طويلة ، وألزمت العلماء أن تنتهي نتائج أبحاثهم نهاية توافق مقولات الكنيسة ، مهما دلت الدلائل على النقيض . فحوكم الكثيرون وأعدم منهم بعضهم .

تابع الفقهاء المسلمون منهج الشافعي في أصول الفقه ، وانتقل المنهج ، لأنه قرآني ، إلى سائر فروع العلم الإسلامي في الطبيعة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها .

وجرى العلماء كالفقهاء على المنهج ، وحسبنا الآن بعض أسماء نختارها من كل فروع العلم :
من جابر بن حيان - أول كيميائي في التاريخ - في القرن الثاني للهجرة إلى الرازي الطيب (٣٤٠ - ٤٢٠) إلى البيروني المؤرخ (٣٥١ - ٤٣٠) إلى ابن سينا الفيلسوف (٣٧٥ - ٤٢٨) إلى أبي الحسن بن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠) عالم الطبيعة إلى المسعودي المؤرخ (٣٤٦) إلى القزويني الجغرافي (٦٠٥ - ٦٨٢) إلى التيفاشي (٦٥١ هـ = ١٢٥٣) الجيولوجي .

ومن هؤلاء انتقل المنهج إلى روجير بيكون (١٢٩٦) الذي نادى بتعليم المنهج الإسلامي ونقل

علوم المسلمين إلى أوربه كما تدفق سيل الترجمة إلى أهل أوربه من جامعاتها الكثيرة وشهدنا في القرن السابع عشر من الإنجليزى فرانسيس بيكون والفرنسى ديكارت (١٦٥٠) تفاصيل منهج جديد هو المنهج الإسلامى ذاته ، وتبعه العلماء فى أوربا وأمريكا ولا يزالون يتبعونه (١) .
وبانتصار الحرية الفكرية على قيود الكنيسة بدأت أوربه نهضتها المعاصرة . وباستعمال منهج التجربة والاستخلاص بلغت الحضارة العلمية والتكنولوجية مبالغها الحالية .

* * *

وبعد : فى العالم الآن حضارتان ماديتان تتجاريان .

الأولى : حضارة ورثها الغرب من وثنية اليونان والرومان ملاكها القوة والسيطرة وإطلاق العنان للإرادة «الفردية» ، لم تحولها المسيحية عن طبيعتها الوثنية ولم تصقل منها إلا الظواهر .
والأخرى : ملحدة لا تعترف بوجود الله . وتحتكر الدولة فيها السلطة والملكية والحرية .
ولقد أفلست الحضارتان لخلوهما من الروح وفزعها من الغد ، وانتهى بهما السباق إلى غير غاية ، وسيطر عليهما الرعب النووى الذى يميت البشرية تفارق ، يوماً بعد يوم ، ليدمرهما ، يوم يفرغ المتسابقان ما يخترنان من القنابل الذرية . وهى إذ تتج وتختزن سوف تستعمل .
وانصرف أصحاب الحضارتين إلى تعاطى وسائل النسيان بالمخدرات تمتلئ بضحاياها المستشفيات الخاصة بالمدمنين فى كبرى العواصم ، وإلى الاستكثار المجنون من لذات الجسد ورفاه البدن وتكاثر السلع ، يعيشون بها أياماً لا يثقون فيها ويخافون غدها .
وكلتا الحضارتين تسترق الناس للإنتاج الكبير الذى تدفعه الآلات إلى أيديهم ولا تسعد به نفوسهم ، وكلما ألهاهم التكاثر زادوا قلقاً ورهقاً !

والحضارتان تبحثان عن قيم اجتماعية جديدة ، وكمثلها العالم الصاعد : فالأرض مفتوحة أمام قيم الإسلام وعقيدته لإصلاح أى مجتمع عصرى بالمنهج الإسلامى ، الذى عبر عن قيمه طاهر ابن الحسين فى وصيته لابنه إذ ولى خراسان . فقال له .
(وليكن كثر خزائنك فى عمارة الإسلام وأهله) .

فالقيم الدينية تحدث القيم الاقتصادية وتطب لأدواء الحضارات جميعاً .
وإنما يضع الحواجز لقمع انتشار الإسلام فى الأرض المفتوحة أمامه ترويج أعدائه لخرافات المرجفين من أبنائه ، ومحاولة أعدائه إخفاء المنهج الإسلامى الذى تحققت به الحضارات ، كى لا يدرك الناس أن فى الإسلام شفاءهم ، وأن منهجه العلمى ومنهجه الاجتماعى يتخطيان مجازاة العصر إلى استباق أسباب التقدم .

(١) راجع كتاب المنهج العلمى المعاصر مستجد من القرآن للمؤلف دار الاتحاد العربى للطباعة سنة ١٩٧٦ ص ٩ - ٥٣ .

فهرس الأحاديث

صفحة

٢٤	(إن أخرج اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك . لا مالك إلا الله)
٢٢	(من شر ما أوتى العبد شح هالع وجبن خالع)
١٢ - ٦٨	(إن الله يقول لكم : مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم . . .)
٦٨	(إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)
١٣ - ٢٧	(خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)
٣٠	(مررت وهم يسبونك)
٣٦	(من ستر مؤمنا فكأنما أحيا موءودة من قبرها)
١٥٧	(من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه . وحسابه على الله)
١٥٨	(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)
١٥٩	(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)
٢٦١	(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم بعقاب من عنده)
١٢٢	(بل ائتمروا بالمعروف وتناهاوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا)
١٤٣	(إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)
١٣٠	(من علق سيفاً أو صوتاً فلا يؤمر ولا ينهى)
٣٣	(اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد)
٣٤	(اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت)
١٥٠	(إذا قام أحدكم فى الصلاة فلا يكف شعرا ولا ثوبا)
٣٨	(أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم)
٣٧	(اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)
١٨٧	(اللهم علم أنى أحبكن)
١٤٤	(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)
	(بايعنا رسول الله)
	(إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)

صفحة

- (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس) ١٢٣
- (أحد هذا جبل يحبنا ونحبه) ١٧٥
- (عليك بابن عمك) ١٧٥
- (سئل عليه الصلاة والسلام : أى العمل أفضل ؟ فأجاب : (إيمان بالله ورسوله)
- ٤٤ قيل : ثم ماذا ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله)
- (آمركم بخمس أمرى الله بهن :
- السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة ؛ فإنه)
- ١٤٤ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ...)
- ١٥٩ - ١٦١ (رباط أحدكم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ...)
- ١٦١ (إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به)
- ١٦١ (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)
- ١٦١ (عينان لا تمسهما النار)
- ١٤٤ (إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم)
- ١٦١ (من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمها على النار)
- ٣٥ (إن الله لا يقبل من العلم إلا ما كان خالصا له)
- ٣٥ (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)
- ٣٥ (إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة)
- ٣٥ (غلبنا عليك يا أبا الربيع)
- ٣٥ (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته)
- ١٢٧ (فتلك عبادتهم) = اتباعهم بغير دليل)
- ٦٢ (هم قوم تحابوا فى الله)
- ٦٥ (نفسك راحتك)
- ٦٥ (من أصابه جهد فى رمضان فلم يفطر فأت دخل النار)
- ٦٥ (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده فى مأكله ومشربه)
- ١٤٣ - ٦٥ (أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له فن رغب عن سنتى فليس منى)
- ٦٥ (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكن بعثت بالحنيفية السمحة)
- (.....) لغدوة فى سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقمام أحدكم
- ٦٦ فى الصف خير من عبادة ستين سنة)
- ٦٥ (المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف)
- ٦٨ (مروا بالمعروف وانها عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم)

- (الدين النصيحة)
- ٧٧ (من أصبح والآخرة أكبر همه جمع له شمله)
- ٧٧ (على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية)
- ١٢١ (من كره من أميره شيئاً فليصبر)
- ١٢١ (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد)
- ١٢١ (ستكون بعدى أمة لا يهتدون)
- ١٤٥ - ١٢١ (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)
- ١٢١ (لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن)
- ١٢٢ (اللهم من شق على أمتي فشق عليهم)
- ١٢٢ (من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم)
- ١٢٢ (إنكم اليوم على بينة من أمركم : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون في سبيل الله ، ولم يظهر فيكم السكران سكر الجهل وسكر حب النفس)
- ١٢٢ (إن فيكم محدثين وإن منهم عمر)
- ٥٠ (مثل ، أمتي المطر لا يدرى أوله خير أم آخره)
- ١٨٨ - ٨ (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه)
- ١٥٧ (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة)
- ١٥٩ (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه)
- ١٥٩ (حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلاً ويصام نهارها ...)
- ١٥٩ - ١٥٧ (إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذون كنائس ويبيعوا)
- ١٦٠ (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده)
- ٢٦ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)
- ١٥٨ (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة)
- ٦٨ (إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يجوزها إلا الخف)
- ١١٨ (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم)
- ٧٧ (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ...)
- ١٢٥ (لو سألتني سيابة من الأرض ما قبلت)
- ١٠٣ (عينان لا تمسها النار)
- ١٦١ (لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم

صفحة

- ٦٨ شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لكم) .
- ٢٠٢ (إنكم بشر، وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض)
(ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب) .
- ٤٣ (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس) .
- ٤٥ (حفت النار بالشهوات)
- ٣٨ (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)
- ١٢٩ (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران)
- ١٢٨ (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا)
- ١٢٨ (سئل عن النشرة فقال (هي من عمل الشيطان)
- ١٢٨ (لما ذكرت عنده الطيرة قال : (أحسنها الفأل ولا ترد مسلما)
- ١٢٨ (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)
- ١٢٨ (الشرك الخفي : يقوم الرجل فيصلي ويزين صلاته لما يرى من نظر رجل)
- ١٢٨ (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحسدهم على رزق الله)
- ١٢٩ (من حلف بغير الله فقد أشرك)
- ١٢٩ (لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله)
- ٨ (لا تشتروا القينات ولا تبيعهن)
- ٣٨ (يا عائشة الأنصار فيهم غزل . فما قلت)
- ٤٣ (طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع)
- ٦٢ (إن الله تعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)
- (لكنني أنام وأقوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني)
- ١٤٣ (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خلد لهم)
- ١٣٦ (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه)
- ١٣٨ (لا يحل سلف وبيع ولا شرطان في بيع)
- ١٤١ (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا)
- ١٤١ (إن أحق الشروط بالوفاء ما استحللتم به الفروج)
- ١٤٢ - ١٣٦ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)
- ١٤٣ - ١٢٢ (أينما لقيتموهم فاقتلوهم)
- ١٤٣ (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده)

- (أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد . وإنه
من يعيش منكم فسيرى).
- ١٢١ (سكنون بعدى أئمة لا يهتدون بهدي).
- ١٢٢-٨٧ (طوبى للغرباء).
- (إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي
وسنة خلفائى الراشدين - المهديين).
- ١٢٢ (توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها).
- ١٢٣-٩ (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً).
- ١٢٤ (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت).
- ١٢٦ (من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر).
- ١٢٨ (من تعلق بتميمة فلا أتم الله له).
- ١٢٦ (إن الرقى والتمائم والتولة شرك).
- ١٢٦ (من علق تيممة فقد أشرك).
- ١٢٨ (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله).
- ١٢٧ (لعن الله من ذبح لغير الله).
- ١٢٧ (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية).
- ١٢٦ (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر... الرياء).
- ١٢٨ (يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً).
- ١٢٩-١٢٧ (الشرك الخفى يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل).
- ١٢٨ (اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك).
- ١٢٩ (ليس منا من تطير أو تطير له).
- ١٢٨ (من نفث في عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشرك).
- ١٢٨ (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك).
- ١٢٨ (لعن الله زوارات القبور).
- ١٢٩ (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد).
- ٣١ (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة).
- ٣١ (من علق شيئاً وكل إليه).
- ١٢٨ (قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت . قال أجعلني لله ندا؟ قل ما شاء الله وحده).
- ١١٧ (الله أكبر ، إنها السنن ، قلت - والذي نفسى بيده - كما قالت بنو إسرائيل
لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة).
- ١٢٩

صفحة

- (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه) ١٢٩
- (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ١٣٠
- (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد) ١٣٠
- (لا تتخذوا قبرى عبدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم) ١٣١
- (على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية ...) ١٢١
- (اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ...) ١٢٨
- (لا تتخذوا القبور مساجد) ٩٦
- (طوبى لمن هدى للإسلام ...) ٤٣
- (إن الله جميل يحب الجمال ...) ٤٤
- (الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النملة) ٩٢

فهرس المسائل

- (أ)
- أبدال ٦١
أترك = روم ١٧٠
الاجتهاد ١٣٦
الإخشيذ ٢١
إزكان ٢٠٢
استقلال الإرادة ١٣٩
الإسلام دين علمى ٢٠٠
الإسلام إيجائى ٦٤
أصنام فى الجاهلية - ١٣٠
أصنام فى الجماعة الإسلامية ٦٧
الأصول الثلاثة وأدلتها ١٢٣
أصول الفقه ١٣٩
الأعياد = الموالد ٤٨
أعياد القديسين ٤٨
الأغلبية ٣١
أكلة الشعابن ٥٩
آل الشيخ ١١٥ - ١١٦
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٨ - ٣٤
أيقونات ٨٥
الأولياء ٦٢ - ٧٣
- (ب)
- الباطنية ٥٦ - ١٤٩
بدع القبور - زيارتها - أضرحتها - النذر لها
البدعة - ٢٩ - ٤٠
بوابة المتولى ٨٢
- البزغية ٥٤
بطلان الحكم بالإزكان ٢٠٢
البناء على القبور ٨٢
بنى حنيفة أشهر أهل الردة ١٠٢
البيعة بين ابن عبد الوهاب وبين محمد بن سعود ٩٩
بين جمال الدين ومحمد عبده ١٩٦
بين الرسول (ص) وهوذة ١٠٢
بين الرسول (ص) ومسيلمة ١٠٣
بين الشيخ وعبد العزيز بن محمد بن سعود ١١٢
بين غلاة الشيعة والتصوف الفلسفى ٥٢
بين محمد على ومحمد عبده ١٧٢ - ١٩٧
- (ت)
- التأويل بمعنى التفسير ١٤٠
التأويل بمعنى رمزى أو باطنى ٥٧ - ١٤٠
تأليه الخليفة الإسماعيلى ٥٥
التتار ٢٥ - ٨٠٧١ - ٨١ - ١٥٥
التجربة والاستخلاص ٢٠٣
التدخين ١٦٥
الترجمات ٢٠٤
التشفع بالأولياء ١٣١
تصوف سلفى ٤٢
تصوف فلسفى ٤٨ - ١٤٩
تعليم الشيخ ١١٨
تعليم الشيخ للتلاميذ ١٠٧
تقبيل الأيدى ١٣٤
تقديس الأولياء ١٢٥

- تقليد ٦٧
تكايا ٥١ - ٨١
التغير ٣٣
التوحيد والوضوح لغة الصحراء ١١٨
- (ج)
جغرافية نجد ١٠٢
جهاجم القتلى في قصر الإمارة بالكوفة ١٧
الجهاد ١٥٧
- (ح)
الحجر الأسود ينزعه القرامطة ٥٤
حد القذف ١٩٤
حرب العاشر من رمضان « بين فيصل ونيكسون »
١٨٨
الحرب العالمية : بين عبد العزيز وروزفلت ١٨٣
حروب الردة في نجد ١٠٢
حرية الإرادة ١٣٩
الحكم بالظاهر ٢٠٢
- (خ)
خاتم الولاية ٥٨
خرافات ٨١
خروج الشيخ إلى الدرعية ٩٨
خروجه إلى العينة ٩٣
الخطابية ٥٤
الخلافة عن الله ٥٥
الخوارج ١٣ - ٩٥ - ١٩٣
الخرفة - ٣٣
- (د)
دراويش ٥١ - ٨١
- دراويش راقصون ٥١
الدرس الكبير ١١٧
دروس الدرعية ١٦٩
دستاو : كتاب - ٤١
الدعاء لعلي على المنابر في بغداد ٢٢
الدولة البويهية ٢١
الدولة السامانية ٢١
الدولة الطاهرية ٢١
الدولة الحمدانية ٢١
الدولة الفاطمية ٢١
- (ذ)
الذكر الراقص ٥١
- (ر)
رأى محمد عبده في حرب محمد علي للوهابيين ١٧٢
الرموز ٥٩
رسائل ابن عبد الوهاب ١١٠
رسائل آل الشيخ ١٣٤
رقص ٥١
الرقية ١٢٨
رمضان - حرب رمضان ١٨٨
رهنية توحيدية ٤٢ - ٥١
رهنية ديرانية ٤٢ - ٥١
رهنية ديرانية ٤٢ - ٥١
- (ز)
زى النساك ٣٣ - ٧٤
زيارة القبور ٣٣ - ٧٣
زهة الصحابة ٤٢ .
زوايا ١٩٣
الزيدية ١٩١

- (س)
- السمانية ١٩٤
- السحر ٨٢
- السنوسية ١٩٣
- السياسة الشرعية ٧٦
- سياسة بنى أمية ١٥
- سياسة بنى العباس ١٨ - ٢٢
- سبدي ١٣٢
- (ش)
- شجرة العائلة - آل سعود ١٨٠ - ١٨١
- شجرة العائلة - آل الشيخ ١١٥
- شجرة الحنفى ٨٢
- شروط الزواج أحق بالوفاء ٧٤
- شرك خفى ١٢٨
- شروط العقد ٧٤
- شروط الزوجة ١٤١
- الشعوبيون ١٢ - ١٨ - ٤١
- الشفاعة ١٢٩
- شياطين ٨٢
- الشيعة الإسماعيلية ٥٢
- الشيعة الإمامية ٥٣
- الشيعة القرامطة ٥٤
- الشيعة المعمرية ٥٤
- الشيعة المفضلية ٥٤
- (ص)
- أصنام ١٣٠
- صفات الله ٧٢ ، ١٤٦
- الصوفية - اسمها ٤٧
- (ط)
- طاعة الأمراء ١٢٢
- طريقة الشيخ ١٦٠
- طنبور ٣٧
- (ظ)
- الظاهر - الحكم بالظاهر ٢٠٢
- (ع)
- عهد عمر لأهل إيلياء ٧٩
- علم الكلام ٢٦ - ٢٧
- عيد القيامة ٥٦
- (غ)
- غناء ٣٨ - ٤٦
- ٦١
- الغوث ٧٤
- (ف)
- الفاطميون ٥٤ - ٥٥
- فتاوى الشيخ ١٣٢
- فتاوى أبناء الشيخ ١٣٤
- فتك الأتراك بالعباسيين ١٩
- الفتوى للملك الملوك ٢٤
- فساد الخلافة ١٨
- فساد الجماعة ٣٠
- فساد بنى العباس ١٨
- فساد بنى أمية ١٥
- فلسطين - عبد العزيز وفلسطين ١٨٤
- فلسطين - عبد العزيز وروزفلت ١٨٣
- فلسطين - فيصل وفلسطين ١٩١
- فيصل وسلاح البترول ١٩١
- (ق)
- القراءة بالألحان ٣٨

مذبحة الماليك في وليمة ١٧٦

مزدكية ٤١

المعتزلة ٢٦

معركة الدرعية ١٦٧ ، ،

ملك الملوك ٢٤

المملكة العربية السعودية ١٨٣

مناهج الإصلاح الثلاثة ١٩٠

المنهج السلني ١٠ - ٢٦

المنهج العلمي الإسلامي ٢٠٠

القبور والأضرحة ٣٣

القطب ٦١ - ٧٤

(ك)

كتاب التوحيد ١٢٠

كتاب مختصر السيرة ١٠٤

كتاب مختصر الإنصاف والشرح الكبير

الكعبة : ضرب الحجاج لها ١٥

الكرامات ٦٣ - ٧٣

(ل)

لقاء عبد العزيز وروزفلت ١٨٣

لقاء فيصل ونيكسون ١٩١

(ن)

نماذج من فقه الشيخ ١٣٨

نشأة الشيخ ٩٠

(و)

الواعظ التركي بمصر ٨٣

الوحدة العربية ١٧٨

(م)

المانوية ٤١

مجلس الشيخ ١٦٩

مجامع مسكونية ٨٥

مدرسة الإسكندرية ٤٢

المدرسة الجوزية ٧٧

المدرسة السكرية ٧٧

المدرسة العمرية ٧٧

(هـ)

هجرة اليهود لفلسطين ١٨٤

(ى)

يد الله ١٥٢ - ١٥٣

مذبحة الأمويين في وليمة ١٧ - ١٧٦

فهرس الأماكن

- (أ)
- الأحساء ٩٨ - ١٦٢ - ١٨٦
- الأرطاوية ١٨٥
- الإسكندرية ٧٣ - ١٧٢
- أبو قبيس ١٩٣
- أنجم ٤٨
- استوكهولم ١٩٥
- إسطنبول ٢٥
- أسوان ١٩٤
- أفريقية ١٦ - ٢١
- ألمانيا ١٨٢
- أمريكا ١٨٠ - ١٨٤
- إنجلترا ١٧٧
- إيران ٥٥
- (ب)
- باب المندب ١٨٠
- البارجة كونسى ١٨٤
- باريس ١٩٦
- البحرين ١٦٢ - ١٦٦
- البرتغال ١٨٠
- بريدة ١٧٠
- بريم ١٨٠
- البصرة ١٦ - ٩٢ - ١٦٤
- بلغاريا ١٧٧
- بغداد ١٨ - ٢٥ - ١٦٥
- البوستة ١٧٧
- بيضاء فارس ٥٠
- البيضاء ليبيا ١٩٣
- (ت)
- تبالة ١٦٩
- تربة ١٦٩
- تركيا ١٦٣ - ١٦٧ - ١٨٢
- ترمذ ٤٩
- تونس ٥٤
- تهامة ١٦٥
- (ج)
- الجبيل الأخضر ١٩٣
- جييلة ٩٤ - ١٠٢
- الجزائر ١٩٣
- جنوب ١٩٤
- الجهرة ١٦٤
- (ح)
- حطين ٨٠
- حائل ١٨٠
- الحجاز ١٦٨
- حريملا ٩٢
- (خ)
- خراسان ١٩ - ٤١

الخروج ١٦٢

الخفيف

(ع)

عدن ١٨٠
العراق ١٦٤ - ١٦٧
عسير ١٦٥ - ١٨٧
عقرباء ١٠٢
عمان ١٦٥ ، ١٧٩
عنيزة ١٧٩
العينة ١٠ - ٩٠

(د)

الدرعية ١٠ - ٩٨ ، ١٦٨ .
دمشق ٧٠
الدلم ١٦٢
دومة الجندل ١٣٠

(غ)

غرناطة ١٨٠

(ر)

روضة خريم ١٨٨
الرياض ١٠٢ .

(ف)

فارس ٤١
فاس ١٩٣
الفريرة

(ز)

الزبير ٩٢

(س)

سوهاج ٤٨
سدير ١٦٢
السمارة ١٦٤
السويد ١٩٥
السودان ١٩٤

(ق)

القاهرة ٨١ - ١٩٤
القدس ٨٠ - ١٨٨
القسطنطينية ١٥ - ١٦٥ ، ١٧٢
القصيم ١٦٢ - ١٨٠
القطيف ٩٥ - ١٣٠ ، ١٨٦
القيروان ٥٤

(ش)

الشام ١٣ - ٩٢ ، ١٦٥
شقحب ٧٢

(ك)

كربلاء ١٦٥
کردستان ٩٢
الكفرة ١٩٤
الكوفة ٤٦
الكويت ١٦٤

(ص)

صعيد مصر ١٦٣
صفين ١٣
صنعاء ١٩١

(هـ)

الهاتف ١٦٥
الهند ١٨٠
همدان ١٣٠

(و)

وادي حنيفة ١٦٢

(ى)

الجماعة ٩٤ ، ، ، ١٦٢ -
اليمن ١٦٥
ينبع
اليونان ١٧٧

(ل)

لندن ١٨٦ - ١٩٥

(م)

المجموعة ٩١ - ١٦٢
المدينة ١٦
الملة ١٦٦
مستغانم ١٩٣
مسقط ١٨٠
المغرب ١٦٥
المهدية ٥٤

(ن)

نافارين ١٧٧
نجروش
نيقية ٨٥

فهرس الأعلام

ابن عطاء ٦٥	(١)	إبراهيم باشا ١٦٩
ابن عمر ١٣		إبراهيم بسيوفى ٢٢٨
ابن عمرو ١٣ - ٤٤		إبراهيم بن أدهم ٤٨
ابن غنام ١٦٦		إبراهيم الهلباوى ١٩٧
ابن قدامة (موفق الدين) ١٣٧		ابن الأثير ٢٢ - ٣٩
ابن القيم ٧٧ ، ١٣٦		ابن بشر ١٦٨
ابن مسعود ٣١ - ٣٥		ابن تيمية الأب ٧٠
ابن المعتز ٢٠		ابن تيمية الجد ٧٠
ابن المقفع ٤١		ابن تيمية - أحمد ٨ - ١٠ - ١٢ - ٧٠
ابن مقله ٢٠		ابن الجوزى ٢٢ - ٢٣ - ٦٥
ابن هانى ٥٥		ابن حجر ٥٨ - ٧٨
ابن الهيثم ٢٠٣		ابن حنبل ١٠ - ٢٩ - ١٢٠
أبو بردة بن أبي موسى ١٢٣		ابن حوشب ٥٤
أبو الحسن الشاذلى ٥٩		ابن خلدون ٥٨ - ٦٦
أبو الحسن النورى ٥٠		ابن درع
أبو العباس المرسى ٥٩		ابن دقيق العيد ٥٨ - ٧١
أبو بكر البطائنى ٤٢		ابن الفارض ٦٦ - ١٣٥
أبو بكر بن حزم ١٦		ابن الزبير ١٣
أبو بكر المروزى ٣٧		ابن السبكى ٢٣
أبو تراب النخشبى ٤٩		ابن سيعين ٦٦
أبو حيان ٥٩		ابن سينا ٥٢ - ٢٠٣
أبو حليفة ١٠٤		ابن الصلاح ٦٦
أبو سعيد بن أبي الخير ٥١		ابن حزم ٥٢ - ٦٣
أبو الحسن الخرقانى ٦٠		ابن الطقطقى ٢٠
أبو حمزة ٤٨		ابن عربشاء ١٧٠
أبو حنيفة ٢٦ - ٤٨ ١٤٧		ابن عباس ١٣
أبو نخيثة ٣٧		

- أبو الدرداء ١٢٣ - ١٦١
أبو ذر ٤٧ - ١٩٥
أبو الربيع ٣٥
أبو الزناد ١٥
أبو سعيد الخزاز ٦٠
أبو سليمان الداراني ٤٨
أبو طالب المكي ٥٠
أبو الطيب الطبري ٢٣
أبو علي الجبائي ١١٢
أبو عبيدة ٤٧
أبو الفتح البستي ٤٧
أبو نعيم ٤٦
أبو هاشم (عبد الله بن محمد) ٥٧
أبو يزيد البسطامي ٤٩ - ٦٠
أبو يوسف ١٣٤
أحمد بن أبي الخوارى ٤٨
أحمد بن حجر ٥٨
أحمد بن موسى ٩٠
أحمد بن محمد بن مشرف ٩٠
أحمد الخليلي ٨٣
أحمد - السيد ١٩٠ - ١٩٣
أحمد غنيم ٢٢٩
أحمد محسن صبحي ٢٢٨
أحمد النفراوي ٨٣
أحمد بن عبد الله ٨٩
أحمد بن يحيى التميمي ٨٩
آزبوري ٤٩
إسماعيل الهادي قنديل ٢٢٨
إسماعيل سرهنك باشا ٩٥ - ١٧٦
إسفرائيلي ٦٣
أسلم ١٦
أفلاطون ٤٢ - ١٤٩
أفلوطين ٤٢ - ٦٠
الألوسي ١٩١
امرؤ القيس ٩٠
أنستاس الكرملي - الأب ١٩٦
أنطونيوس - القديس ٥١
(ب)
باخميوس ٤٨ - ٥١
باروخ ١٨٣
الباقر ٥٣
البخاري ١٠٨
بدر الدين ٢١
برنارد لويس ٨٥
برسي كوكس ١٩٦
بشر بن الوليد ١٣٤
بشر الحافي ٤٢ - ٤٩
البقاعي ٥٩
بقي بن مخلد ٨٩
بكر بن وائل ١٠٢
بنواميثان ١٨٣
البيروني ٤١ - ٤٧ ، ٢٠٣
بيكون - روجير ٢٠٣
بيكون - فرانسيس ٢٠٤
(ت)
تركي بن عبد الله ١٧٩
تميم ٥٥
توفيق أحمد البكري ٢٢٩
التيفاشي ٢٠٣
توليك ٤٧

(ث)

ثابت بن قيس ١٠٣
ثمارة ١٠٣
ثمل ٢٠
ثنيان بن سعود ٩٣
ثوبان ١٢٣

(ج)

جابر بن حيان ٢٠٣
الجاحظ ١٩
الجبرتي ٨٣
جبون ٥٢
جرير ٩٠
جرير بن عبد الله ١٣٠

جعفر الصادق ٥٣

جلال الدولة البويهى - ٢٤

جلال الدين بن الحسن بن برزك ٥٧

جلال الدين الرومى ٥١

(ح)

الحارث بن أسد ٣٣ - ٤٨

حذيفة ٨٩ - ١٢٢

حسان بن ثابت ١٠٣

الحسن البصرى ١٦ - ٢٣ ، ٤٦

حسن بن الشيخ ١١٤

الحسن بن الصباح ٥٦

الحسن بن على ١٣

الحسن بن القاسم ٢٠

حسن خلف خزعل ٢٢٨

الحسن محمد بن برزك ٥٦

حسن عبد القادر ٤٩

الحسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١١٤

الحسين بن على ١٣

حسين - الشريف ١٨٢

الحسين الحلاج ٥٠ - ٦٠

الخطيئة ٩٠

الحسين بن غنام ١٦٦

حفص الفرد ٢٧

الحصكفى ٥٧

حفصة - أم المؤمنين ٤٣

الحكيم الترمذى ٤٩

حمدان بن الأشعث ٥٤

حمد بن ناصر ١٦٣

حمدون القصار ٥٠

حمزة بن عمار ٥٤

(خ)

خالد بن سعود ١٨١

خالد بن عبد العزيز ١٨١

الخرقى ٨٩

خالد بن الوليد ١٠٢

خلف بن هشام البزار ٣٧

خليل بن قلاوون ١٨٠

الخنساء ٩٠

خمارويه ٢٤

خورشيد باشا ١٧٩

(د)

الدسوقي - ٥٩

ديكارت ٢٠٤

(ذ)

ذو الخلصة ١٣٠

ذو النون ٤٩ - ٦٠

(ر)

رابعة العدوية ٦٦

الرازي الطيب ٦٠-٢٠٣

الرازي المفسر ٦٢-٧٩

الراضي ٢٠

رأفت عبد الحميد ٥١

الرفاعي ٥٩

(ز)

روزفلت ١٨٣-١٨٤

زرادشت ٤١

زرقاء بنت عدى ١٤

زوسيموس ٦٠

زهير بن أبي سلمى ٩٠

زيد بن الخطاب ١٦-٩٤ ، ١٠٤

زيد بن علي ٥٣-١٠٢

زيد بن عمرو ٤٧

زين العابدين ٥٣

(س)

سارطون - جورج ١٩٠

سالم مولى أبي حليفة ١٠٤

ست الملك ٥٥

سخاو ٤٧

سعد زغلول ١٩٦

سعود بن عبد العزيز ١٦٢

سفيان بن عيينة ١٤٧

سفيان الثوري ٢٩-٣٤

سلمة ١٩٥

سلم = سلطان ٥٨

سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

١١٤-١٢٤ ، ١٧٦

سليمان بن عبد الوهاب ٩٥

سليمان بن علي بن مشرف ٩٠

سليمان بن محمد بن عزيز ٩٥

سليمان بن هشام ١٧

السنوسي ١٩١

السهروردي المقتول ٥٩

السيوطي ٥٩-٨٠

سواغ ١٣٠

(ش)

الشاطبي ٧٩-١١٨ ، ١٤٧ ، ٢٠١

الشافعي ٢٦

الشيلى أبوبكر بن جحدر ٤٦

شرف الدين أبو النجا موسى ٩٠

الشعبي ٢٣

الشعراني - عبد الوهاب ٥٩

شلتوت - محمود ١٩٧

شمس للدين بن قدامة ١٣٧

الشوكاني ١٩١

(ص)

صلاح الدين ٥٦-٨٠

صيمري ٢٣

(ط)

طاهر الطناحي ٢٠٢

الطيري ٦٢-١٥٢

طلحة ١٧٦

طغرل ٢٤

طليحة ١٠٦

(ع)

عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف ٩٢

عائشة أم المؤمنين ٣٨

عبد الله المرتعش ٦٤

عبادة بن الصامت ١٨٧

عبد المتعال الصعیدی ٢٢٨

عبد المجيد سليم ١٩٧

عباس محمود العقاد ٢٢٩

عبد الملك اللیثی ١٧

عبد الحلیم الجندی ٢٢٩

عبد الملك بن مروان ١٥

عبد الحمید بن عبد الرحمن ١٦

عبد الواحد التیمی ٨٩

عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ ١١٤ - ١٢٤

عبد الوهاب التیمی ٨٩

عبد الرحمن بن عبد الله ١١٤

عبد الوهاب بن سليمان آل مشرف ٩٠

عبد الرحمن الرافعی ١٧٧

عبيد الله بن زياد ١٧

عبد الرحمن بن فيصل ١٨٠ - ١٨١

عبيد بن الأبرص ٩٠

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ٢٢٩

عثمان بن معمر ٩٢ - ١٠٠

عبد العزيز آل سعود - الملك - ١٨٠ ،

عز الدين بن عبد السلام ١٣٧

عبد الفتاح بركة ٢٢٨

عقبة بن عامر ٣٦

عبد الكريم بن أبي العوجاء ٤١

علاء الدين الصالحی ١٣٧

عبد الكريم الخطيب ٢٢٨

علي بن أبي طالب ١٤ - ٤٤ ، ١٢٣

عبد الكريم غرايبة ٢٢٩

علي بن شرف التیمی ٨٩

عبد العزيز بن محمد بن سعود ١١٢ - ١٦٤

علي بن الشيخ ٧٤

عبد العزيز بن باز ٩٢

علي سامی النشار ٢٢٨

عبد العزيز بن الشيخ ١١٤

علي سرور الزنكلونی ١٩٧

عبد العزيز بن الحصين ١١٠

علي الكيلاني ١٦٣

عبد العزيز بن حمد ١٦٩

عم أنس ١٣٠

عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ ٢٢٨

عمار بن ياسر ٤٥

عبد الله آل عبد الوهاب ٩٠

عمر بن الخطاب ١٥ - ٤٤ ، ١٢٣

عبد الله باشا ١٦٥

عمر بن عبد العزيز ١٥ ، ١٦ ، ١٧

عبد الله بن إبراهيم بن سيف ٩١

عمر بن هبيرة ٢٣

عبد الله بن ثنيان ١٦٩

عمران بن حصين ٢٧

عبد الله بن حسن آل الشيخ ١١٤ - ١٨٧

عمير بن سعد ٤٤

عبد الله بن الشيخ ١١٤ - ١٣٦ ، ١٦٨

عنزة ٩٠

عبد الله بن سعود ١٦٨

عيسى بن موسى ٥٤

عبد الله بن فيصل ١٨١

عينة بن حصن ١٠٣

عبد الله عبد المحسن التركي ٢٧

(ف)

فاروق - الملك ١٧٨

فرزدق ٩٠

فريدة ١٩

فضيل بن عياض ٤٨ - ٧٧

فيصل بن سعود ١٦٨

فيصل بن عبد العزيز - الملك ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٩

فيصل بن عبد الله ١٨١

(ق)

قارى منلا على ٥٨

قاسم أمين ١٩٧

قبيصة ١٨ ، ١٩

قتادة بن دعامة السدوسي ١١٨ - ١٤٧

قراطيس ١٨

القزويني ٢٠٣

قطر الندى ٢٤

القشيري ٤٩ - ٦٣

(ك)

كتاني ٦١

كلاباذي ٤٨ ، ٤٩

كيكاؤس ٥٩

كيسان ١٠٢

(ل)

لاسكارى ١٦٣

لاوست ٧٦

اللات ١٣٠

الليثي بن سعد ١٥٠

(م)

ماردة ١٨

مالك بن أنس ٧ - ١٤٧ ، ١٥٢

مالك بن دينار ٤٤

مالك بن نويرة ١٠٤

مالك بن زيد مناة تميم ٩٠

ماسينيون ١٩٦

المأمون ١٨

مانى ٤١

الماوردي ٢٣

المتقى ٢٠

متلا على القارى ٥٨

متمم بن نويرة ١٠٤

المتوكل ١٩

المجموعى ٩١

محمد أبو زهرة ٢٢٨

محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١١٤

محمد بن الحسن بن يزرك ٥٧

محمد بن الحنفية ٥٤

محمد بن إسماعيل بن جعفر ٥٤

محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ محمد عبد الوهاب

١٧١

محمد بن سعود ١٠ - ٩٩

محمد بن على السنوسى ١٩١

محمد بهجة الأثرى ٢٢٩

محمد حسين هيكل ٢٢٩

محمد بن على الحكيم الترمذى ٤٩

محمد حياة السندى ٩١

محمد السعيد جمال الدين ٢٢٨

محمد السعيد جمال الجليلند ٢٢٧

محمد عبد الله عنان ٢٢٩

المهدي (صاحب الثورة المهدية) ١٩٤
موسى الكاظم ٥٣
ميمون بن مهران ١٦
مينو ١٨٨

(ن)

نابليون بونابرت ١٦٣ - ١٨٩
نزار ٥٥
نسر ١٣٠
نجدة بن عويمر
النخعي - إبراهيم ٣٤
نظام الملك ٥٦
نور الدين كحالة ٢٢٩

(هـ)

هارتمان ٤٧
هانوتو ١٩٧
هجویری ٤٩
هوسكتر ١٨٥
هشام بن عبد الملك ١٧
هوذة بن علي ١٠٣
هورتين ٤٧

(و)

ود ١٣٠
واردن ١٨٠
وايزمان - حاييم ١٨٥
ولي الله الدهلوي ١٩٠

محمد علي ١٦٨
محمد عبده ١٧٢ - ١٩٦
محمد كرد علي
محمد مصطفى المراغي ١٩٦
محمود شكرى الألوسى ١٩٥
محمود شلتوت ٢٠٣
محيى الدين بن عرنى ٥٠ ، ٥٧ ، ١٤٩
محيى الدين النووى ٨٠
المختار بن عبيد ١٧
مرعى بن يوسف ٩٠
مروان بن الحكم ١٥
مزدك ٤١
المستعصم ٢٠
المستعلى ٢٠
المستنجد ٢٠
مسعود - الشريف ١١٠
منصور - الشريف ١٦٣
المسعودى ١٦ ، ٢٢ ، ٢٠٣
مسيلمة بن حبيب ١٠٢
مشارى بن سعود ٩٣
مصطفى عبد الرازق ٧٠ ، ١٩٦
المطيع ٢١
معاذ بن جبل ١٢٥
معاوية بن أبى سفيان ١٣ - ٧٦
المعتمد ٢٠
المعز لدين الله ٥٥
المغيرة ١٣٠
المقتنى ٢٠
منصور أبا الخيل ٩٤
منصور بن عمار ٤٩
المهدي الخليفة العباسى ٢٩ ، ٣٤

(٥)

يحيى بن سعيد ١٦ - ٤٦

يحيى بن معاذ الرازي ٤٩

يحيى بن معين ٢٩

يزيد بن عبد الملك ١٨ - ٢٣

يزيد بن معاوية ١٥

يعقوب ١٣٠

يفوٲ ١٣٠

يوسف كنج باشا ١٦٥

مراجع الكتاب

- ١ - كتاب التوحيد
- ٢ - مختصر الإنصاف والشرح الكبير
- ٣ - مختصر سيرة الرسول
- ٤ - كشف الشبهات
- ٥ - الكلمات النافعة
- ٦ - مسائل الجاهلية التي خالف فيها الرسول أهل الجاهلية .
- ٧ - نصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين
- ٨ - كتاب الكبائر - كتاب أصول الإيمان كتاب فضل الإسلام .
- ٩ - مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لعلماء نجد الأعلام .
- ١٠ - أصول مذهب الإمام أحمد
- ١١ - فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد
- ١٢ - القول السديد في شرح كتاب التوحيد
- ١٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١٤ - الروحية عند ابن عربي
- ١٥ - أعلام الموقعين
- ١٦ - مدارج السالكين - عدة الصابرين
- ١٧ - طريق المجتدين وباب السعادتين
- ١٨ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي
- ١٩ - السياسة الشرعية
- ٢٠ - الاعتصام
- ٢١ - المجازات النبوية
- ٢٢ - تلخيص البيان في مجازات القرآن
- ٢٣ - الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل
- ٢٤ - رسالة التوحيد
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- مكتبة الأزهر
- د عبد الله بن عبد المحسن التركي
- عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١٢٥٨)
- عبد الرحمن بن ناصر بن سعدى
- أبو بكر الخلال
- د . عبد الجليل راضى
- ابن قيم الجوزية
- ابن قيم الجوزية
- ابن قيم الجوزية
- ابن قيم الجوزية
- ابن تيمية
- الشاطبي
- الشريف الرضى - مؤسسة الحلبي - طبع مصر
- الشريف الرضى
- محمد السيد الجليلند
- الشيخ محمد عبده

- ٢٥ - تاريخ نجد
 ٢٦ - عنوان المجد في تاريخ نجد
 ٢٧ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب
 ٢٨ - صقر الجزيرة
 ٢٩ - محمد بن عبد الوهاب
 ٣٠ - محمد بن عبد الوهاب - الدعوة الوهابية
 ٣١ - جوانب من حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
 ٣٢ - من حياة ابن عبد الوهاب
 ٣٣ - ابن تيمية
 ٣٤ - ابن تيمية
 ٣٥ - القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي
 ٣٦ - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام
 ٣٧ - المجددون في الإسلام
 ٣٨ - زعماء الإصلاح
 ٣٩ - ضحى الإسلام
 ٤٠ - الصلة بين التصوف والتشيع
 ٤١ - نظرية الإمامة عند الشيعة الإمامية
 ٤٢ - طائفة الإسماعيلية
 ٤٣ - دولة الإسماعيلية في إيران
 ٤٤ - الحكيم الترمذي ونظرية الولاية
 ٤٥ - كتاب الرياضة وأدب النفس لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي
 ٤٦ - ولاية الله والطريق إليها
 ٤٧ - قطر الولي على حديث الولي
 ٤٨ - كشف المحجوب للهجویری (بالفارسية)
 ٤٩ - الملامية والصوفية
 ٥٠ - الإمام القشيري
 ٥١ - مولانا جلال الدين الرومي
- الشيخ حسين بن غنام
 عثمان بن عبد الله بشر النجدي الحنبلي
 حسن خلف الشيخ خزعل
 أحمد عبد الغفور عطار
 أحمد عبد الغفور عطار
 عبد الكريم الخطيب
 الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ
 محاضرة بمؤتمر الفقه الإسلامي سنة ١٩٧٦
 محاضرة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيس
 الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
 الشيخ محمد أبو زهرة .
 د . محمد يوسف موسى
 الغزالي
 د . علي مي النشار
 عبد المتعال الصعيدي
 أحمد أمين
 أحمد أمين
 د . مصطفى كامل الشبيبي .
 د . أحمد محمود صبحي
 د . محمد كامل حسين
 د . محمد السعيد جمال الدين
 د . عبد الفتاح بركة
 أ - ج آريوى و د . علي حسن عبد القادر
 إبراهيم إبراهيم جلال
 الشوكاني
 ترجمة د . إسعاد عبد الهادي قنديل
 د . أبو العلا عفيفي
 د . إبراهيم بسيوني
 أبو الحسن الندوي

- ٥٢ - الأخلاق المتبولة
عبد الوهاب الشعراني
- ٥٣ - الطبقات الكبرى
عبد الوهاب الشعراني
- ٥٤ - الجهاد الإسلامى
د . أحمد غنيم .
- ٥٥ - قيام الدولة العربية السعودية
د . عبد الكريم غرابية
- ٥٦ - الدولة العربية الأولى
د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٥٧ - حقائق الأخبار
إسماعيل سرهنك باشا
- ٥٨ - معجزة فوق الرمال
أحمد عسة
- ٥٩ - فيصل ملك العربية (بالفرنسية)
بنوا مشان
- ٦٠ - درب الانتصار
عبد الوهاب فتال
- ٦١ - الصحف والسيف (مجموعة خطابات الملك
عبد العزيز)
- ٦٢ - مذكرات الإمام محمد عبده
محى الدين القاسمى
- ٦٣ - محمد عبده
طاهر الطناحى
- ٦٤ - أعلام العراق
عباس محمود العقاد
- ٦٥ - الصديق أبو بكر
محمد بهجة الأثرى
- ٦٦ - الإسلام والعروبة
د . محمد حسين هيكل
- ٦٧ - مهدى الله
د . محمود كامل
- ٦٨ - الفخرى فى الآداب السلطانية والأمم
توفيق أحمد البكرى
- الإسلامية .
- ٦٩ - الإمام الشافعى ناصر السنة
ابن الطقطقى
- ٧٠ - المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن
عبد الحلیم الجندى
- ٧١ - حضارة الإسلام فى عز العرب
عبد الحلیم الجندى
- ٧٢ - تراجم إسلامية
محمد كرد على
- ٧٣ - العالم البيزنطى
محمد عبد الله عثمان
- ٧٤ - تاريخ الحركة القومية
ج . م هسى ترجمه (وقدم له د . رأفت عبد المجيد)
- ٧٥ - مصر والسودان
عبد الرحمن الرافعى
- ٧٦ - الأحاديث القدسية
عبد الرحمن الرافعى
- ٧٧ - معجم الأدباء
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- ٨٨ - معجم المؤلفين
ياقوت
- نور الدين كحالة

للمؤلف

- ١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح طبعة دار المعارف
- ٢ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول طبعة دار المعارف
- ٣ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة طبعة دار المعارف
- ٤ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف
- ٥ - أئمة الفقه الإسلامى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٢
- ٦ - نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤
- ٧ - الإمام جعفر الصادق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦
- ٨ - المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن دار الاتحاد العربى سنة ١٩٧٦
- ٩ - المحامون وسيادة القانون مطبعة دار الاتحاد العربى ١٩٧٦
- ١٠ - الشريعة الإسلامية طبعة دار المعارف (مجموعة كتابك)
- ١١ - من أجل مصر البطل أحمد عصمت طبعة المطبعة التجارية
- ١٢ - مجموعة مذكرات قضائية (فى جزأين) طبعة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٦٥
- ١٣ - توحيد الأمة العربية طبعة وزارة الثقافة - مصر سنة ٦٤
- ١٤ - تطوير التشريعات طبعة وزارة الثقافة - مصر سنة ٦٥
- أبحاث منشورة
- ١٥ - الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة فى العصر الحديث . مجلة إدارة قضايا الحكومة ١٩٧٧
- ١٦ - نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامى مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٥
- ١٧ - الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع (بحث مقدم لمجلس الأمة عند إعداد الدستور المصرى سنة ١٩٧١) . مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧١

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٤٧٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٥٥٣-٧

١/٧٨/٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب بأسلوب عصري وتحقيق علمي :

كيف تسربت البدع والخرافات إلى المجتمع الإسلامي وأفقدته أسباب إمتيازه وكيف يقلبه من عثاره .

١- إخلاص العبادة لله والتخلص من الأوهام والمعتقدات التي تشرك مع الله بعض الأحياء والأموات .

٢- تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً في حياة الأفراد وأنظمة الدولة .

كيف قدمت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب الدليل الحى على ذلك بانتصارها للدين الصحيح . وانتشارها في أسوأ الظروف . وكيف عملت في خدمتها الانتصارات والهزائم في معارك خاضها « الموحدون » وقادها الأمير محمد بن سعود وأبنائوه .

اقتدار « المنهج الفلسفى » على إقامة الدولة العصرية باتباع « المنهج القرآنى » القاضى باستعمال العقل والاعتبار بالواقع الملموس ونبد التأويل الباطنى وادعاء العلم اللدنى .

وهو المنهج الذي تعلمته أوربا فيما ترجمته من كتب المسلمين منذ القرن الثانى عشر للميلاد وبلغت به مبالغها الحالية .

